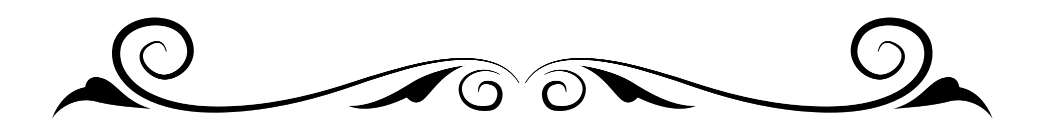
هكذا قال الكواكبي

هكذا قال الكواكبي
تأليف / د/ عبد الكريم المويل
الطبعة الأولى / ٢٠١٧
داركتاب للنشر والتوزيع
المدير العـــام / طارق رمضان فارس
تصميم الغلاف / عبدالله رجب
الإخراج الداخلي/ أحمد صلاح مرعي
رقــم الإيــداع / ٢٩١٦ / ٢٠١٧
الترقيــم الدولي / ٩٧٨٩٧٧٦٥٩٧٠٢٠

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر نشر أواقتباس هذا العمل أو أي جزء منه بأي وسيلة تصويرية أو إليكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات دون إذن كتابي من الناشر، ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية.

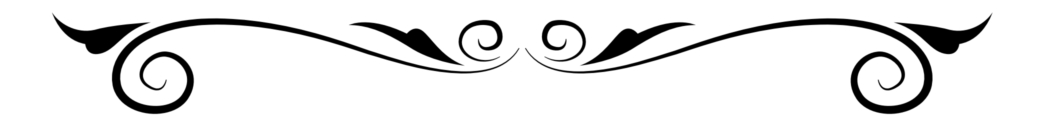


هكذا قال الكواكبي

تأليف

د/ عبد الكريم المويل

القاهرة - ٢٠١٧



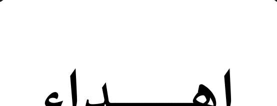
إذا لم تقم بالعدل فينا حكومة
فنحن على تغييرها قُدَراءُ

أبو العلاء المعري

((الأمة التي لا يشعر أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية))

عبد الرحمن الكواكبي

إهـــداء



إلى الكواكبي الذي ثار على الاستبداد، فقضى نحبه على طريق الحرية .

إلى جميع الأحرار في العالم .

إلى كل الثوار في وجه الطغاة والمستبدين .

أهدي عملي المتواضع هذا، عله يكون شمعة صغيرة

تنير على دروب الحرية .

عبد الكريم

تـــوطئـــة

- من هو الكواكبي ؟

هو عبد الرحمن بن أحمد بهائي بن محمد بن مسعود الكواكبي، من أسرة عربية قديمة، كانت تقطن أردبيل، تنتسب إلى صفي الدين الأردبيلي، تولى بعضهم حكم إيران ومنهم الشاه إسماعيل الصفوي الذي دافع عن إيران ضد هجمات الترك عليها بقيادة السلطان سليم .

والده الشيخ أحمد الكواكبي [١٢٤٥ – ١٣٠٠ هج = ١٨٢٩ – ١٨٨٢ م]، الذي تلقى العلوم العقلية والنقلية على أشياخ عصره في حلب، ودرس في المدرسة الكواكبية – المدرسة الأشرفية التي كانت تتبع مناهج الأزهر في الدراسة، ثم أصبح مديرا لها، كما درس في الجامع الأموي بحلب، واشتهر بعلم الفرائض وتحرير الصكوك، واشتغل بأمانة الفتوى، وعين عضوا في مجلس إدارة الولاية، تولى القضاء فترة من حياته، وكان متصلبا في دينه وقافا عند الحق . وأمه هي عفيفة بنت مسعود النقيب، مفتي أنطاكية .

ولد الكواكبي في [٢٣ / شوال / ١٢٧١م = ٩ / تموز / يوليو / ١٨٥٥ م]، توفيت أمه وهو طفل صغير لم يتجاوز السادسة من عمره، فعهد به أبوه إلى خالته صفية، وكانت متعلمة مثقفة، تولت تربيته في أنطاكية، وشاركها في تعليمه قريبها نجيب النقيب الذي عمل فترة مدرسا للخديوي عباس في مصر.

وحين بلغ العاشرة من عمره، عاد به أبوه من أنطاكية إلى حلب، ووضعه في المدرسة

الكواكبية، التي أصبح مديرا لها، وتتلمذ فيها على يد أبيه وعلى يد عدد من علماء حلب، حيث تعلم القراءة والكتابة العربية والتركية، وحفظ شيئا من القرآن الكريم، ودرس العلوم العصرية واللغة الفارسية والشريعة والأدب، كما درس بعض علوم الطبيعة والرياضة، ولم يكتف بذلك بل راح يعب من علوم السياسة والمجتمع والتاريخ والفلسفة.

تزوج من السيدة فاطمة بنت الشيخ على الكحيل، أحد أساتذته، وأنجب منها تسعة أولاد، أربعة إناث وخمسة ذكور، أصغرهم فاضل، الذي كان طفلا عند وفاة والده، وأكبرهم كاظم الذي بقي أعزب ورافق والده في رحلته إلى مصر، وكان الكواكبي حريصا على تربية أولاده ذكورا وإناثا أحسن تربية فوجه أولاده لدراسة العلوم الحديثة، واللغات الأجنبية، فكان منهم طبيبان وصيدلي ومهندس زراعي، وكان يؤمن بتعليم المرأة ورفع مستواها التعليمي والثقافي، فوضع بناته في المدارس لينالوا ما استطاعوا من العلم والتعليم، وأهم ما كان يوصي به أولاده، كما يظهر في مراسلاته لهم، تقوى الله والتمسك بالأخلاق الفاضلة وطاعة والدتهم، والتقدم في العلم .

- وظائفه الرسمية والأعمال التي قام بها :

دخل الكواكبي الحياة العملية وعمره لم يتجاوز السابعة عشر سنة، ففي سنة [١٢٨٩هج=١٨٧٢م] تم تعيينه محررا في صحيفة **فرات** الرسمية، الناطقة بلسان الحكومة العثمانية، وكانت تصدر باللغتين العربية والتركية، واستمر بالعمل فيها أربعة سنوات حتى عام [١٢٩٣هج=١٨٧٦م]، ولأنه رأى أن هذه الصحيفة لا تحقق طموحاته في إعلان الحقيقة على الناس هجرها، وأصدر بالاشتراك الصوري مع السيد هاشم العطارسنة [١٢٩٤هج=١٨٧٧م] صحيفة **الشهباء** الخاصة، وكانت أول صحيفة عربية تصدر في حلب، ولم يصدر منها غير ستة عشر عددا فقط، إذ قام بإغلاقها والي حلب كامل باشا القبرصي، لما وجد أنها تنتقد سياسة السلطنة العثمانية بشدة .

وربما أرادت السلطات العثمانية أن تشغله عن نشر الوعي بين الناس فعينته سنة [١٢٩٥هج=١٨٧٨م] عضوا فخريا في لجنتي المعارف والمالية، لكن لم تغره المناصب، ولم ييأس من الإصلاح عن طريق نشر الوعي بين الناس، فأنشأ سنة [١٢٩٦هج=١٨٧٩م] صحيفة **اعتدال** التي كانت تصدر باللغتين العربية والتركية، لكنها هي الأخرى لم تستمر

كثيرا إذ صدر منها عشرة أعداد فقط، ثم أوقفتها الحكومة لجرأة صاحبها على انتقاد سياسة الحكومة .

ولم تيأس الحكومة من محاولة إسكاته بالمناصب، فعينته في لجنة المقاولات والأشغال العامة، وقلدته رئاسة قلم المحضرين في الولاية، ثم عضوية لجنة امتحان المحامين، وفي سنة [١٢٩٩هج=١٨٨١م] تم تعيينه مديرا فخريا للمطبعة الرسمية، ثم عين رئيسا لبلدية حلب، وقد أراد السلطان عند تعيينه هذا استمالة الكواكبي إليه فمنحه النيشان المجيدي الثالث ورتبة إزمير المجردة، لكن الكواكبي عندما تولى هذا العمل كان أول ما قام به هو قطع أسباب الرشوة عن العمال الذين يباشرون الأعمال والمصالح، فلجأ إلى زيادة رواتبهم، لعلمه بأن الذي يضطر أكثر العمال إلى الرشوة هو قلة الراتب، فعزله الوالي من رئاسة البلدية التي قضى فيها شهرا واحدا فقط، وأعاد الرواتب إلى ما كانت عليه، وألزم الكواكبي بدفع ما كان زاده للعمال في مدة رئاسته إلى صندوق البلدية، كما ألزمه بدفع ما أنفق على سلاسل الحديد التي وضعها على منافذ أسواق حلب الشهيرة لمنع الجمال من دخولها، علما بأن الوالي عثمان باشا الأعرج الذي عين الكواكبي في رئاسة البلدية وعزله منها، أمر بإزالتها عقيب عزله، ثم عاد فأمر بإعادتها بعد زمن قريب، لكنه لم يعد للكواكبي الغرامة التي ظلمه بها .

أما المشاريع العمرانية التي باشرها وحصل على امتيازاتها فقد كانت كثيرة، لكنها فشلت كلها بسبب استبداد الولاة وجهلهم، وجهل العامة، ولضيق الوقت، وفقدان المال، واستفحال الفساد، ولانشغال الكواكبي بالنضال والسياسة، ومن هذه المشاريع: تجفيف المستنقعات في منطقة إدلب، شركة انحصار الدخان ((شركة حصر التبغ والتنباك))، جلب نهر الساجور إلى حلب، استخراج القوى الكهربائية بواسطة شلالات أنطاكية ((توليد الكهرباء من شلالات أنطاكية)) لإنارتها وإنارة حلب، وإقامة سد على نهر العاصي بالقرب من قرية دركوش لتوليد الكهرباء، تأسيس معمل خاص لصنع الخزف الصيني، استثمار المياه المعدنية في قرية الشيخ عيسى على ضفاف نهر العاصي بالتعاون مع المهندس الفرنسي ((شارتيه))

ومن هذه المشاريع أيضا، إنشاء مرفأ في السويدية قرب أنطاكية ومد خط حديدي منها إلى حلب، واستخراج معدن النحاس من منطقة ((أرغنة)) .

وفي سنة [١٣٠٠ هج = ١٨٨٢ م] توفي والده مما أثر في نفسه كثيرا، لكنه لم ينزو واستمر في نصر المظلومين وانتقاد السلطة، واستمرت الحكومة في إغرائه بالمناصب، ففي سنة [١٣٠٤ هج = ١٨٨٦م] عينته عضوا في محكمة التجارة، وفي سنة [١٣١٠ هج = ١٨٩٢ م] تم تعيينه رئيسا لغرفة التجارة بحلب ورئيسا للمصرف الزراعي فيها، وفي سنة [١٣١٢ هج = ١٨٩٤ م] عينته رئيسا لكتاب المحكمة الشرعية، ثم في سنة [١٣١٤ هج = ١٨٩٦ م] أعادته رئيسا لغرفة التجارة بحلب، ورئيسا للجنة بيع الأراضي الأميرية فيها .

لكن أيا من تلك المناصب لم يثنه عن عزمه في نقد السلطة القائمة والتصدي للخدمة العامة، إذ فتح مكتبا لنصرة المظلومين حتى لقب بأبي الضعفاء، مما أغضب السلطات والولاة منه، فسعوا للإيقاع به والتخلص منه، فقد استغلت السلطة محاولة اغتيال والي حلب جميل باشا وألقت القبض على الكواكبي بتهمة التحريض على قتل الوالي، لكن ساحته برئت وعزل الوالي، وفي مرة ثانية اتهمته الحكومة بالاتصال بدولة أجنبية، فقد اتهمه والي حلب عارف باشا بالاتفاق مع دولة أجنبية على تسليم حلب، وبإقامة منظمة سرية تناوئ نظام الحكم، وحكم عليه بالإعدام أمام محكمة حلب المتآمرة مع الوالي، لكن الكواكبي قدم تظلما ورفض المحاكمة في حلب، كما قامت مظاهرة في حلب تطالب بالإفراج عنه، فاضطرت السلطنة إلى إعادة محاكمته في بيروت، حيث قدم دفاعا شخصيا عن نفسه، فبرئت ساحته وتبين تزوير الوالي للأوراق التي اتهمه بواسطتها، وعزل الوالي .

وفي إحدى المرات أرسلت له السلطات أحد عملائها، فهاجم الكواكبي ليلا وضربه بالخنجر طعنتين، ولولا سرعة بديهة الكواكبي بالاستنجاد بخادمه، الذي لم يكن مرافقا له، مما أدى إلى هرب المجرم قبل أن ينجز مهمته في قتله، لتمكن من قتله .

ولكي يتخلص من تهديد السلطة له بالقتل من ناحية، ومن إلحاحها عليه بالتعامل معها والسكوت عنها من ناحية أخرى، إذ سلمته قرارا بتعيينه نائبا شرعيا في قضاء راشيا التابعة لولاية سورية، ولأنه كان يحلم بجو من الحرية يستطيع أن ينشر أفكاره من دون رقيب ولا سجان، فقرر الهجرة إلى مصر سرا، ليغتنم فرصة الحرية بالرأي والتعبير التي كانت متوفرة في ظل حكم الخديوي عباس حلمي آنذاك، فتظاهر بقبول وظيفته

الجديدة، وأخبر أهله بأنه سيقوم بزيارة إلى استانبول لأمور تتعلق بوظيفته الجديدة في راشيا، غادر حلب إلى الإسكندرون في طريقه إلى استانبول، لكنه في الاسكندرون غير طريقه إلى الإسكندرية، وكان ذلك بتاريخ [١٥ / محرم / ١٣١٦م = ١٦ أيار / مايو / ١٨٩٩ م] .

وصل إلى القاهرة في منتصف [ت٢ / ١٨٩٩ م] وسكن في حي الإمام الحسين قرب الجامع الأزهر، وهناك التقى بالمفكرين والأدباء وشارك في الحركة الفكرية في مصر، وذاع صيته في مصر بعد أن أصدر كتابه **أم القرى** باسم مستعار هو السيد الفراتي وكتب فصولا منه في صحيفة المنار، وذاع صيته أكثر بعد أن أصدر كتابه **طبائع الاستبداد** تحت اسم الرحالة ك ونشر بعضا من مقالات الكتاب في صحيفة المؤيد لصاحبها علي يوسف .

وفي سنة [١٣١٩هج = ١٩٠١م] قام برحلة إطلاعية إلى البلدان العربية والإسلامية ليدرس أحوالها، وهناك دون خواطره ليصدرها في كتاب، لكن وفاته المفاجئة حالت دون ذلك، فقد توفي مساء الخميس [٦/ربيع الأول / ١٣٢٠ هج = ١٤ / حزيران / يونيو / ١٩٠٢ م]، إثر احتسائه فنجان قهوة في مقهى يلدز قرب حديقة الأزبكية في القاهرة، فقد أرسل السلطان عبد الحميد الثاني الملقب بالسلطان الأحمر أحد أعوانه فدس للكواكبي السم في فنجان قهوته، وبعد أن احتسى القهوة بنصف ساعة أحس بألم في أمعائه، فانتقل إلى داره ومعه ابنه كاظم، ثم في منتصف الليل ذهب ابنه لإحضار الطبيب ولما عاد ومعه الطبيب وجداه ميتا، وفي اليوم التالي أمر السلطان عبد الحميد الثاني أحد أعوانه، عبد القادر القباني صاحب ثمرات الفنون التي كانت تصدر في بيروت، أن يقصد محل إقامة الكواكبي، ويحرز جميع أوراقه، ويرسلها إليه وقد فعل ذلك في اليوم التالي لوفاة الكواكبي . ويقول حفيد الكواكبي المسمى باسمه، عبد الرحمن الكواكبي، أن مخطوط طبائع الاستبداد المعدل رماه عمه كاظم في صندوق القمامة، فلم يعثر عليه، وأحضره معه بعد انتهاء التفتيش ومصادرتهم كل ما في البيت من أوراق، من بينها مسودات كتابيه **((العظمة لله))** و **((صحائف قريش))** .

حزن الأدباء والمفكرون لفقده، ورثاه كثيرون منهم، فرثاه **مصطفى صادق الرافعي** بأبيات ولا أجمل، وكتب **حافظ إبراهيم** على قبره :

هنا رجل الدنيا، هنا مهبط التقى　　　هنا خير مظلوم، هنا خير كاتب

قفوا واقرؤوا (أم الكتاب) وسلموا　　　عليه، فهذا القبر قبر الكواكبي

ورثاه الشيخ رشيد رضا في مجلة المنار فقال عنه : ((**رجل عظيم من رجال الإصلاح الإسلامي، وعالم عامل من علماء العمران، وحكيم من حكماء الاجتماع البشري .. وكان صاحب عزيمة لا يهاب حاكما ولا يخاف ظالما**)) .

وقال فيه العلامة **محمد كرد علي** في مجلة الهلال : ((**رجل سيماء الفضل في وجهه، ودلائل سعة العلم في حديثه .. كان كبيرا في عقله، كبيرا في همته، كبيرا في علمه، وكان خلابا للألباب، إذا ضحك وإياه ناد لا تريد فراقه من بعد، كانت عليه سيماء الكآبة مما مني به، ومع تمسكه بالإسلام، لم يكن متعصبا، يأنس بمجلسه المسلم والمسيحي واليهودي على السواء، لأنه كان يرى رابطة الوطن فوق كل رابطة**)).

وكتب عنه **يعقوب صروف** في المقتطف : ((**كان يقول الحق ولو على نفسه، ومن كان هذا حاله يقاسي الأمرين، ولا يهدأ له بال، فكان ينصح بعضهم بالرجوع عن الجور والعسف، فحنقوا عليه من جراء ذلك، وتواطأ بعض العمال مع الأعيان عليه وساموه من ضروب التنكيل ألوانا، فصبر على ما أصابه مما يصيب في العادة المنورين العقلاء في البلاد الشرقية، ومن صفاته أنه ما توانى في أمر بدأ فيه، ولا تضجر ولا تململ، وكان رحب الصدر، عاقلا يخاطب الناس على قدر عقولهم، فهو سياسي محنك مع الساسة، وعمراني اجتماعي مع علماء العمران، وعالم ديني مع علماء الدين، وتاجر مع التجار، وزارع مع الزراع، وصانع مع الصناع، وعامل مع العمال، وكبير مع الكبراء، بحيث كان الناظر إليه لأول وهلة، يقرأ في جبهته إمارات العقل والخبرة الطويلة والعلم الوافر، وإنه كان واسع المادة بعيد غور العقل .. يتكلم عن روية ولا ينطق عن هوى**)) .

وكتب عنه **أحمد أمين** في زعماء الإصلاح : ((**.. نزيه النفس، لا يخدعها مطمع ولا يغريها منصب، شجاع فيما يقول ويفعل، مهما جرت عليه شجاعته من سجن وضياع مال وتشريد ..**)) .

مقدمـــــة

ما أن يذكر الكواكبي مرة، لفظا أو كتابة، إلا ويتبادر إلى الذهن مباشرة فكرة الاستبداد، وكأن اسم عبد الرحمن الكواكبي ارتبط في ذهن المتلقي بمصارعة الاستبداد فكرا وسلوكا وممارسة، والعكس بالعكس، فما من أحد يتحدث عن الاستبداد إلا وكان الكواكبي حاضرا في ذهنه، وما من أحد كتب عن الاستبداد إلا وكانت كتابات الكواكبي بعضا من أمثلته وشواهده.

ويعود سر العلاقة بين الكواكبي والاستبداد إلى كتابه ذائع الصيت ((**طبائع الاستبداد، ومصارع الاستعباد**))، الذي نشره الكواكبي ككتاب لأول مرة في مصر عام [١٣١٩ هج - ١٩٠١ م]، وقد نشره تحت اسم مستعار هو ((**الرحالة ك**)) ، وذلك تخفيا وخوفا من المستبد العثماني آنذاك. وكان قد قام بنشر بعض فصوله كمقالات سياسية في أشهر جرائد مصر آنذاك ((**المؤيد والعمران**))، مغتنما فسحة حرية الرأي والتعبير التي كانت متوفرة نوعا ما في عهد **عباس حلمي** خديوي مصر بين عامي [١٨٩٢ – ١٩١٤ م] على حد تعبير الكواكبي نفسه.

والحقيقة إن ذيوع فكرة الربط بين الكواكبي وكتابه هذا، بهذا الشكل الكبير، وكأن الرجل اختزل في كتابه هذا، أو كأن هذا الكتاب هو كل ما قاله الكواكبي، أرى أن فيه إنصاف للكتاب وظلم للكاتب وتحجيم له في آن. لماذا ؟!

- هو إنصاف للكتاب، لأن هذا الكتاب على صغره (١)، يعتبر من أهم ما كتب بالعربية عن أهم آفة تهدد مجتمعاتنا بالتفكك والتخلف والانحلال، ألا وهو الاستبداد، لدرجة

يمكن القول أن كل من كتب بالعربية عن الاستبداد، على قلتهم، يعتبر ضيفا على مائدة الكواكبي وعلى كتابه فيما يكتب، وقد أخذ الكتاب حقه من الشهرة والذيوع، لدرجة خلد فيها اسم كاتبه. وفي هذا الكتاب يعتبر الكواكبي أن ((**الاستبداد السياسي**)) (٢)، هو السبب الحقيقي، بل وربما الوحيد، لتخلف الأمة وانحطاطها. وفيه نقرأ تعريف الكواكبي للاستبداد ومفهومه له، وعلاقة الاستبداد السياسي بكل من الدين، والعلم، والمجد، والمال، والأخلاق، والتربية، والترقي (٣)، ليصل بنا في نهاية كتابه إلى علاج هذه الآفة اللعينة من وجهة نظره على الأقل. ويبلغ الكتاب من الأهمية لدرجة يمكننا القول أن لا غنى لكل مهتم بالشأن العام ولكل باحث في السياسة وشؤونها، ولكل مناهض للاستبداد ومكافح ضده عبر العصور، من العودة لهذا الكتاب والوقوف عنده مليا، وأن يشبعه قراءة وفهما وتفسيرا، ولا شك أنه سيجد فيه ما يغنيه وما يثري أفكاره.

- أما أن في ذلك ظلم للكاتب، فهذا مما لاشك فيه، ذلك لأن عبد الرحمن الكواكبي أكبر وأهم وأعم وأشمل من كتابه هذا بكثير، فالكتاب هو جزء مما قاله الكواكبي وليس كل ما قاله الكواكبي، واختزال الكواكبي في كتابه هذا ظلم للكواكبي وتصغير وتحجيم لدوره كرائد ومفكر من رواد نهضتنا العربية ومناضل كبير ضد الفساد والاستبداد فكرا وسلوكا وممارسة عبر كل العصور.

والحقيقة أنه ليس هذا هو الظلم الوحيد الذي وقع على الكواكبي، فقد عاش الرجل مظلوما ومات مظلوما، وهذا ما دفع بشاعر النيل العظيم حافظ إبراهيم لأن يكتب على شاهدة قبر الكواكبي، راثيا له (٤):

هنا رجل الدنيا هنا مهبط التقى — هنا خير مظلوم هنا خير كاتب.

ولإلقاء المزيد من الضوء على الظلم الذي تعرض له الكواكبي، نتوقف أمام مجموعة من النقاط، أهمها:

١- ولد الكواكبي في [٢٣ / شوال / ١٢٧١ هجرية، الموافق ل ٩ / تموز ، يوليو ١٨٥٥ ميلادية] وتوفي في [٦ / ربيع الأول / ١٣٢٠ هجرية ، الموافق ل ١٤ / حزيران ، يونيو / ١٩٠٢ ميلادية]، هذه الحياة القصيرة نسبيا، حيث توفي ولم يتجاوز عمره ال ٤٧ سنة، قضاها الكواكبي مكافحا ضد الاستبداد عموما، وضد الاستبداد العثماني خاصة،

حيث كانت منطقتنا العربية في هذه الفترة، مازالت ترزح تحت نير الاستعمار العثماني (٥)، وكان الولاة العثمانيين في مدينة حلب أمثال جميل باشا وعارف باشا وغيرهم خير مثال عن الطغيان القذروخيرمن يمثل الاستبداد في أبشع صوره، فكان الكواكبي بحق النموذج الأسطع، بين أبناء جيله، لمقاومة الاستبداد والنضال ضد الاستعماروالكفاح في سبيل الحرية وسيلته في ذلك :

أولا - الكلمة الحرة، وذلك من خلال ما يكتبه من مقالات في صحافة تلك الأيام.

وثانيا - مهنة المحاماة التي كان يمتهنها، حيث نذرالكواكبي نفسه للدفاع عن المظلومين ضد ظالميهم من رجال الدولة ومن الوجهاء المتسلطين.

فكانت الصحافة ومهنة المحاماة تشكلان الجزء الأهم من عمل الكواكبي السياسي ونضاله الوطني وسلاحاه في مواجهة الاستبداد والفساد ومحاربة الطغاة والفاسدين، وكان من الطبيعي وهو بهذا السلوك أن يصطدم مرارا بالموظفين الفاسدين وبالولاة المستبدين، فحاولت حكومة الاحتلال إسكاته وثنيه عن مواقفه، بكافة السبل، بالترغيب والإغراء حينا وبالقمع والتهديد ومحاولة القتل حينا آخر. كما جاء في نبذتنا عن حياته، لكن أيا من تلك المناصب لم يثن عزمه عن نقد السلطة القائمة والتفاني في سبيل الخدمة العامة، ففتح مكتبا لنصرة المظلومين حتى لقب ((**أبي الضعفاء**))، وما يذكرله أيضا أنه حين تولى رئاسة بلدية حلب، كان أول عمل قام به هو محاربة الفساد والرشوة التي كانت متفشية بين العاملين والموظفين، فعمل على اجتثاث الرشوة من جذورها، فقام برفع رواتب العاملين والموظفين، لاعتقاده بأن ما يدفع الموظف إلى الرشوة هو قلة راتبه الذي لا يكفيه، فقام الوالي العثماني عثمان باشا الملقب بالأعرج بعزله عن رئاسة بلدية حلب بعد أن عينه لمدة شهرفي رئاستها، وأعاد الوالي الرواتب إلى ما كانت عليه، وألزم الكواكبي بدفع ما كان زاده في الرواتب خلال مدة رئاسته للبلدية إلى صندوق البلدية، كما ألزمه بدفع ما أنفق على سلاسل الحديد التي وضعها على منافذ أسواق حلب الشهيرة، لمنع الجمال من دخولها، لكن هذا الوالي الذي كان قد أمربإزالة هذه السلاسل وتغريم الكواكبي بكلفتها، أمربإعادة هذه السلاسل بعد فترة قريبة من إزالتها ولكنه لم يعد للكواكبي الغرامة التي ظلمه بها (٦).

وهنا يجب التوقف أمام نقطة، هي أنه قد تكون قلة الراتب طريقا إلى الرشوة، لكن الحقيقة الأهم هي أن الاستبداد والفساد صنوان لا يفترقان ولا غنى لأحدهما عن الآخر، فالمستبد يعمد إلى إفساد حاشيته ونشر الفساد في رعيته، لكي يتمكن من إحكام قبضته وتسلطه عليهم، لأنه يعلم أن الفاسد والمرتشي لا كرامة له، ولا يمكنه أن يطالب بشيء من حقوقه أو من حقوق غيره، والفاسد يعيش تحت رحمة المستبد، يتملقه ويتزلف إليه، وذلك خوفا من قمع المستبد وعقابه الذي يمكنه أن يقتص من الفاسد في أي لحظة، ولهذا يعمل الفاسد على الدفاع عن المستبد وحماية نظامه، وذلك خوفا من أن تأتي حكومة ديمقراطية عادلة تحاسبه على فساده وتقتص منه بسيف عدالتها، فالاستبداد مرتع خصب لانتشار الفساد، والفاسدين أسوار منيعة لحماية المستبد وللدفاع عن نظام استبداده، والأمثلة على ذلك أمامنا كثيرة، بل إن كثيرا من المستبدين يمارسون على شعوبهم كافة صنوف التجويع والحاجة؛ بحيث لا يبقى أمام مواطنيهم إلا اتخاذ الفساد، طريقا لحياتهم وسبيلا لمعاشهم، فيجدوا للرشوة والنصب والاحتيال مبرراتها، ويغوصوا في السرقة واللصوصية بكافة صنوفها، إلى آخر القائمة من قائمة الفساد، وليس أمام الشرفاء منهم، في هذه الحالة، سوى أحد سبيلين، إما الهجرة والبحث خارج أوطانهم عن لقمة عيشهم وعيش عيالهم، وإلا فالسجن مصير العنيدين وطويلي اللسان منهم، والجوع والتشرد وسوء المصير ينتظر أسرهم وعيالهم. وبين أمرين أحلاهما مر، على المواطن أن يختار.

وقد اختار الكواكبي طريقه، فبقي متمسكا بقيمه، محافظا على شرفه واستقامته، مخلصا لشعبه ومدافعا عن حقوقه وقضاياه ضد مستغليه والمستبدين فيه، فحارب الفساد والمفسدين والاستبداد والمستبدين، بقلمه وبلسانه، ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وحين لم يستطع المستبد العثماني إغراء الكواكبي وشراء ضميره بالمناصب الرفيعة التي أغدقها عليه، قرر التخلص منه بكل وسيلة وبأي ثمن. لذلك قام الوالي بعزله عن رئاسة بلدية حلب بعد شهر من تعيينه، وتغريمه بالأموال التي صرفها للعمال والموظفين زيادة في رواتبهم، وغرمه بالأموال التي صرفها على وضع السلاسل في مداخل أسواق حلب، كما نوهنا سابقا، واستغلت السلطة محاولة اغتيال والي حلب جميل باشا، فألقت القبض على الكواكبي بتهمة التحريض على اغتيال الوالي، لكن تم تبرئة الكواكبي من هذه التهمة وعزل الوالي.

واستمرت حرب السلطنة العثمانية على الكواكبي، فاتهمته على لسان واليها في حلب عارف باشا بالاتصال بدولة أجنبية والاتفاق معها على تسليم حلب و إقامة منظمة سرية تناوئ نظام الحكم العثماني، وبناء على هذه التهمة الملفقة الظالمة الجائرة، حكم عليه بالإعدام أمام محكمة حلب المتآمرة مع الوالي، لكن الكواكبي قدم تظلما للمحكمة ورفض المحاكمة في حلب، وقامت مظاهرة في حلب تطالب السلطة بالإفراج عنه، مما اضطر السلطنة العثمانية إلى إعادة محاكمته في بيروت، وهناك قدم الكواكبي دفاعا شخصيا عن نفسه أمام المحكمة، وتبين للمحكمة في بيروت تزوير الوالي في حلب للأوراق التي اتهم الكواكبي بواسطتها، وتمت تبرئة الكواكبي مما نسب إليه، وعزل والي حلب. (٧)

وتتالت حروب السلطنة العثمانية عليه، وأخذت أشكال شتى، فقاموا بسجنه، ومصادرة أملاكه، وفرض الغرامات الكبيرة عليه، وأكبر دليل على مصادرة السلطات العثمانية لأملاك الكواكبي ظلما وعدوانا ودون وجه حق، ما يخبرنا به حفيده المسمى باسمه ((**عبد الرحمن الكواكبي**)) فيقول: ((**أنه في عام / ١٩٥٤ م/ جاءه شخص وقال له : أنا ابن عثمان آغا من قرية الريحانية** ((وهي قرية تابعة اليوم إلى تركيا، تقع على الطريق بين حلب وأنطاكية، وهي أرض خصبة غنية بالمياه والبساتين، وقد كانت من جملة ما صادره السلطان العثماني من أملاك الكواكبي ((الجد))، وأسكن فيها جماعة من التركمان، ومنهم عثمان آغا والد هذا الشخص))، **رحب الكواكبي الحفيد بالرجل وسأله عن حاجته. فقال له: أن والده عثمان آغا قال لهم ((لأولاده)) إن الأرض التي بحوزته وفيها ماء و طاحون وبستان، هي أرض مصادرة من آل الكواكبي، وأن عليهم أن يذهبوا ويبرئوا ذمتهم لديهم. فقال له الكواكبي (الحفيد): القضية مضى عليها ستون سنة، ونحن نبرئ ذمته رحمه الله. فقال له الرجل (ابن عثمان آغا): لا الموضوع لم ينته، بل عليكم قبض قيمتها. وألح على ذلك قائلا: إننا نقدر قيمتها بآلاف الليرات. عندها يقول الكواكبي الحفيد أنه اضطر إلى قبول عرض الرجل، وأرسله إلى عمه الدكتور أسعد الكواكبي، الذي قبض من الرجل قيمة الأرض، ووزعها هذا بدوره على الورثة.** ويختم الكواكبي الحفيد قوله: **بأن هذا المبلغ (الفجائي)، إضافة إلى الدار التي كنا نسكنها، هو المال الوحيد الذي ورثناه عن جدنا رحمه الله. هذا فضلا عن الإرث المعنوي الذي يعادل مال الدنيا.**

رغم كل هذا، لم يستكن الكواكبي ولم يتراجع عن مواقفه، واستمر في حربه على الفساد والاستبداد، وعندما يئست السلطنة العثمانية من إسكات الكواكبي ومن شراء ضميره وفكره، بكافة أساليب الترغيب والترهيب التي قامت بها، قررت التخلص منه بشكل نهائي، فعمدت إلى قتله في ثلاث محاولات، فشلت في المحاولتين الأولى والثانية ونجحت في الثالثة:

المحاولة الأولى: كانت حينما أرسلت السلطة العثمانية رجلا، هاجم الكواكبي ليلا، وطعنه بالخنجر طعنتين، ولولا سرعة بديهة الكواكبي بالاستنجاد بخادمه، الذي لم يكن مرافقا له يومها، مما أدى إلى هرب المجرم قبل أن ينجز مهمته في قتل الكواكبي، لتمكن يومها من قتله.

المحاولة الثانية : كانت حين اتهمه والي حلب بالتآمر مع دولة أجنبية على السلطنة، وأصدرت المحكمة الابتدائية في حلب حكمها عليه بالإعدام، لكن المظاهرات التي عمت حلب لمناصرة الكواكبي، وتطالب بالإفراج عنه، مما اضطر السلطنة إلى نقل محاكمته إلى بيروت، وهناك تبين تزوير والي حلب للأوراق التي بنا عليها اتهامه للكواكبي، وتلفيقه لهذه التهمة، فبرئ الكواكبي مما نسب إليه، وأطلق سراحه، ونجا بذلك من محاولة ثانية لقتله والتخلص منه.

وأما الثالثة، والتي انتهت فيها حياة الكواكبي رحمه الله، فكانت في القاهرة، حيث لم يتوقف الكواكبي عن توقه الدائم إلى العيش في مناخ من الحرية يستطيع فيه أن ينشر أفكاره وكتاباته بعيدا عن عين الرقيب وتهديدات المستبد والسجان، ولم تتوقف السلطنة العثمانية عن ممارسة سياسة العصا والجزرة مع الكواكبي، الزج بالسجن والمصادرات المالية ومحاولات القتل حينا، ومحاولات لشراء ضميره وإغرائه بالمناصب العالية لكي يصمت عنها ويتعامل معها في أحيان أخرى، تحت تأثير هذين العاملين الرغبة في الحرية من جهة والهروب من ضغوط السلطنة العثمانية عليه ترغيبا وترهيبا من جهة ثانية، قرر الهجرة إلى مصر سرا، فقد كانت السلطات العثمانية قد سلمته قرارا بتعيينه نائبا شرعيا في قضاء راشيا في ولاية سوريا، تظاهر الكواكبي بقبول المنصب الجديد، لكنه اتخذ قراره بالهجرة إلى مصر سرا واحتفظ بقراره هذا لنفسه، وأخفاه عن أقرب الناس إليه حتى على أسرته، وأوهم الجميع أنه مسافر إلى استانبول لأمور تتعلق

بوظيفته الجديدة في راشيا، غادر حلب إلى الاسكندرون في طريقه إلى استانبول، لكنه في الاسكندرون غير وجهته، فبدل أن يتابع طريقه إلى استانبول ذهب إلى الإسكندرية، كان ذلك في [١٦ / مايو- أيار/ ١٨٩٩ م]، ووصل إلى القاهرة في منتصف شهر تشرين الثاني عام ١٨٩٩ م ، وسكن حي الحسين قرب الجامع الأزهر، وهناك في القاهرة استطاعت يد الغدر أن تصل إليه وهو يشرب فنجان قهوته في مقهى يلدز قرب حديقة الأزبكية، فأرسل إليه السلطان عبد الحميد الثاني الملقب بالسلطان الأحمر أحد أعوانه، فدس له السم في فنجان قهوته، وبعد أن احتسى القهوة بنصف ساعة، أحس بألم في أمعائه، وكان برفقته ابنه كاظم، نقله ابنه إلى البيت، وذهب لإحضار الطبيب ، ولما عاد ابنه ومعه الطبيب وجداه ميتا، وكان ذلك بتاريخ ١٤ / حزيران / يونيو/ ١٩٠٢ م .

والحقيقة أن السلطنة العثمانية لم تكتف بقتل الكواكبي والتخلص من حياته، بعد أن فشلت في إغرائه وغوايته، لكنها استمرت في حربها عليه وعلى أفكاره المستنيرة، وذلك بمحاولتها لجمع وحرق وإتلاف كل ما كتبه الكواكبي من كتب ومقالات وحتى أوراق، حتى لا يقرأه ويضطلع عليه ويتنور به أحد، وفي هذا الصدد يؤكد الشيخ كامل الغزي، أنه ما إن تناها إلى سمع السلطان عبد الحميد نبأ نجاح اغتيال الكواكبي وتأكدت وفاته، حتى أصدر أمره فورا إلى أحد أعوانه، وهو عبد القادر القباني صاحب جريدة ، ثمرات الفنون التي كانت تصدر في بيروت، بأن يهبط إلى مصر سريعا ويقصد محل إقامة الكواكبي ويحرز جميع ما يجده فيها من الأوراق ويرسلها إلى المابين (قصر السلطان). فسافر القباني إلى مصر على جناح السرعة ووضع يده على جميع ما وجده في منزل الكواكبي من الأوراق وأرسلها إلى المابين (قصر السلطان)، ويضيف الغزي قوله : ((ولا يعلم أحد ما كان مودعا فيها من الثمار التي اقتطفها من حدائق سياحته في البلاد)). ويذكر الدكتور عبد الرحمن الكواكبي (الحفيد) أن مخطوط كتاب طبائع الاستبداد المعدل، رماه عمه كاظم في صندوق القمامة فلم يعثر عليه، وأحضره معه بعد انتهاء حملة التفتيش ومصادرتهم كل ما في البيت من أوراق ، ومن بين هذه الأوراق مسودات كتابيه، **العظمة لله وصحائف قريش.** (٨) ومما يذكر أيضا أن الكواكبي في سنة [١٣١٩= ١٩٠١ م] قام برحلة إطلاعية إلى بعض البلدان العربية والإسلامية، شملت سواحل أفريقيا الشرقية والجنوبية، والجزيرة العربية، حيث درس أحوالها الاقتصادية والاجتماعية، وقضى على

ظهر الجمال نيفا وثلاثين يوما، دخل خلالها الصحراء، ووصل إلى الهند حيث زار كراتشي وبومباي، ومنها سافر إلى جاوه وسواحل الهند الصينية والصين الجنوبية، وطبعا كان الكواكبي قد سجل مذكراته ومعارفه وقراءاته لما وجده في تلك المناطق التي زارها، ولكن كل ذلك ضاع واختفى بعد عملية السطو التي تمت على أوراقه عقب وفاته، فهل بعد هذا الظلم من ظلم ؟ ! لقد ظلم الكواكبي لأن عملية السطو هذه قد أضاعت جزءا كبيرا من جهد جبار بذله الكواكبي في سبيل العلم والوعي والمعرفة والثقافة، وظلمت الأجيال من بعده وحرم الفكر الإنساني من فرصة الاستفادة من نتاج كاتب عبقري فذ كالكواكبي.

ولم يكن الكواكبي أحسن حظا مع الحكومات التي تتالت على سورية بعد الاستقلال، فقد تعرض الكواكبي للإهمال والتهميش، وحين يتذكرونه يقدموه على صفحات الكتب المدرسية بطريقة مبتسرة وساذجة، مليئة بالأخطاء والمعلومات الخاطئة، وحين يتعرضون لفكره يأتون بجملة من هنا وأخرى من هناك، بحيث لا يفهم الطالب من هو الكواكبي ولا ما هو فكره ولا لماذا يعد الكواكبي رائدا من رواد النهضة، وكأن هناك تغييب متعمد لفكره وتفكيره، وتصديقا لما نقول، تجرأ رئيس تحرير أحد المجلات الثقافية في سورية، وكتب افتتاحية لأحد أعداد مجلته، موضوعا عن الكواكبي سلط فيه الضوء على فكره التنويري التحرري، وخاصة مسألة الاستبداد وعلاقتها بالفساد، فكان نصيب هذا المسكين أن طرد من موقعه ووظيفته، فهل بعد هذا من ظلم ؟ !

وأنا أعتقد، أنه من الظلم للكواكبي أن يسلط الضوء على كتابه ((**طبائع الاستبداد**))، ويهمل بقية إنتاجه الفكري والثقافي، فكتابه ((**أم القرى**)) لا يقل أهمية وعمقا عن كتابه طبائع الاستبداد ذائع الصيت، وكلا الكتابين يكمل أحدهما الآخر ولا غنى لأحدهما عن الآخر، ولا يمكن للمتتبع أن يفهم الكواكبي دون الاطلاع على كل ما كتب، مقالاته في الصحافة سواء في صحيفتي ((**الشهباء**)) و ((**اعتدال**)) التي قام الكواكبي بإنشائها أو في الصحف الأخرى التي كانت تنشر له مقالاته تباعا، وما جاء على صفحات كتابيه الشهيرين ((**أم القرى**)) و ((**طبائع الاستبداد**))، لأن ما كتبه الكواكبي كل لا يتجزأ ولا يغني بعضه عن بعض.

تجمع الآراء على أن الكواكبي قام بتأليف كتابه ((**أم القرى**)) قبل كتابته لكتاب

((**طبائع الاستبداد**)). فقد ألف كتابه أم القرى في حلب قبل هجرته إلى مصر، ونشر الكواكبي أول مقال له في ١٧ آذار/ مارس ١٨٩٩ م ، في صحيفة المؤيد المصرية لصاحبها علي يوسف، تحت عنوان ((**ما هو الداء وكيف يرجى الشفاء**)). وهذا المقال هو صورة أولية لما نشر بعد ذلك في كتاب أم القرى. تخيل الكواكبي أنه دعا من كل بقعة من بقاع العالم الإسلامي، على اختلاف جنسياتهم ومذاهبهم، واحدا من علمائها، إلى مكة المكرمة ((أم القرى)) ليعقدوا مؤتمرا فيها يتدارسوا فيه واقع حال الأمة الإسلامية ويتباحثوا في أسباب تخلفها. والكتاب هو ضبط لوقائع المفاوضات والمقررات التي تمت في هذا المؤتمر، مؤتمر النهضة الإسلامية الذي تخيل الكواكبي انعقاده في مكة المكرمة عام [١٣١٦ هجرية]. نشره الكواكبي باسم مستعار هو ((السيد الفراتي)). وكتبه بطريقة حوارية جذابة ومقنعة. بحيث لا يمكنك أن تصدق إلا أن هذا المؤتمر قد عقد فعلا.

ومما يسجل للكواكبي في هذا الكتاب مجموعة من النقاط أهمها:

١- الإقرار بتخلف الأمة الإسلامية. وأن هذه الأمة في مأزق تاريخي. وهي في مشكلة يجب حلها. وهذه المشكلة ليست وليدة اليوم ، بل هي مشكلة مزمنة عمرها أكثر من ألف عام على حد تعبير الكواكبي. ومن هنا كانت دعوته لعلماء الأمة. على اختلاف أعراقهم ومذاهبهم. ليتدارسوا حال الأمة علهم يهتدوا إلى علاج ناجع لأمراضها التي تعاني منها. ولإيجاد حل للخروج من المأزق الذي تعاني منه الأمة. وذلك بدل التنطع والافتخار بما ليس فينا. وبأننا خير أمة أخرجت للناس. وبأننا نسجل انتصارات يومية على أعدائنا. وأن المستقبل لنا بعون الله ، وبأن مشاكلنا التي نعاني منها ما هي إلا مشاكل مؤقتة وعابرة. من صنع الاستعمار والإمبريالية وأعداء الدين. بمعنى أن الكواكبي أقر بأن الأمة تعاني من مشكلة إن لم نقل مشاكل ودعا إلى تضافر جهود الأمة لحل مشاكلها. بدل الهروب من المشكل ودفن الرأس بالرمال والادعاء بما ليس فينا وتعليق مشاكلنا على شماعات غيرنا. كما يفعل ويدعي البعض هذه الأيام.

٢- الكواكبي في كل كتاباته. تناول حال الأمة بعين الطبيب. فوضع تشخيصا لمرضها سماه ((**داء الفتور**)). تكلم عن أسباب هذا الداء. وعن الجراثيم المسببة له. وكشف السبيل إلى زيادة مناعة الأمة ضد هذا المرض وضد غيره من الأمراض. وعلى طريقة الأطباء لم يترك الكواكبي مريضه بغير علاج. بل اختار له الدواء الفعال والناجع لعلاج

مرضه، وباختصار وبكل وضوح يقول الكواكبي: ((**أصل هذا الداء هو الاستبداد السياسي، ودواؤه دفعه بالشورى الدستورية**)) (٩) . فقد سبق الكواكبي كل سياسيي الأمة في تشخيص دائها، ووضع له علاجا يتباكى عليه كل السياسيين على اختلاف انتماءاتهم ومذاهبهم الفكرية والسياسية في مطلع القرن الواحد والعشرين.

وهو في كتاب ((**أم القرى**)) يدرس حال الأمة وينوه إلى مرضها الذي تعاني منه، ويحدد أسباب هذا المرض، وفي كتاب ((**طبائع الاستبداد**)) يحدد أعراض هذا المرض وتأثيره على كافة نواحي الأمة، كما يضع تصورا لعلاجه أيضا ، فالكتابان متكاملان كل منهما يكمل الآخرويزيده وضوحا، ومن هنا فكتاب ((**أم القرى**)) لا يقل أهمية عن كتاب ((**طبائع الاستبداد**)) وإهماله أو التغاضي عنه هو ظلم للكتاب والكاتب معا .

٣- لقد كان الكواكبي سباقا لعصره في كل شيء، فقد دعا في كتابه ((**أم القرى**)) هذا، إلى عقد مؤتمر قومي إسلامي، يناقش قضايا الأمة، يحدد أمراضها التي تعاني منها، يدرس أسبابها ويضع الخطط لعلاجها، وذلك قبل انعقاد المؤتمر العربي الإسلامي بعشرات السنين، والأهم من ذلك أن الأفكار التي طرحها الكواكبي في كتابه ((**أم القرى**)) والذي سجل فيه وقائع مؤتمره المزعوم، كانت من العمق والجرأة والتنوع والقدرة على وضع الإصبع على الجرح، ما لم ترق إليه مقررات وأفكار ومناقشات أي مؤتمر قومي إسلامي حتى الآن، ومن لم يصدق ما عليه إلا العودة إلى كتاب أم القرى للكواكبي، وإلى قرارات وبيانات ومناقشات كافة المؤتمرات القومية الإسلامية التي عقدت حتى الآن، ليرى الفارق.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن : **لماذا الكواكبي ؟ ولماذا الآن ؟**

بداية أنا لست من هواة نبش القبور، ولا أدعي إحياء الموتى، لكني أرى أن الكواكبي حي بيننا رغم أنه عاش في نهاية القرن التاسع عشر ونحن تجاوزنا العقد الأول من القرن الواحد والعشرين، لأنه يؤثر فينا بأفكاره التي ابتدعها، وكتاباته تجيب على جميع تساؤلاتنا الملحة وكأنه يعيش بيننا، وهو متقدم بأفكاره ، وأكثر جرأة في أطروحاته من كل الأحزاب والتيارات السياسية التي عرفتها الأمة العربية الإسلامية منذ مطلع القرن العشرين وحتى الآن، فقد قال بأفضلية الحاكم الكافر العادل على الحاكم المسلم

المستبد وهو يعيش في ظل السلطنة العثمانية التي تحكم باسم الخلافة والدين (١٠)، فهل أكثر من ذلك جرأة ؟ ودعا إلى الوحدة القومية قبل أن يدعوا إليها أحد (١١)، ودعا إلى الديمقراطية وسماها ((**الشورى الدستورية**))، حين كانت جميع التيارات السياسية كل منها لا يرى سوى نفسه ويدعي أنه هو الحق والمالك الوحيد للحقيقة، ودعا إلى فصل الدين عن الدولة ((العلمانية)) (١٢)، في حين لا يجرؤ أي من التيارات السياسية على رفع هذا الشعار، حتى الآن.

ويقول الكواكبي : ((**يا قوم، وأعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين، أدعوكم إلى تناسي الإساءات والأحقاد، وما جناه الآباء والأجداد، فقد كفى ما فعل ذلك على أيدي المثيرين، وأجلكم من أن لا تهتدوا لوسائل الإتحاد وأنتم المتنورون السابقون، فهذه أمم أوستريا** ((النمسا)) **وأمريكا قد هداهم العلم لطرائق شتى وأصول راسخة، للإتحاد الوطني دون الديني، والوفاق الجنسي** ((الوطني أو القومي)) **دون المذهبي، والارتباط السياسي دون الإداري، فما بالنا نحن لا نفتكر في أن نتبع إحدى تلك الطرائق أو شبهها، فيقول عقلاؤنا لمثيري الشحناء من الأعاجم** ((العثمانيين)) **والأجانب** ((الفرنسيين والإنكليز)) **: دعونا يا هؤلاء نحن ندبر شأننا، نتفاهم بالفصحاء** ((الوحدة على أساس اللغة))، **ونتراحم بالإخاء، و نتواسى في الضراء، ونتساوى في السراء، دعونا ندبر حياتنا الدنيا، ونجعل الأديان تحكم في الأخرى فقط، دعونا نجتمع على كلمة سواء، ألا وهي : فلتحي الأمة، فليحي الوطن، فلنحي طلقاء أعزاء**)) .

أليس هذا الفكر التنويري هو ما نتباكى عليه في أزمتنا الراهنة، بعد ثورات الربيع العربي، وهل من مخرج لنا ونحن في مأزقنا الراهن من تعصب طائفي وتطرف مذهبي، يكاد يمزق الأمة إلى أشلاء، سوى التمسك بوحدتنا الوطنية التي يندبنا إليها الكواكبي في كلامه؟ وهل من منقذ لنا ونحن أمام مشاريع إقليمية تنهش في لحومنا، وتتمدد كالأخطبوط داخل أقطارنا، وتنمو كالطحالب على حساب أوطاننا، غير مشروع عروبي يوحد جهودنا جميعا تحت راية الانتماء القومي الذي يدعونا الكواكبي إليه، لينقذنا مما نحن فيه ؟ !

وكتابه ((**أم القرى**)) الذي ناقش فيه جميع الأفكار الدينية، السلفية والجبرية والقدرية والتصوف والمذاهب على اختلافها، والمقولات الدينية قديمها وحديثها، جذورها وفروعها، سلبياتها وإيجابياتها ...إلخ، يعتبر كتاب في نقد الفكر الديني بامتياز، علما أن

الكواكبي هو ابن المدرسة الكواكبية الشرعية التي كانت تتبع مناهج الأزهر في الدراسة، تعلم فيها ودرّس فيها وكان أبوه مديرا لها، فهو رجل دين عربي الهوى والانتماء، لم يخلع عنه رداء العروبة ولا عمامة رجل الدين يوما، لكنه كان حقا نموذجا رائعا لرجل الدين المتنور، ومقولات التنوير مثل العقلانية، وسببية المعرفة، والحوار المجتمعي، وحقوق المواطنية، والاعتراف المتبادل بين المجتمع والسلطة، وبين القوى المجتمعية نفسها، كلها مقولات تملأ كتب الكواكبي وتنتشر في كتاباته، وتشكل الطابع العام لفكر الكواكبي وسلوكه وممارساته أيضا، وصدق من أطلق عليه وصف ((فولتير العرب)) (١٣). وهو يعتبر نموذجا رائعا للمفكر الثوري الملتزم، لأنه عاش أفكاره وما يؤمن به سلوكا يوميا ونضالا دؤوبا دفع حياته ثمنا لذلك.

وكثيرون هم الذين سمعوا بالكواكبي دون أن يعرفوه على حقيقته، وهناك من قرؤوا عنه دون أن يدركوا ماهية أفكاره وما هي أهميتها، وقليلون هم الذين قرؤوا الكواكبي ودرسوا أفكاره هذه وتدارسوها، لكن لم يجرؤ أي من السياسيين والمفكرين، على اختلاف انتماءاتهم، ومن أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، قوميون وشيوعيون وليبراليون فضلا عن الإسلاميون، أن يطرحوا مثل هذه الأفكار، ويرفعوا مثل هذه الشعارات، على أهميتها وعلى ضرورتها الملحة لحاجة الأمة إليها، ومن تجرأ على طرحها فقد طرحها في السر وفي الخفاء، بينه وبين نفسه وبينه وبين أشباهه في اجتماعاتهم الحزبية الضيقة، وخاصة في هذه المرحلة التي يطغى فيها الفكر السلفي والمذهبي التعصبي على أي فكر تنويري.

وحين قرأت للكواكبي أعماله الكاملة، أدركت كم نحن نجهله، وكم هو مغيب عنا، عفواً أو عمدا، وأذهلني الرجل بجرأته، وبأهمية سلوكه وفكره، ليس لحال الأمة في الفترة التي عاش فيها فحسب، بل لأمتنا في عصرنا الراهن، و لجميع الأمم التي ترزح تحت نير الاستبداد وتعاني ويلاته عبر كل العصور، لأنه وكما جاء على لسانه: لم يقاوم مستبدا بعينه، وإنما كان فكره وجهاده مكرسا ضد الاستبداد والمستبدين في كل زمان ومكان (١٤) .

ونحن أمة تدمن الاستبداد والحمد لله !! ومن هنا تنبع أهمية الكواكبي، فكرا وممارسة، لعلاج ما يعاني منه واقعنا العربي والإسلامي المعاصر، فحكوماتنا الاستبداد والفساد سمتها المميزة، ومجتمعاتنا تمزقها الطائفية، ويبعثرها الجهل والتخلف،

وتهددها الحروب المذهبية والدينية والعرقية، وأوطاننا مهددة ومستباحة من الكبير والصغير، لذا حاولت بجهدي المتواضع أن أمسح عن الكواكبي بعضا من غبار التناسي التي تراكمت عليه، وأن أرفع عن أفكاره شيئا مما تراكم عليها من الإهمال والنسيان، وذلك بأن أقدم للقارئ في هذا الكتاب ما قاله الكواكبي بلغة هي مزيج من أسلوب الكواكبي في الكتابة وأسلوب الكتابة في لغتنا المتداولة هذه الأيام، واخترت مما كتبه ما أعتبره، من وجهة نظري على الأقل، أنه الأهم، قد يسميه القارئ : تلخيص، أو مختارات، أو شذرات مما كتبه الكواكبي، أو مروج ذهب من فكر الكواكبي.. إلخ، لكني مؤمن بأهمية ما اخترت، ومؤمن أيضا أن ذلك لا يغني أبدا عن قراءة الكواكبي من ألفه إلى يائه، والقاعدة تقول: **ما من كتاب يخلو من الفائدة، وما من كتاب فيه كل الفائدة.** ولكي تخطو أمتنا على طريق التقدم والنهضة والحضارة، أنا أدعو، وبشدة، جميع المفكرين والسياسيين والمهتمين بالشأن العام، إلى قراءة كل كلمة وكل حرف مما كتبه الكواكبي وغير الكواكبي من رواد عصر النهضة الذين تراكم عليهم غبار التناسي والنسيان، وغيبهم الاستبداد عنا أمثال ((**بطرس البستاني، وشبيلي شميل، وفرح أنطون، وسلامة موسى، وطه حسين، وقاسم أمين**، وغيرهم، وأعتذر لمن لم أذكر، لأنه علينا أن ندرك البدايات حتى نتمكن من ضبط النهايات كما يقال، أتمنى أن أقدم للقارئ في هذا الكتاب ((**هكذا قال الكواكبي**)) بعضا من الفائدة وأن يجد فيه شيئا من الأهمية، والله ولي التوفيق.

هوامش المقدمة

١ – حيث تراوح حجم الكتاب بين (١٠٢ صفحة) في طبعة الدار القومية للطباعة والنشر في القاهرة، ضمن سلسلة كتب ثقافية ، برقم (٢٧)، وهي مؤرخة بتاريخ ٥ / ك١ / ١٩٥٩ م .

و(١٥٢ صفحة) من القطع الصغير، وهي طبعة قديمة من دون تاريخ، مطبوعة في مطبعة الدستور العثماني في شارع محمد علي، على نفقة إبراهيم فارس صاحب المكتبة الشرقية في مصر.

وهناك طبعات أخرى تراوحت أحجامها بين (١٤٦ صفحة) في بعض الطبعات، و(١٤٨ صفحة) من الحجم الصغير في بعضها الآخر.

- راجع : ((الأعمال الكاملة للكواكبي - إعداد وتحقيق محمد جمال طحان، نشر مركز دراسات الوحدة العربية – ضمن سلسلة التراث القومي ص (٥٠) .

٢ – الأعمال الكاملة للكواكبي ((المرجع السابق)) - ص (٥٠) .

٣ – الترقي : يعني الرقي والحضارة .

٤ – دفن الكواكبي في قرافة باب الوزير على سفح جبل المقطم، وبعد أربعين عاما نقلت رفاته إلى مقبرة المشاهير في شارع العفيفي، في منطقة باب الوزير.

راجع : الأعمال الكاملة للكواكبي ((المرجع السابق)) - ص (٤١) .

٥ – دخل الأتراك المنطقة العربية بتاريخ [١٥١٦ م]، وخرجوا منها بتاريخ [١٩١٦ م] .

٦ – الأعمال الكاملة للكواكبي ((المرجع السابق)) - ص (٢٣) .

٧ – الأعمال الكاملة للكواكبي ((المرجع السابق)) - ص (٤٠) .

٨ – راجع : الأعمال الكاملة للكواكبي ((المرجع السابق)) - ص (٢٩ و ٣٠ و ٤١) .

٩ – الأعمال الكاملة للكواكبي ((المرجع السابق)) - ص (٤٣٠) .

١٠ – الأعمال الكاملة للكواكبي ((المرجع السابق)) – ص (٢٩٤) [كتاب أم القرى].

١١ – الأعمال الكاملة للكواكبي ((المرجع السابق)) – ص (٥١٥) – [كتاب طبائع الاستبداد] .

١٢ – أنظر : - الإمام الكواكبي – فصل الدين عن الدولة – جان داية (١٩٨٨) .

- محمد جمال طحان – فصل الدين عن الدولة – مجلة دراسات عربية – السنة (٢٩). الأعداد (١٠ و١١ و١٢) (آب و أيلول و ت١) – عام (١٩٩٢) – ص (١٢٩-١٣٤).

راجع : الأعمال الكاملة للكواكبي ((المرجع السابق)) – ص (٦٢) .

١٣ – راجع : نور ليلى عدنان – الكواكبي مصلحا وأديبا .

وهي رسالة الماجستير التي قدمتها هذه الباحثة الأندونيسية عام [١٩٧٠ م] باللغة العربية في جامعة القاهرة .

١٤ – الأعمال الكاملة للكواكبي ((المرجع السابق))–ص(٤٣١)–[فاتحة الكتاب– طبائع الاستبداد] .

الباب الأول
في الصحـافـــة

منذ تفتح وعي الكواكبي رحمه الله، أدرك ما للصحافة من أهمية في الوصول المباشر للناس وإيصال الفكر إلى أكبر شريحة من القراء والمهتمين، فاهتم بالصحافة وعقد معها رباطا متينا لم ينقطع طيلة حياته التي عاشها، فكان أول عمل قام به في حياته، أنه عمل محررا متعاونا (غير رسمي) أولا، ثم محررا رسميا في صحيفة ((**فرات**))، صحيفة حلب الرسمية، التي كانت تصدر أسبوعيا وتطبع باللغتين العربية و التركية، وذلك منذ عام ١٢٨٩ هج = ١٨٧٢ م، ولم يكن قد تجاوز السابعة عشر من عمره، وحتى عام ١٢٩٣ هج= ١٨٧٦ م، لأنه رأى أنها لا تحقق طموحاته في إعلان الحقيقة على الناس، فهجرها ليصدر صحيفة الشهباء الخاصة سنة [١٢٩٤ هج = ١٨٧٧ م]، ولم تنته علاقته مع الصحافة حتى وفاته عام [١٩٠٢ م]، فكتب مقالات وأبحاث في معظم الصحف العربية، إن لم نقل في جميع الصحف العربية التي عاصرها، فقد كتب في صحف [**فرات (١)**، **المؤيد (٢)**، **المنار (٣)**، **العمران (٤)**، **القاهرة (٥)**، **النجاح (٦)**، **النحلة (٧)**، **الأهرام (٨)**، **المصباح (٩)**، **لسان العرب (١٠)**، **والمقطم (١١)**]، أما الصحف التي أنشأها وحررها الكواكبي بنفسه فهي [**الشهباء و إعتدال**].

ولكن نتيجة اضطهاد الدولة العثمانية للكواكبي خاصة، ولكل مفكر عروبي وكل فكر

مستنير عامة، فقد كان الكواكبي يكتب بأسماء مستعارة، فضاع معظم تراثه الصحفي ولم يبق في أيدينا من هذا التراث سوى تسعة أعداد من صحيفة **الشهباء**، وهم الأعداد الأول والثاني والثالث والرابع والخامس والسادس والسابع .. والعاشر والحادي عشر، والعدد الأول من صحيفة **اعتدال**، ومقالة في مجلة **المنار**، عن ((**تجارة الرقيق وأحكامه في الإسلام**))، وسوف نقف على أهم ما جاء في هذا التراث الصحفي من أفكار:

أولا – صحيفة الشهباء :

وهي أول صحيفة حلبية غير رسمية تنطق باللغة العربية، أصدرها الكواكبي مرخصة باسم أحد معارفه هو الحاج **هاشم العطار** وذلك لأن حكومة السلطنة العثمانية كانت تخاف من القلم الحر خوفها من النار على حد تعبير الكواكبي، وبالتالي فهي لا يمكن أن تعطي امتيازا لأي مفكر مستنير في إصدار صحيفة يكتب فيها ما يشاء، فاتفق الكواكبي مع الحاج **هاشم العطار** على أن يطلب العطار الترخيص باسمه ويتكفل الكواكبي بالكتابة والطباعة، لأن الكواكبي أدرك أنه لن يحصل على هذا الترخيص باسمه حتى ولو أنفق ماله كله، هذا ما كان وهذا ما أسر به الكواكبي لنديمه:(**علمت أن الحكومة تخاف من القلم خوفها من النار، ولا تعطي امتيازا بجريدة لمن تعتقد أنه على بينة من أمره، ووتيرة من عمله، فاتفقت مع الحاج هاشم العطار لبساطته وسذاجته، على أن يطلب هو الامتياز، وأستلم أنا التحرير والتحبير، وما مضى زمن على طلب الرجل المشار إليه إلا وصدرت الإرادة السنية بالسماح له بإنشاء الجريدة، مما لا يمكن أن أحصل عليه أنا ولو أنفقت كل ما أملك**)(١٢).

كان عبء الجريدة يقع كاملا على كاهل الكواكبي، فكان يحررها كلها وحده، عدا بضعة مقالات قليلة شارك فيها آخرون، إذ لم يظهر في الأعداد التي بين أيدينا سوى أسماء ستة أشخاص، أولهم مكاتب الجريدة في الشام، ثم الخمسة الباقين الذين لم يكتب كل منهم سوى مرة واحدة فقط، وهم : **الحاج مصطفى الأنطاكي، وجبرائيل دلال، و قسطنطين حمصي، وأنطونيوس قندلفت، وأحمد وهبي .**

والشهباء كانت جريدة أسبوعية تصدر كل يوم خميس، وتتألف من أربعة صفحات، وتضم كل صفحة ثلاثة أعمدة، تطبع في مطبعة العزيزية في حلب، صدر منها ستة عشر

عددا، ثم عطلتها السلطة العثمانية، وأمرت بإغلاقها. والآن نظرة على الأعداد التي بين أيدينا.

العدد الأول :

صدر العدد الأول يوم الخميس [٢٧ / ربيع الثاني / ١٢٩٤ هج – الموافق ٢٨ / نيسان و ١٠ / أيار ١٨٧٧ م]. على الصفحة الأولى وإلى جوار اسم الجريدة، نجد تحديد لسعر الجريدة وقيمة الاشتراك السنوي والنصف سنوي، في حلب وفي كافة الأقطار الأخرى، ثم تحديد لثمن الإعلان في الجريدة، لمن يرغب بالإعلان فيها، وكانت بالشكل التالي:

قيمة الاشتراك	عن سنة	عن ستة أشهر
- في حلب وجوارها	٢،٥ مجيدي	١،٥ مجيدي
- الإيالات التابعة لحلب	٣ مجيدي	١،٧٥ مجيدي
- في سائر بلاد العراق وسوريا	١٣ فرنك	٧ فرنكات
- في الأستانة وسائر ممالك المحروسة	١٥ فرنك	٨ فرنكات
- في مصر وتونس والهند وبقية أنحاء العالم	١٦ فرنك	٩ فرنكات

الأسعار في الخارج خالصة من أجور البريد، ثمن كل نسخة من الشهباء قرش واحد، وأجرة كل سطر من الإعلان قرشان، بعدها نقرأ على الصفحة الأولى :

إفتتاحية العدد :

في هذه الافتتاحية يتحدث الكواكبي عن الأسباب التي دعت إلى إنشاء هذه الجريدة، ويناشد الجماهير عامة والمثقفين خاصة، بأن يمدوا يد العون لهذه الجريدة بالقراءة والشراء والتداول، حتى يكتب لها الاستمرار والتقدم والنجاح، لاسيما أن سعر الجريدة لا يتجاوز تكلفة الورق والطباعة ورصف الحروف.

ثم نقرأ على الصفحة الأولى نفسها، وتحت عنوان ((**الحوادث الداخلية**)) رسالة موجهة من السلطان عبد الحميد الثاني إلى قادة جيشه في المواقع الحربية، الرسالة منقولة عن مجلة ((**الجوائب**)) (١٤)، في هذه الرسالة يحث السلطان عبد الحميد جيوشه جندا وقادة للاستعداد للحرب مع روسيا المعتدية، ويدعوهم للاستبسال في الدفاع عن الدولة العلية، ويشرح فيها أسباب هذه الحرب، وقد ابتدأت هذه الحرب فعلا في [١٢ / نيسان / ١٨٧٧ م].

على الصفحة الثانية نقرأ بعض أخبار الحرب الواردة عن طريق التلغراف، ومواقف الدول الأخرى، إنكلترا، ألمانيا، فرنسا، إيطاليا، والنمسا (أوستريا) من هذه الحرب. كما يشير المقال إلى موقف أمريكا من هذه الحرب، فهي تقف إلى جانب تركيا في هذه الحرب وقد أعطتها ما يقرب ال[٥٠٠،٠٠٠] بندقية ، وحركت أسطولها من موانئ أوروبا إلى ميناء القسطنطينية على البحر الأسود (١٥) . وتنتهي أخبار الحرب بقصيدة للحاج مصطفى أفندي الأنطاكي، يمتدح فيها السلطان عبد الحميد، ويؤرخ لهذه الحرب، مطلعها :

سر حيث شئت مظفرا منصورا   فلواء سعدك لم يزل منشورا.

ومن أجمل الأبيات التي وردت في القصيدة:

فاحصد رؤوس الروس منك بصارم   واجعل لهم صدر النسور قبورا

لا تخش كثرة جمعهم هذا فهل   تخشى الأسود من الكلاب كثيرا

ومما جاء في هذه القصيدة أيضا:

مادام نصر المؤمنين لقد غدا   حقا على الله فكن مسرورا

لا زلت بالنصر المبين مؤيدا   وهلال سعدك لا يزال منيرا.

ومن أهم ما جاء في هذا العدد صورة التلغراف الوارد إلى الولاية بتاريخ [١٢ ربيع ثاني]، يقول أن بعض الصحف أشاعت أن دولة إيران تتآمر مع روسيا على الدولة العلية، وأن في نيتها أن تطلب العراق منها، فأوجب ذلك هيجان الأهالي واضطرابهم،

لكن سفير إيران في الأستانة نفى صحة هذه الأنباء، وقال أن إيران تسعى إلى بقاء السلم والصلح بينها وبين السلطنة السنية، والدليل أن العرض العسكري الذي تجريه إيران في كل عام ، أمرت بإلغائه هذا العام بناء على اتفاقها وإخلاصها مع الدولة العلية، ودعا الجميع إلى تكذيب هذه الأراجيف. **((وكان التاريخ يعيد نفسه هذه الأيام، إيران تطمع بالسيطرة على العراق، وتدفع بالحرس الثوري الإيراني لتحقيق هذه المهمة وروسيا تقف إلى جانبها، مع فارق أن الأتراك يقفون موقفا صامتا إزاء ما يحصل ويكتفون بالشجب والإدانة. ما أشبه اليوم بالأمس)).**

ومن الأخبار التي وردت على صفحات هذا العدد: نقلت الشهباء عن مجلة الوقت(١٦) أن المسيحيين في مجلس المبعوثان (١٧)، قد حرروا مضبطة (كتبوا بيانا) يكشف زيف دعوى الدولة الروسية بأنها تحمي المسيحيين في أنحاء الدولة العثمانية، وإن المسيحيين هانئون ممنونون في ظل الدولة العلية (الدولة العثمانية).

ومن الأخبار الطريفة في هذا العدد، ونقلا عن مجلة الجوائب، انه صدر أمر من الدولة بأنه ((**يجب على النساء ارتداء النقاب السميك، ولبس البابوج (١٨) بدل الكندرة (القندرة الإفرنجية)(١٩)، كما أن عليهن عدم التبرج باللباس والحلي في الطرقات**)).

أما تعليق الشهباء على هذا الخبر، فهي تثني على هذا الأمر وتدعوا علية القوم للامتثال له، لأن من عادة النساء أن الأدنى درجة منهن تقتدي بالأعلى منهن جاها وغنى، في الزينة واللباس وباقي العادات الاجتماعية الأخرى .

وتنفرد الشهباء في هذا العدد، بأنها تدعو إلى جمع التبرعات المادية لإعانة العائلات الفقيرة و المحتاجة، والتي نكبت بسبب ذهاب رجالها إلى الحرب مع الدولة، إلى أن يعود هؤلاء الرجال إلى عائلاتهم، وذلك اعترافا بمعروف هؤلاء الرجال الذين ذهبوا للذود عن حمى الوطن.

و في هذا العدد يتساءل الكواكبي عن أسباب تناقص سكان حلب فقد كان عدد سكان حلب قديما وكما تذكر كتب التاريخ [٦٠٠،٠٠٠ نسمة]، ومنذ خمسين سنة كان عدد سكانها [٢٣٠،٠٠٠ نسمة]، وأما الآن (في زمن الكواكبي) فهي لا تزيد عن [١٠٠،٠٠٠ نسمة]، وهي في تناقص مستمر، ولا يرى الكواكبي سببا لذلك سوى الهجرة

المستمرة لأهلها خارج ديارهم، إذ لا يوجد بقعة من الأرض أو بلد من البلدان إلا وفيه بعض العائلات الحلبية المهاجرة من حلب، معظمهم من أهلها المسيحيين، علما بأن حلب تتصف بتربتها الخصبة، وهوائها النقي ومناخها المعتدل، وأهلها يتمتعون بقوة البنية والصورة الحسنة وكثرة التناسل، والعيش فيها سهل موفور نظرا لاتساع دائرة التجارة فيها وكثرة الصناعة وخصب الأراضي ووفرة الغذاء ورخصه، وفي نهاية هذا المقال يقول الكواكبي: يرجى من أرباب المعارف والآداب ممن يقف على أسباب هذه الهجرة أن يرسلها إلى الجريدة ليتم نشره ، موقعا أو غير موقع.

العدد الثاني :

صدر هذا العدد بتاريخ [٥ / جمادى الأولى / ١٢٩٤ هج، الموافق ٥ و١٧ أيار / ١٨٧٧ م].

على الصفحة الأولى من هذا العدد، وتحت عنوان **(الحوادث الداخلية)** نقرأ تعريب (ترجمة للعربية) للأمر الذي أرسله السلطان العثماني لكافة الولاة والأمراء في الدولة العثمانية، وهو الأمر الصادر بتاريخ [١٢ / ربيع ثاني / ١٢٩٤ هج] والذي يدعو فيه السلطان العثماني أمراءه وولاته للوقوف صفا واحدا في هذه الحرب (الحرب الدائرة بين تركيا وروسيا)، وإجراء التدابير اللازمة لذلك.

بعد ذلك نقرأ في العدد أخبار الحرب والأخبار الآتية من أرض المعارك، كما نقرأ فيه مواقف الدول المختلفة من هذه الحرب .

وفي هذا العدد تنقل لنا جريدة الشهباء عن جريدة ((**كولونيا**)) البروسية، مقالة تكذب ادعاء الروس بحمايتهم لمسيحيي الشرق، فالبروسيون يرون أن روسيا دولة نصف بربرية، إذ كيف لها أن تدعي حمايتها للمسيحيين في الشرق، وهي تنكل وتعذب الكاثوليك الروس لكي تجبرهم على الانضمام إلى مذهب الإمبراطور الروسي ((**روم أرثوذوكس**))، وقد عرض البرلمان الإنكليزي العديد من الفظائع التي ترتكبها الحكومة الروسية بحق الكاثوليك، وتتساءل الجريدة في نهاية المقالة، فهل يصدق أحد ادعاء روسيا بحمايتها لمسيحيي الشرق ؟!

وفي هذا العدد يعطينا السيد ((**نقولا أفندي نقاش**)) (٢٠)، أحد أعضاء مجلس ((**المبعوثان**)) السوريين، نبذة عن مجلس المبعوثان، من حيث عدد الأعضاء وآلية عملهم، فيقول تشكل المجلس بقرار من الدولة، وعقد أولى جلساته في [٧ و ١٩/ آذار / ١٨٧٧ م]، تلي في هذه الجلسة قرار تشكيل المجلس، على أن يستمر في عقد جلساته مدة ثلاثة أشهر اعتبارا من هذا التاريخ، ويحق للسلطان العثماني تمديد هذه المدة إذا رأى ضرورة لذلك . وعدد أعضاء هذا المجلس [١٠٤ أعضاء] منتخبون من كافة أنحاء الدولة العثمانية، يجتمعون يوميا عدا يومي الجمعة والأحد، من الساعة الرابعة وحتى العاشرة مساء، ويرأس هذا المجلس السيد ((**أحمد وفيق باشا**))، وله معاونان، عندما يدخل الأعضاء قاعة المجلس، يسجلون أسماءهم عند كاتب مختص لتحديد الحضور والغياب، وعندما يكتمل حضور الأعضاء ينقسمون إلى خمسة شعب، كل شعبة حوالي [٢٠ عضوا]، لكل شعبة رئيس منتخب من بين أعضائها، على أن يعاد تشكيل هذه الشعب ويعاد انتخاب رؤسائها مرة كل شهر، تناقش كل شعبة لوحدها ما أحيل إليها من قضايا، ثم تجتمع الشعب الخمسة مع بعض، برئاسة رئيس المجلس، لتلاوة الأوراق المقدمة، ومناقشة أهم القضايا المطروحة على الشعب، ويعطوا قرارا فيها، أو يحيلوها إلى إحدى الشعب مرة أخرى .

قاعة المجلس، قاعة كبيرة، يجلس فيها الأعضاء في أماكن مخصصة لهم، وأمام كل واحد من الأعضاء صندوق ودواة وقرطاس، أمام مكان جلوس الأعضاء وفي مكان مرتفع يجلس الرئيس، وبجانبه بعض الكتبة ليكتبوا وقائع الجلسة، على أن تتلى في بداية كل جلسة أعمال الجلسة السابقة .

في جلستين من الجلسات العامة التي تعقد كل أسبوع، يحضر الجلسة أحد المسؤولين الكبار، ويحضر بعض موظفي السفارات، والصحفيين الذين يسمح لهم بالحضور بموجب بطاقات خاصة، ويجلسون في أماكن معدة لهم على طرفي القاعة، أما في الجلسات غير العلنية فلا يحضر سوى أعضاء المجلس مع بعض المسؤولين الكبار، وذلك للاستفسار عن بعض القضايا التي تخص الدوائر المسؤولين عنها . هذا وقد تشكلت شعبة سادسة مختارة من الشعب الخمسة من أجل مراجعة ((**العرضحالات**))، المرفوعة من أفراد الرعية.

واتخاذ القرار في هذا المجلس يكون بالأكثرية، ويتم التصويت إما برفع الأيدي أو بالوقوف.

بعد هذا الاستعراض عن مجلس المبعوثان، تنقل لنا الشهباء نبأ أعتبره من أهم الأنباء التي أوردتها الشهباء على كل صفحاتها وفي كل أعدادها، خاصة وأن نشر هذا النبأ قد تسبب في إغلاق الجريدة بأمر من السلطات العثمانية، لفترة تجاوزت الستة أشهر، عقوبة لها على ما نشرته، كما تعرض الكواكبي للمحاكمة، ليس لنشره النبأ، بل لمعرفة من سرب له هذا النبأ. فقد نشرت الجريدة أن ستة أشخاص من مسيحيي عنتاب (٢٢)، من طائفة الأرمن أتوا إلى مركز لتسجيل العساكر المتطوعين، لكي يكونوا مع المتطوعين، وبعد سؤالهم عن أسمائهم طلب منهم تغييرها بأسماء إسلامية، فأبوا ذلك وقالوا : إن دافعنا هو الدفاع عن دولتنا ووطننا فإن كان لا سبيل لذلك إلا بتغيير أسمائنا فلا نقبل.

ويعلق الكواكبي على هذا النبأ الذي ورد على الصفحة الرابعة من هذا العدد تحت عنوان ((**الأخبار الأخيرة**)) بقوله: كلما دعت الحاجة إلى التمسك بعلاقات المحبة والاتحاد بين كافة التابعين للدولة العثمانية على اختلافهم، تأتي مثل هكذا تصرفات من بعض الموظفين الصغار غير الشاعرين بالمسؤولية لتدفع بعكس الاتجاه الذي نسعى إليه ، لذلك يرجى من أولياء الأمور التنبه لذلك، وصد هؤلاء الموظفين عن أفعالهم تلك، ومحاكمتهم عليها.

العدد الثالث :

صدر هذا العدد بتاريخ [١/ ذي الحجة / ١٢٩٤ هج الموافق ٢٤ / ت٢ و ٦ / ك١ / ١٨٧٧]، متأخرا عن موعده ما يزيد عن الستة أشهر، وذلك بسبب النبأ الذي أشرنا إليه في العدد الثاني، ولذلك يخصص الكواكبي افتتاحية هذا العدد على الصفحة الأولى والثانية ليحكي لنا فيها قصة توقيف الشهباء هذه المدة، وكانت الافتتاحية تحت عنوان ((**توقيف الشهباء**)) يحكي فيها الكواكبي قصة إنشاء الشهباء وأهدافها والغاية من إنشائها، وأنها جريدة تهتم بتقديم الحقائق بعيدا عن الكذب والأراجيف، بغية الدفاع عن الوطن وحماية وحدة شعبه وأراضيه، ولما لاقت الجريدة القبول والاستحسان من الناس في عددها الأول والثاني استغل بعض الحاقدين نشر نبأ ورد على صفحات الجريدة

في عددها الثاني، وهو النبأ الذي أشرنا إليه، وقدم شكوى ضدنا إلى سمو الوالي، فتمت محاكمتنا في مجلس الإدارة لمعرفة من نقل النبأ إلينا، ولما لم نبح باسم من نقل الخبر إلينا حفاظا على قانون الصحيفة وشرفها، لذلك أمر الوالي بإيقاف الشهباء عن الصدور طيلة هذه المدة وكان ما كان، يقول الكواكبي: ((**وبعد المحاكمة في مجلس، وامتناعنا عن الإباحة باسم مخبرنا، محافظة على ناموس الجرنال، كان مما كان من أمر تعطيله**))، ثم يتابع الكواكبي مقاله بأن الوالي العثماني لما تأكد أن مدة التوقيف هذه، عقوبة كافية، لمثل هذه الهفوة، سمح بإعادة صدور الشهباء، وهي تعود للصدور رغم الخسائر التي تكبدناها من جراء هذا التعطيل، ماديا ومعنويا، وقد تقبلنا ذلك بثبات وعزم وذلك في سبيل خدمة الوطن، التي لا يعزدونها تحمل المصاعب والمحن، ويجد الكواكبي العزاء على ما أصابه في من سلفه في هذا المضمار، ويضرب مثلا على ذلك العالم الألماني غوتنبرغ ((**كتنبرك**)) مخترع الطباعة، تلك الصنعة التي يعتبرها الكواكبي ((**أم المدنية ومرضعة المعارف**))، فقد لقي من المصاعب والعقبات أمام صنعته، ما جعله يهاجر من ((**ستارسبرغ**)) مسقط رأسه إلى ((**مابانس**))(٢٣) . كذلك حال تلميذه ووارث صنعته ((**فوست**)) الذي اضطر إلى أن يهاجر بصنعته إلى باريس مع صديقه (**بتروس شوفر**)، فدخلا بصنعتهما إلى فرنسا عام[١٤٦٦ م]، فقاومتهم جماعة من النساخين، واتهموهم بأنهم سحرة وأن مدادهم مركب من دم الإنسان، فقبضت عليهم الحكومة وألقت بهم في السجن، فمات (**فوست**) في السجن، وانتقل صديقه (**شوفر**) إلى إيطاليا، وبعد أن اشتهر بصنعته هناك عاد إلى فرنسا بطلب من ملكها ((**لويس الحادي عشر**)) (٢٤)، عاد شوفر ومعه ثلاثة صناع، وبعد أن باشروا العمل بأيام حاربهم النساخون (الخطاطون) ثانية، فحكم عليهم مجلس الأمة بمصادرة أموالهم وأدواتهم، ونفيهم من فرنسا، غير أن الملك المذكور أدخلهم في حمايته ومنحهم بعض المساعدات والامتيازات مكنتهم من الثبات، وانتشرت الطباعة في عهد هذا الملك إلى أوروبا كافة، لكن يبدو أن هذه المهنة هي مهنة المتاعب، لأنه أينما دخلت يعترضها كافة صنوف العقبات والصعوبات، ففي عام [١٤٧١ م] منعت الحكومة البريطانية رجلا دخل بهذه الصنعة إلى مملكتهم ونفوه، ولكن رغم كل الصعوبات والعقبات التي واجهت هذه الصنعة، لكن هذه الصنعة انتشرت في جميع أنحاء أوروبا وذلك بهمة وعزم وإصرار الرجال المؤمنين بهذه الصنعة وبأهميتها.

ثم يحدثنا الكواكبي في هذه المقالة الافتتاحية عن نقل الطباعة إلى اللغة العربية وما لاقته من صعوبات وعقبات، فيقول دخلت الطباعة إلى اللغة العربية عام [١٧٢٦ م = ١١٣٩ هج] بهمة ((**سعيد باشا**))، على يد ((**أنكروس ابراهيم آغا المجري**)) لأن سعيد باشا كان قد صحب والده ((**جلبي محمد أفندي**)) حين كان سفيرا في فرنسا، وهناك تعرف سعيد باشا على هذه المهنة فتحمس لها وسعى لإدخالها إلى بلده، ولما عاد إلى الأستانة سعى للحصول على ترخيص لمطبعة من الحكومة، ولما كان رجلا وجيها محترما من قبل رجال الدولة، وبإلحاحه وإصراره ومساعدة الصدر الأعظم له وتأييده لأفكاره، استطاع الحصول على قرار من السلطان ((**محمود خان الأول**)) (٢٥) بإنشاء مطبعة، حينها تمكن أنكروس المشار إليه من إنشاء مطبعة تطبع باللغتين العربية والتركية، وبسبب ما لاقاه هذا من اضطهاد لم يتمكن خلال عشرين سنة من طبع أكثر من ثلاثة كتب صغيرة ورسالتين، ثم بموته أهمل أمر المطبعة لمدة أربعين سنة. وفي مطلع عام [١٢٠٠ هج] اهتم بالمطبعة (**واصف أفندي**) المؤرخ المشهور، و (**راشد أفندي**) رئيس الكتاب فاشترياها من الورثة وأعاداها للوجود ثانية، وكانا سببا لإحياء هذه الصنعة من جديد، رغم ما لقياه من صعوبات وعقبات.

أما إلى مصر فقد دخلت مهنة الطباعة إليها مع ((**نابليون الأول**)) (٢٦)، الذي جلب معه من الفاتيكان إلى مصر أول مطبعة عربية (**بولاق**)، وتم تحديثها على يد ((**محمد علي باشا**)) (٢٧)، فتحسنت الطباعة العربية واتسع مداها. وإلى بيروت دخلت مهنة الطباعة عن طريق الرسل الأمريكيين ثم اليسوعيين (٢٨). ويشير الكواكبي إلى صعوبة إدخال هذه المهنة إلى حلب وإلى عدة مناطق عربية، لينتهي في مقاله بأنه ليس أول من عانى على هذا الطريق ولن يكون آخرهم، فقد لاقى جميع من عمل في هذه المهنة عقبات وصعوبات لكنهم تجاوزوها بصبرهم وجهدهم وإصرارهم، ثم ينهي مقاله بالحديث عن مهنة الصحافة وما تعانيه هي الأخرى من أمراض وآفات وما يعترضها من عقبات وصعوبات.

بعد مقال الافتتاحية هذا نقرأ تحت عنوان ((**الأحوال الحاضرة والحوادث الحربية**)) أخبار الحرب والوضع على الجبهات، والأخبار من كافة المواقع، مع تعليق للكواكبي على هذه الأخبار ورأيه في هذه الحرب وتوقعه لما سوف تنتهي إليه، ومما جاء في

هذه الأخبار أن بسمارك (٢٩) يقوم بوساطة بين روسيا والدولة العثمانية، لإنهاء هذه الحرب. ولا داعي للوقوف على تفاصيل هذه الأخبار والتعليق عليها لأنها أصبحت من الماضي، ونحن نريد الوقوف على ما له علاقة بالحاضر.

وتحت عنوان ((**حوادث محلية ومراسلات**)) ينقل لنا الكواكبي بعض أخبار انتخابات مجلس المبعوثان، ثم ينشر رسالة أرسل بها الأديب ((**جبرائيل أفندي دلال**)) (٣٠)، إلى الجريدة ردا على التساؤل الذي أثاره الكواكبي في العدد الأول من الشهباء حول أسباب تناقص عدد سكان حلب وهجرة أهلها منها، فجاء رد الأديب جبرائيل دلال على هذا التساؤل برسالة صيغت بلغة أدبية جذلة وبليغة، يثني فيها أولا على الجريدة وعلى صاحبها ، ثم يحدد أسباب الهجرة عن حلب فيقسمها إلى أسباب عامة وأسباب خاصة:

الأسباب العامة : يوجزها جبرائيل دلال بالتخلف والانحطاط الذي يعيشه الشرق عامة وبكافة مدنه، تخلف في البناء وتخلف في طرق المواصلات، وقصور في الخدمات، على عكس ما يرى في الغرب من طرق ممهدة للمواصلات، و مشافي للخدمة الصحية، ومدن جديدة تشاد وتزدهر وتستقطب القاطنين فيها من كل أنحاء الدنيا.

الأسباب الخاصة: يقول جبرائيل دلال في رسالته، أنه لا يخفى على أحد أن أهمية المدن تختلف باختلاف موقعها الجغرافي، وتزداد أهمية المدينة كلما كان موقعها قريبا من طرق التجارة العالمية، عندها يزداد عدد سكان هذه المدينة وتزدهر صناعتها وتكثر ثروتها. وحلب تقع على طريق التجارة بين أوروبا وآسيا، فهي محط قوافل التجار القادمين من أوروبا والمتجهين إلى موصل العراق، ومنها إلى بلاد فارس لتتابع السير بعدها إلى الهند والصين واليابان، وكان هذا الطريق هو أقصر طريق بري يصل بين أوروبا وأقاصي آسيا، لهذا ازدهرت التجارة على هذا الطريق، واحتلت حلب موقعا رئيسيا فيه، إذ غدت عقدة الوصل بين الشرق والغرب، لذلك أطلق عليها تدمر الجديدة، حيث كانت تدمر هي عقدة الوصل بين الشرق والغرب أيام الرومان.

ولكن : ١- اكتشاف البرتغاليين لرأس الرجاء الصالح . (٣١)

٢- إختراع السفن البخارية السريعة .

٣- إقامة خط حديدي من الإسكندرية إلى السويس (٣٢) في البداية، ثم شق قناة السويس فيما بعد.

٤- دخول المراكب الصغيرة عبر الخليج العربي وشط العرب إلى البصرة (٣٣) ومنها إلى بغداد لتحميل البضائع منها، فأصبح أصغر التجار في أصغر المدن المجاورة للبحر قادرا على فتح علاقة تجارية مع أوروبا دون الحاجة إلى المدن التجارية الكبيرة.

هذه الأسباب مجتمعة قللت من أهمية الطريق البري، وزادت من أهمية الطريق المائي للتجارة بين أوروبا وآسيا، فقلت أهمية المدن التجارية الواقعة على الطريق البري، وهذه هي الأسباب الخاصة التي أدت إلى اضمحلال دور حلب التجاري مما أدى إلى هجرة أهلها منها لقلة المعاش فيها.

ثم يتابع جبرائيل دلال في رسالته، كان يمكن تعويض ذلك عن طريق الصناعة لو استطاع أرباب الصناعة في حلب أن يجاروا صناع أوروبا بالإتقان وحسن الصنعة وقلة التكاليف، لكن مساهمة الدولة في أوروبا بنشر العلم والمعرفة، وبناء المعامل، وشق الطرقات وتعبيدها، واستخدام وسائل النقل إلى آخره، أدى إلى ازدهار وتقدم الصناعة في أوروبا على حساب تأخر وتخلف الصناعة في الشرق عامة وفي حلب خاصة.

ويختم جبرائيل دلال رسالته بالتعليق على قول الشهباء من أن أغلب المهاجرين هم من المسيحيين بالقول، صحيح أن المسيحيين في حلب كانوا ومازالوا من أصحاب الأملاك والعقارات والزراعة، لكن أغلب الذين رحلوا عن حلب منهم كان لأسباب تجارية، لما ضاقت بهم أسباب التجارة والعيش فيها.(*)

ومن الأخبار المحلية التي نشرتها الشهباء في هذا العدد، خبر عن انتشار مرض ((أبوهدلان)) بين البقر، وهو مرض الطاعون البقري، وسمي بهذا الاسم لأن من أعراضه تهدل الأذنين، وقد تسبب هذا المرض في فناء الكثير من البقر لدرجة أن الفلاحين لا يجدوا ما يحرثون به أرضهم،وكان أول ظهور له في المناطق الشمالية الغربية من حلب قادما إليها من أضنة، لكنه كان أكثر فتكا في المناطق الشرقية ومن المعلوم عن هذا المرض أنه يخف تأثيره في أيام البرد، والكواكبي يدعو الأطباء لإيجاد دواء لهذا الداء الفتاك، كما يدعو إلى حرق الجثث التالفة ، ويدعو الفلاحين لاعتماد المكننة الزراعية مما يجنبهم

خطورة هذا المرض الذي يدهم حيواناتهم بين الحين والآخر، وهذا أفضل إنتاجا واخف كلفة لزراعتهم.

والخبر الأخير في هذا العدد، هو إشعار من الباب العالي عن وصول تجار إلى حلب من جزر سيام ((تايلاند))(٣٥)، لشراء [٧٠ ألف كيلة إسلامبولية] حنطة، وآخرون من قبرص لشراء [٣٠ ألف كيلة]، ومن الأستانة تجار آخرون لشراء [٥٠ ألف كيلة]، وذلك لإجراء التسهيلات اللازمة وإعفاء هذه الأغلال من الرسوم حين خروجها من اسكندرونة.

العدد الرابع :

صدر العدد الرابع من الشهباء بتاريخ [٨/ذي الحجة /١٢٩٤ هج، الموافق ١ و١٣ ك١ / ١٨٧٧م]، يتصدر العدد مقالة ذات موضوع تاريخي، تحت عنوان ((**جملة تاريخية**))، وفي هذه المقالة يربط الكواكبي، الماضي بالحاضر والتاريخ بالواقع، يتحدث فيها عن روسيا التي تشن حربا هذه الأيام على الدولة العثمانية، فيقول : ((**كانت روسيا حتى القرن السادس عشر، دولة صغيرة حقيرة مؤلفة من أمم متوحشة كانت تعرف ب ((برابرة الشمال)) ليس فيها سوى بعض المدن القذرة التي لا تصلح لسكن الناس فيها، وقد بقيت زمنا طويلا تدفع الجزية للتتار (٣٦)، الذين تكفلوا بإذلالها لمدة طويلة من الزمن**)).

ويتابع الكواكبي، لكن تساهل العثمانيين بالمحافظة على استقلال خانيات ((دويلات)) التتر، دفع بالروس للاستيلاء على خانيات التتر، الواحدة بعد الأخرى، حتى قويت شوكتها وأصبحت تطمع بالاستيلاء على جيرانها، وذلك عملا بوصية قيصرها ((**بطرس الأكبر**))، وانصب طمعها الأكبر على الدولة العثمانية وعلى أراضيها، مما أدى إلى نشوب عشرة حروب بين الدولتين، روسيا والدولة العثمانية، فيما بين عامي [١٧٠٠- ١٨٧٧ م الموافق ١١١٢ – ١٢٩٤ هج]، ولو أن السلطان العثماني ((**سليمان خان القانوني**)) (٣٧)، قد انتبه لاحتلال الروس ((خانية أزدهان)) عام [١٥٥٤] والتي اقترب بها الروس كثيرا من الدولة العثمانية وأوقفهم عند حدهم، لكان عملا يحمد عليه أكثر من فتوحاته الكبيرة في بلاد الروم والمجر تلك الفتوحات التي تابعها خلفاؤه من بعده، وتغاضوا عن خطر اقتراب الروس من أرض بلادهم. لدرجة أنه في عهد السلطان ((**ياوز سليم خان**))

وصلت روسيا إلى سواحل البحر الأسود في الوقت الذي كان فيه القادة والسلاطين العثمانيين يحتفلون بانتصاراتهم في أوروبا ورفع راياتهم العثمانية على [٣٦٠ قلعة] منها، ولكن مما ثبت فيما بعد، أن اختلاف الجنس والدين والعادات والتقاليد، بين شعوب المناطق المفتوحة ورعايا الدولة العثمانية، أدى إلى عدم إمكانية السيطرة على هذه المناطق المفتوحة والاحتفاظ فيها، ولو أن الدولة العثمانية تنبهت لهذه الناحية، وتوجهت بفتوحاتها نحو الشرق، لكان ذلك أسهل ولكانت إمكانية المحافظة على المناطق المفتوحة أفضل، وذلك نتيجة الشبه الكبير في العادات والتقاليد والدين بين أمم الشرق كافة، والنتيجة الآن أن الدولة صرفت ما يقرب ال ((٣٠٠ سنة)) من أيام صباها وشبابها في فتوحات لم تجد نفعا، بل أرهقتها في المحافظة عليها أيام الكهولة والشيخوخة. ثم يعدد الكواكبي المناطق التي خسرتها الإمبراطورية العثمانية ولم تستطع الاحتفاظ بها، ليذكرهم بالماضي الذي كان وبعزهم الذي أفل، فأين كانوا وأين صاروا؟!

ويتوقف الكواكبي، ليجيب عن تساؤل قد يدور في ذهن القارئ، أنه قد يتساءل البعض كيف تصف أمة بصفات الصبا والشباب والكهولة والشيخوخة، رغم أن هذه الصفات تطلق على الأفراد ولا تطلق على الشعوب؟!

فيقول نعم، إن لكل دولة فرصة وهي أيام صبوتها، وصولة وهي أيام شبابها، ورسوخا وهي أيام كهولتها، وانحطاطا وهي أيام شيخوختها، ولو أن أي دولة استخدمت أيام فرصتها في تقوية شعوبها، وعملت أيام صبوتها على تقوية وبناء أركان الدولة، وتفرغت أيام رسوخها للمحافظة على عزها الذي بنته، لأدى ذلك إلى طول حياتها ودوام عزتها. وحتى لا تضع الدولة نفسها على طريق الزوال، عليها أن تقوم بما يقوم به التاجر الكهل آخر أيام حياته، حيث يأتي بأبنائه يلتمس رغباتهم ويستمع لآرائهم ويأخذ بنصائحهم، لأنهم هم أبناء زمانهم، وهم المستمرون من بعده، فإذا مات هذا التاجر، استمرت حياة أبنائه من بعده كريمة قوية متجددة. أما إذا كان غير ذلك، فإن هذه الدولة سرعان ما تصاب بالأمراض، مما يؤدي إلى التسارع في انهيارها وزوالها، إلا إذا تنبه أبناؤها إلى الألفة و الإتحاد فيما بنهم وتوجهوا جميعا إلى خدمة ومحبة أمتهم، عندها تعود الأمة إلى الرسوخ، و بذلك ينتظم أمر الأمة.

بعد هذه الافتتاحية الرائعة، نطالع في هذا العدد أخبار الحرب بين روسيا والدولة العثمانية، والتي تشير إلى هزيمة الدولة العثمانية وخسارتها لأكثر من موقع من مواقعها، فقد استولى الروس على قلعة القارص وعلى بلفنا، وهو ما يعد خسارة كبيرة تكاد تكون بحجم الكارثة للدولة العثمانية، نتيجة أهمية هذه المواقع الإستراتيجية، و أعلنت البوسنة استقلالها عن السلطة العثمانية، واستلم قيادتها أحد أعوان الروس، كما أن الصرب قد دخلوا الحرب إلى جانب الروس. وفي نهاية أخبار الحرب يسلط الكواكبي الضوء على السيناريوهات المحتملة لما بعد هذه الحرب بين روسيا والدولة العثمانية، وهي تتراوح بين المصالحة والوقوف عند ما حصل، أو أن هذه الحرب سوف تعم كل أوروبا وجميع دولها، والكل مدفوع بمصالحه. فمن يقول بإمكانية الصلح بين الطرفين يعتمد في رأيه على أن استيلاء روسيا على قارص وبلفنا كاف لإقناع الدولة العلية بعدم قدرتها على هزيمة روسيا وهذا يجعلها تقبل بالصلح معها أيا كانت شروط هذا الصلح، وهؤلاء يعتقدون أن شروط الصلح ستكون كما يلي : أن تصبح بلغاريا والبوسنة والهرسك تحت حكومة مسيحية يديرها أمير من بروسيا، وأن تسقط الجزية عن الصرب والجبل الأسود، وأن يحافظ على استقلال الدولتين على أن تحتفظ الدولة العلية بالأراضي التي تحت سيطرتها، ويعوض على روسيا مقابل ما خسرته بأراض من آسيا، أما الذين يقولون باستمرار الحرب فهم يعتمدون في رأيهم على أن استيلاء روسيا على قارص وبلفنا ليس كافيا لإقناع العثمانيين بهزيمتهم، خاصة وأن قلاعهم مازالت بأيديهم ولديهم الكثير من الأماكن الإستراتيجية بدلا مما فقد والرأي العام في الأستانة يميل لاستمرار هذه الحرب، وكذلك قيصر روسيا سوف لن يقف عند هذا الحد وسوف يتابع حربه حتى يحقق جميع شروطه.

ثم تنقل الشهباء عن صحيفة ((حقيقة الأخبار)) نبأ استقلال البوسنة عن الدولة العثمانية، وتسلم أحد عملاء روسيا واسمه ((جونين)) لرئاستها وهو الذي أعلن استقلالها. كما تنقل نبأ عن دخول الصرب إلى جانب الروس في الحرب .

بعد الأخبار التاريخية وأخبار الحرب، تنقل لنا الشهباء مجموعة من ((**الأخبار الخارجية**))، كان أولها عن **الاضطرابات في فرنسا** : حيث أن رئيس الجمهورية ((**مكماهون**)) كان يحاول إعادة فرنسا إلى الملكية في نهاية مدة رئاسته عام [١٨٨٠ م]،

لذلك قام بحل البرلمان ((مجلس المبعوثان)) ليأتي بمجلس آخر موالي له من الحزب المحافظ، فدعا لإجراء انتخابات عامة، كان من نتيجتها أن فاز الجمهوريون المعارضون له بأغلبية ساحقة في المجلس، لذلك عمد إلى حل الوزارة وتشكيل وزارة جديدة موالية له لتكون عونا له على مواجهة المجلس.

أما الخبر الثاني الذي تقدمه لنا الشهباء في هذا العدد من الأخبار الخارجية فكان تحت عنوان ((**إسلام الهند والدولة العلية**))، جاء فيه يوجد في الهند ما يقرب ال [٩٠ مليون مسلم]، كانت لهم في الماضي مملكة قوية يحكمها آل تيمور، وفي القرن التاسع الهجري انقرضت ذرية آل تيمور، فانقسمت المملكة إلى ممالك صغيرة متعددة استولى على كل واحدة منها واحد من ذرية أو أقارب العائلة التيمورية، فاختل نظام المملكة الإسلامية في الهند، فصارت عرضة للزوال، كما سبق وحدث في الأندلس عقب ظهور ملوك الطوائف فيها. في مرحلة اختلال نظام هذه المملكة، جاء مبعوث من قبل حكومة ((**ملبار**)) وكان ذلك سنة [٩٥٠ هج] يستنجد السلطان سليمان خان ليعينهم على المجوس الذين احتلوا جزءا من أراضيهم، فلبى السلطان دعوتهم وأرسل مع المبعوث المذكور سفينتين من العساكر (**الينكجارية**) (٣٩) تحت قيادة يوسف بك وحسين بك مكنت هذه القوة حكومة ملبار من الظفر بأعدائها. وكذلك كان في عام[١١٩٠ هج] حين جاء سفير من قبل السلطان ((**على رجا**)) ملك ملبار(٤٠)، يطلب معونة مالية لأن خزائن دولتهم قد فرغت من المال بسبب حربهم المستمرة منذ (٤٠ سنة) مع المجوس الذين تدعمهم إنكلترا، فأجابت الدولة طلبهم وأرسلت لهم مبلغا من المال اعتذرت عن قلته بسبب حرب الدولة مع النمسا.

ثم يتابع الكواكبي أخبار العلاقة بين مسلمي الهند والدولة العلية، ليخبرنا عن المعونات المالية التي يرسلها مسلموا الهند للدولة العلية بين الحين والآخر والتي بلغت أربعين ألف ليرة إنكليزية، كانت تحول بشكل حوالات إلى لندن، لكي تدفع إلى البنك العثماني هناك، لكن العلاقة بين الطرفين انقطعت بسبب الاحتلال الانكليزي للهند.

أما آخر الأخبار الخارجية فكانت نقلا عن الجرائد المصرية التي نشرت صورة المعاهدة بين إنكلترا وحكومة مصر على تحرير العبيد وإبطال تجارتهم، وهي معاهدة مؤلفة من سبعة بنود تبين كيفية الإجراءات اللازمة لقطع هذه التجارة من مصر ومن سواحل

البحر الأحمر قطعا نهائيا.

أما تحت عنوان ((**حوادث محلية**)) فنقرأ نبأ وصول التعليمات الخاصة بتنظيم دوائر البلدية، ونبأ آخر عن حث المسلمين على التبرع بجلود أضاحيهم للحكومة ليتثنى لها تدفئة الجنود، كما نقرأ نبأ عن قبول بدل نقدي للمتخلف عن الجندية، وخبر عن وصول خمس جنود بلغاريين منفيين إلى حلب . كما نشرت الشهباء في هذا العدد صورة عن قرار توقيفها السابق وصورة عن أمر إعادة نشرها.

وينتهي هذا العدد بمقالة عن حالة العلم بقلم ((**قسطنطين أفندي حمصي**))(٤١)، جاء فيه: أن العلم أساس المعمار، وأصل التقدم والنجاح، وغاية التمدن والفلاح، وهو أعظم سبيل لغنى الأمة، و به يحصل الأمن والأمان، ... إلى ما هنالك من فوائد العلم، ويضرب مثالا الغرب و خاصة فرنسا وتقدمها بالعلم، ويأخذ على أبناء الأمة العربية عدم أخذهم بالعلم، ويحثهم على الأخذ بالعلم، لتنمو بينهم روح التمدن والحرية، متمسكين بهويتهم الوطنية والعربية، وذلك حتى يدخلوا عصرا جديدا من التقدم والمدنية .

العدد الخامس :

صدر هذا العدد بتاريخ [٢١/ ذي الحجة / ١٢٩٤ هج، الموافق ٨ و ٢٠ / ك١ / ١٨٧٧م].

في مطلع العدد يعتذر صاحب الجريدة للقراء لعدم تنوع الأخبار في هذا العدد، وذلك بسبب عدم وصول البريد من الأستانة والإسكندرونة، وذلك بسبب عطلة عيد الأضحى الذي صادف مروره قبل أيام من صدور العدد، أعاده الله على المسلمين أجمعين.

ثم نقرأ على صفحات العدد مقالة للكواكبي يتحدث فيها عن تغير الأحوال الاجتماعية في حلب في الفترة التي تلت سقوط الدولة السلجوقية (*) ويقول إن استبداد الحكام الذين حكموا خلال هذه القرون الأربعة جعل الفساد السياسي ينتشر بين الناس وجعل الناس يقبلون بكثير من الأمور التي تضنيهم وتضر بمصالحهم، وطول المدة التي قضوها وهم على هذه الحال جعلهم يألفونها حتى بدت وكأنها جزء من طبيعتهم، كما يقول الشاعر:

ألفت الضنى لما تطاول مكثه   فلوبان عن جسمي بكته الجوارح .

ويتابع الكواكبي أن إصلاح الناس وتغيير أفكارهم المضرة التي ألفوها دونه صعوبات كثيرة لأن الناس ترفض قبول ما يخالف آرائها التي اعتادت عليها، ولا تقبل بنصيحة، ولكن لابد للعقلاء من بذل جهدهم لإرشاد العامة إلى ما ينفعهم مهما حالت دون ذلك من صعوبات، ومن هذا القبيل ينصح الكواكبي الناس بالالتزام بالنظام والقانون والإقلاع عما هم عليه من عزوف عن الانخراط في العمل السياسي ويعزوا الكواكبي أسباب عزوف الناس عن المشاركة في الحياة العامة والعمل السياسي، إضافة إلى الاستبداد والفساد السياسي الذي أشرنا إليه، إلى قناعة رجال الدين بالابتعاد عن الحياة السياسية وحث العامة على الابتعاد عنها، ومعلوم ما لرجال الدين من تأثير كبير على تفكير العامة، هذا أولا، ثم معارضة رجال السياسة لمشاركة العامة في الحياة السياسية، ومنعهم من هذا الحق بكافة السبل، خوف أن تسير الأمور لغير صالح هؤلاء السياسيين مما يهدد مصالحهم ومراكزهم، وهذا ما يبقي العامة في حالة من الجهل والعمى تاركين لهؤلاء الساسة تدبير شؤون العامة، لذلك فهو يحث الناس على المشاركة الإيجابية في انتخابات المجالس البلدية المقررة، وهو يدعوهم لاختيار مندوبين يثقون باستقامتهم، عفيفين، محبين للخير العام، يقدمون مصلحة الوطن على مصالحهم الشخصية، ويبتعدوا عن انتخاب ذوي الوجاهة من العائلات الكبيرة المعروفة.

بعد هذه المقالة الافتتاحية، تنقل لنا الشهباء عن مجلة ((**الرائد**)) (٤٢)، صورة عن وصية بطرس الأكبر لمن يخلفه على حكم روسيا، يتنبأ فيها بسيطرة روسيا على كامل أوروبا وذلك بعون من الله الذي يؤيده ويقف إلى جانب أمته منذ الأزل، من ناحية، وعلى هرم وتهلهل الدول الأوروبية الأخرى من ناحية أخرى، ويقول لن تستطيع روسيا بسط هيمنتها على أوروبا إلا إذا بلغت كامل قوتها، وقبل أن يقدم لهم نصائحه وتوجيهاته لبلوغ تلك القوة، يذكرهم بأنه استلم روسيا جدولا صغيرا، وتركها لهم نهرا كبيرا، ويتمنى لمن بعده أن يحولوها إلى بحر عظيم، أما نصائحه لهم فهي :

١ – على ملوك روسيا أن يكونوا في حالة حرب دائما، حتى تكون جيوشهم على أهبة الاستعداد والجاهزية واللياقة، وعليهم أن لا يتوقفوا عن الحرب إلا لإصلاحات مالية، وتعويض ما نقص أثناء الحرب، والتأهب لهجوم آخر وحرب أخرى.

٢ – عليهم أن يستقدموا من كافة الدول الأوروبية، خبراء الحرب في حالة الحرب، وكافة العلماء من كافة الاختصاصات لتنتفع روسيا من علومهم في حالة السلم.

٣ – عليهم أن يتدخلوا في كافة شؤون أوروبا، وخاصة في شؤون ألمانيا لقربها من روسيا.

٤ – عليهم التدخل في شؤون بولونيا وفي اختيار حكامها، حتى يكونوا موالين لروسيا، والتدخل العسكري لحمايتهم إذا لزم الأمر.

٥ – الأخذ من السويد ما يمكن أخذه، وزرع الفتنة بينهم وبين الدانيمارك.

٦ – أن يتزوج شباب العائلة المالكة في روسيا من بنات ملوك ألمانيا، لزيادة أواصر المحبة بين البلدين.

٧ – يجب إقامة حلف مع إنكلترا، لأن إنكلترا بحاجة إلى الأخشاب الروسية لبناء أسطولها، وروسيا بحاجة إلى خبرة بريطانيا لبناء أسطولها، كما يمكن لروسيا مبادلة أخشابها وثرواتها الطبيعية الأخرى بذهب إنكلترا، مما يزيد أواصر الصلة بين تجار البلدين.

٨ – على روسيا أن تمتد شمالا على شواطئ البلطيق، كما عليها أن تسعى للتمدد غربا وعلى شواطئ البحر الأسود.

٩ – يجب الاستمرار بضرب القسطنطينية والهند، لأن من ملك القسطنطينية ملك الدنيا، والهند هي مخازن الدنيا، على حد تعبيره، ولتحقيق هذا الهدف على روسيا أن تكون بحالة حرب دائمة مع الأتراك والفرس، وإذا ما حصل ذلك فلا حاجة لروسيا بذهب إنكلترا.

١٠ – علينا التظاهر بمحبة النمسا، ونشعرها بأننا نقف إلى جانبها في السيطرة على ألمانيا، وفي نفس الوقت نقوم بتحريض ألمانيا على النمسا سرا.

١١ – نشترك مع النمسا في إخراج تركيا من أوروبا، ونسيطر على القسطنطينية، وإذا لم يعجب ذلك النمسا، فإما أن نحرض عليها إحدى الدول الأوروبية الأخرى، أو أن

نتنازل لها عن قسم من المدينة ثم ننتزعه منها بأقرب فرصة .

١٢ – تجميع اليونانيين الموجودين في بولونيا والنمسا، ودعمهم وحمايتهم، حتى يكونوا أحباء لنا وسط أعدائنا .

١٣ – بعد احتلال السويد والتغلب على بلاد فارس وبولونيا وبعد السيطرة على الممالك العثمانية وجمع جيوشنا ودخول أساطيلنا إلى بحر البلطيق والبحر الأسود، نقوم بالتفاوض سرا مع فرنسا والنمسا لاقتسام العالم، فإن رضيت إحدى الدولتين نتعاون معها على هزيمة الأخرى، ومن ثم نهجم على الأولى ونحتلها، حينها لا يعود من الصعب علينا السيطرة على الشرق وعلى معظم أوروبا .

١٤ – وإذا لم تقبل أي من الدولتين ما نعرضه عليها، وهذا احتمال بعيد، نقوم بتحريض إحداهما على الأخرى ونتحين الفرصة للهجوم على النمسا بجيش عظيم، ومن ثم نرسل أسطولين أحدهما إلى البحر المتوسط والآخر إلى البحر المحيط للاستيلاء على فرنسا، وبعد الاستيلاء على ألمانيا وفرنسا لا يكون من الصعب الاستيلاء على بقية ممالك أوروبا .

هنا يتوقف الكواكبي لينبه إلى ما تخفيه روسيا من نوايا اتجاه أوروبا والعالم، ويدعوا حكام العالم الإسلامي إلى التنبه لهذه النوايا، لأن أمتهم هي المقصودة في النهاية، وهو يدعوهم إلى الوحدة لأنه لا يحميهم سوى وحدتهم، هذا ما يقوله الكواكبي وما أشبه اليوم بالأمس .

ثم ينتقل بنا العدد لنقل بعض أنباء الحرب الدائرة بين روسيا وتركيا، ليخبرنا أن هذه الحرب بدأت تحط أوزارها وأشرفت على نهايتها، ثم ينقل عن جريدة التايمس بعض أخبار هذه الحرب، فيتطرق إلى أسباب خروج عثمان باشا من بلافنا، ثم يتطرق للحديث عن الإنذار الروسي لتركيا بالاستسلام في بعض المناطق، ورفض الأتراك لهذا الإنذار، وكان معظم الأهالي يميلون إلى التسليم ويلحون عليه، لكن الأمر السلطاني جاء بعدم التسليم، فهدد مختار باشا آمر المنطقة سكانها بأنهم إن لم يتوقفوا عن تذمرهم، فلسوف يهدمها عليهم، فأعطى الروس سكان المنطقة فرصة [١٢ ساعة] لإخلاء المرضى والجرحى، ومن ثم تجدد القتال بين الطرفين .

وتنقل الشهباء عن (**لاتركي**) (٤٣)، أن بعض المواطنين قاموا بلصق إعلانات تندد بالوالي محمود باشا الدامادا ويهددوا باغتيال بعض الوزراء، وكاتب المقال بعد أن يبرئ الوالي المذكور مما نسب إليه يتهم من قام بلصق الإعلانات بالخيانة.

بعدها تنقل لنا الشهباء إحصاء لعدد سكان الإمبراطورية العثمانية أعوام [١٨٦٦ و١٨٧٢ و١٨٧٦] وهي على التوالي [٣٧،٣٥٤،٢١٠ و٢٨،٦٣٩،٨٧٥ و٢٧،٢٢٤،٧٩٢]، وهنا يلاحظ التناقص الواضح في عدد السكان وذلك بفعل الفقروالجوع والحروب.

ثم ينقل لنا العدد (**قانون مجلس بلدية الولايات**) الذي أقر في تلك المرحلة، وهو كما يلي :

الفصل الأول

في الوظائف العموممية

١ – تشكيل مجلس بلدي في كل بلدة .

٢ – أما المدن الكبيرة فيمكن أن يشكل فيها أكثر من بلدية، بحيث يكون لكل (٤٠،٠٠٠ نسمة) دائرة خاصة بهم .

٣ – مهمة البلديات هي : ((**إنشاء الأبنية، توسيع الطرق وتنظيمها، إقامة الأنفاق والسدود، بناء وترميم مجاري المياه، الإشراف على أمور المياه العامة والخاصة، هدم الأبنية الآيلة للسقوط، إنشاء وتحسين الأبنية العائدة للدولة، شراء المواقع اللازمة لتوسيع الطرق وإقامة المرافق العامة، تزيين البلدة وتنوير أزقتها ليلا، المحافظة على نظافة البلدة، تسجيل ممتلكات المواطنين وعائداتها وذلك بتسجيل أسماء أصحابها وعمل مخطط لذلك، إحصاء السكان وتسجيل المواليد والوفيات بسجلات خاصة، إحداث حمامات عامة، الإشراف على أمور النقل والمواصلات سواء على الحيوانات أو الآليات على أن تكون الأجور معتدلة والآليات صالحة لذلك وتنظيم السير بحيث لا يسبب إزعاجا للمواطنين، توسيع الأسطول البحري ومنع الناس من السباحة في البحروذلك بإحداث بركة خاصة للسباحة، والإشراف على صيانة الزوارق وحمولتها كي لا تعرض الركاب للخطر، الإشراف على الأوزان و المكاييل والمقاسات، الاعتناء**

بالخبز ليكون بأسعار معتدلة وخالي من الفساد والغش، والإشراف على نظافة الخبازين، منع الجزارين من تعليق اللحوم مكشوفة بل عليهم تغطيتها بقطعة من القماش، ومنع بيع لحوم الحيوانات الهزيلة والمريضة، وإنشاء مذابح خاصة خارج البلدة ومنع الذبح داخل المدن، حماية البلدة من أضرار المصانع، منع بيع المأكولات والمشروبات المضرة بالصحة، إنشاء مراحيض عامة في أماكن مناسبة والاعتناء بنظافتها، المحافظة على نظافة الطرقات وإجراء كل الوسائل اللازمة لحفظ الصحة العامة، إنشاء المشافي وإسعاف المحتاجين، تربية الأيتام وإعطاء معاش للعميان والعجزة والفقراء غير القادرين على كسب معاشهم، إنشاء إصلاحيات ومعامل لتشغيل وتعليم الصنعة للقادرين على العمل، تأمين الأدوات اللازمة لإطفاء الحرائق، وتعيين مسؤولين عنها لإطفاء الحرائق بالسرعة الممكنة، الاعتناء بأمر المتسولين ((الشحاذين)) وتأمين عمل لهم إن كانوا قادرين على العمل، أو تأمين معاش للعجزة منهم، تجهيز وتكفين الموتى اللذين ليس لهم من يقوم بذلك، الإشراف على الملاهي والأماكن العامة ومنع ما يخل بالآداب، منع الاحتكار، تحصيل موارد البلدية وصرف مصاريفها اللازمة، الدفاع عن الدعاوي التي تقام ضد البلدية وإقامة الدعاوي اللازمة للمحافظة على حقوق البلدية)) .

الفصل الثاني

في كيفية تشكيل المجالس البلدية

٤ – يتكون المجلس البلدي من [٦ - ١٢ عضوا] حسب حجم وأهمية الموقع، ينتخبون من قبل المواطنين، مدته [٤ سنوات]، على أن يغير نصف أعضائه كل سنتين، تعين الحكومة رئيسا له، ويأخذ راتبا من واردات البلدية، أما باقي الأعضاء فهم أعضاء فخريين ليس لهم راتب .

٥ – مهندس البلدية وطبيبها وبيطريها أعضاء استشاريون في المجلس .

٦ و ٨ – يعين للمجلس كاتب وأمين صندوق على أن يكون موظفا أمينا، ويغير كل سنتين، كما يعين المجلس عددا من رجال شرطة البلدية حسب الحاجة .

٧ – لا يحق للشخص أن يكون عضوا في أكثر من مجلس بلدي واحد .

٩ – يعقد المجلس البلدي جلستين في الأسبوع، ويحق لرئيس المجلس دعوة المجلس للانعقاد أكثر من ذلك .

١٠ – في غياب الرئيس ينوب عنه أكبر الأعضاء سنا .

١١ – يلغى الاجتماع ما لم يكن حاضرا ((النصف + واحد)) من أعضائه، وتؤخذ القرارات بالأكثرية، وإذا تساوت الأصوات يرجح من فيهم رئيس المجلس أو وكيله، ويتم التصويت بطريقة سرية .

١٢ – الرئيس مسؤول عن تنفيذ القرارات، والكاتب مسؤول عن تدوينها وعن أمور المحاسبة .

١٣ – في كل جلسة يقرأ محضر الجلسة السابقة ويوقع عليها من قبل الرئيس وبقية الأعضاء .

١٤ – إذا اضطر رئيس المجلس استدعاء بعض الأعضاء لإكمال نصاب الجلسة مرتين، فإنه في المرة الثالثة يكتفي بالأعضاء الموجودين ويعمل بقراراتهم .

١٥ - من تغيب عن حضور الجلسات ثلاث مرات متتالية بدون عذر مشروع، يعتبر مفصولا ويحل محله الحائز على أعلى الأصوات في الانتخابات .

١٦ – مصاريف البلدية من أجور وإيجارات و قرطاسية وقيمة محروقات يجب أن لا تتجاوز ١٠٪ من إيرادات المجلس، وحين الضرورات القصوى يمكن أن ترفع لخمس الإيرادات .

١٧ – على الكاتب أن يحتفظ بكل المدونات الكتابية والحسابية .

الفصل الثالث

في كيفية انتخاب أعضاء مجالس البلدية

١٨ – من يكون عثمانيا وتجاوز سنه ال [٢٥ سنة]، ويدفع سنويا [٥٠ قرش] على الأقل ضريبة سنوية عن أملاكه الموجودة في محل إقامته ومستقلا في تصرفاته المدنية

والشخصية، وغير محكوم بجناية قط، يحق له الانتخاب .

١٩ – وكل من كان عثمانيا، وتجاوز عمره ال [٣٠ سنة]، ويدفع على الأقل [١٠٠ قرش] ضريبة سنوية عن أملاكه الكائنة في محل إقامته، وقادر على التكلم باللغة التركية، سليم العقل، مستقل في تصرفاته، لا يعمل عند أحد، غير مفلس وغير محكوم عليه بجناية أو جنحة، ولم يخدم عند الأجانب، ولم يكن موظفا في البلدية أو متعهدا فيها، وليس عليه أي من الرسوم المتأخرة، ولا يخدم الآن في الجندية، وهو ليس حاكما في البلدية أو أحد توابعها، يحق له أن يُنتخب عضوا في مجلس البلدية.

٢٠ – تبدأ الانتخابات في شهر كانون الأول وتنتهي في شهر شباط من العام التالي .

٢١ – حين حلول شهر ك١ من عام الانتخاب تشكل لجنة انتخابات، بحيث يطلب من مختار و إمام أو كاهن أو حاخام في كل منطقة، ترشيح رجلين ممن يحق لهم الانتخاب، على أن لا يقل عددهم عن [٢٠ شخصا]، ويقترع بين أسمائهم، ويكون العشرة الذين نالوا أعلى الأصوات هم لجنة الانتخاب، ويرأس اللجنة رئيس البلدية، بحيث تنتهي هذه العملية في العاشر من نفس الشهر.

٢٢ – إذا اعتذر أحد الأعضاء من لجنة الانتخاب فينتخب واحد من العشرة الباقين.

٢٣ – لجنة الانتخاب تطلب من الدوائر قوائم بأسماء الذين يحق لهم الانتخاب، تكتب على نسختين، وتكون جاهزة قبل [٢٥] من نفس الشهر، وتعلق إحدى النسخ أما باب المسجد أو المعبد في تلك المنطقة، وتبقى معلقة لمدة ثمانية أيام، وعلى رجال الشرطة واجب حمايتها.

٢٤ – خلال هذه الثمانية أيام تقبل لجنة الانتخابات جميع الاعتراضات الواردة إليها، وتجيب عن كافة التساؤلات المتعلقة بالانتخابات، ولا يقبل أي اعتراض يأتي بعد ثمانية أيام .

ونجد بعد هذه الفقرة ملاحظة ((البقية تأتي))

ونقرأ في نهاية هذا العدد رسالة من الأب ((**أنطانيوس قندلفت**)) إلى رئيس تحرير

جريدة الشهباء، رسالة غنية بتعبيرها الأدبي والأخلاقي والثقافي، غزيرة الشواهد الشعرية، يعزيه فيها عن انقطاع الجريدة عن الصدور بعد العدد الثاني، ويشد من عزمه و عزيمته ليتابع مسيرته التي بدأ فيها، غير آبه بما يعترضه من عقبات، ويشدد فيها على الأخوة بين جميع المواطنين على اختلاف أديانهم وقومياتهم، لأن ((**أباهم الوطن وأمهم الدولة**))، على حد تعبيره .

ويختتم العدد بالإعلان عن بعض الكتب التي تصدرها مكتبة العزيزية، وتعرض أسعار هذه الكتب لمن يريد شراءها. والعدد موقع باسم هاشم العطار صاحب الجريدة كالعادة .

العدد السادس :

صدر هذا العدد بتاريخ [٢٢ / ذي الحجة / ١٢٩٤ هج الموافق ١٥ و٢٧ / ك١ / ١٨٧٧ م].

في مقدمة العدد يحث الكواكبي المشتركين في الشهباء على دفع اشتراكاتهم، وإذا دفعوا ما عليهم فيجب أن يأخذوا وصلا بذلك، لأن الأعداد القادمة لن تسلم الجريدة إلا لمن يبرز وصل الدفع، كما يتقدم بالشكر للسيد كوراني زادة عاطف لدوره الكبير في نشر وتوزيع الجريدة في منطقته.

ثم نقرأ في هذا العدد مقالة سياسية هامة، تحت عنوان ((**جملة سياسية**)) جاء فيها أن الإمبراطورية العثمانية تمتد على قارات ثلاث، وهي مركبة من أكثر من [٣٠ مملكة قديمة]، وتتكون رعاياها من [١٢ جنسية] لكل منها لغة خاصة فيها، تتوزعهم [١٨ ديانة] تعود إلى أربعة أقسام كبيرة، أما من الناحية السياسية فهم ينقسمون إلى قسمين كبيرين، الأكبر فيهما هم المسلمون وأتباعهم ، والقسم الآخر هم المسيحيون وأتباعهم، ونتيجة للتباين بين عادات وأصول الطرفين من جهة واختلاف الغايات والمصالح بينهما من جهة أخرى، مما يشكل عقبة أمام السلطة السياسية، وهذا يستدعي منها المزيد من الحكمة في إدارة الدولة في محاولة لإرضاء الجميع، وإذا كان متعذرا إرضاء الجميع، فعلى الأقل إرضاء القسمين الكبيرين، المسلمون والمسيحيون. لأنه إذا ما انفرد أحد هذين الفريقين بالسلطة واستبد فيها، فهذا مما لاشك سوف يدفع الطرف الآخر إلى التذمر

وعدم الرضا، وهذا بدوره يدفع إلى المزيد من الحقد والضغينة، مما يعزز الانقسام والنزاع داخل الأمة، مما يطمع أعداءها فيها، وهذا عين ما حدث في الإمبراطورية العثمانية خلال القرنين اللذين سبقا العشرين سنة الماضية، حيث انتبه رجال السياسة لخطورة هذه المسألة، وتداركوا الأمر بالحكمة والتعقل . وكما جرى قديما في بلادنا السورية، لكن دون أن يتداركوا الأمر، مما أدى إلى زوال حكم العرب منها، فلو أن العرب المسلمين الذين دخلوا هذه البلاد فاتحين لها بسيف العدالة ومكارم الأخلاق، ولم تفسد أخلاق من تلاهم من الحكام، ولم يتعصبوا هذا التعصب الشديد في الدين، لما تعرضت بلادنا لشرور الحروب الصليبية، والتي لا زلنا نعاني أضرارها السياسية والأخلاقية، حتى الآن .

ويتابع الكواكبي، قد يظن البعض أن التعصب سمة من سمات المسلمين دون المسيحيين، ولكن لا، فالنصارى أشد تعصبا من المسلمين، وهم الذين كانوا وراء دفع المسلمين للتعصب الذي يرفضه الدين وتأباه الشريعة، والدليل على ذلك إثارتهم لتلك الحروب الصليبية المشؤومة التي ابتدأت عام [١٠٩٩ وانتهت عام ١٢٩١]، أي ما يقرب ال (١٩٢ سنة)، ناهيك عن تلك الجرائم التي ارتكبوها بالاشتراك مع المتطوعين من الأوروبيين واليهود الأبرياء (٤٤)، ونحن لا نريد بذلك إثارة فتنة، وإنما لنشيركم للتعصب الذي ما زال يعشش بيننا من أضرار على الأمة وعلى مصيرها.

وبالعودة للحديث عن الأمور الداخلية في ظل السلطنة العثمانية، فيمكن القول أن حرب القرم شر أتى بخير، لأنها نبهت الدولة إلى خطر الانقسام داخل المجتمع، فساوت بين مكونات المجتمع في الحقوق والواجبات، وأشركت المسيحيين في وظائف الدولة بطريقة حكيمة بحيث لم يعد المسيحيون يتذمرون إلا مما يتذمر منه المسلمون، على أن صوتهم كان بالجهر في الحق أعلى، وحين جاءت الحرب الراهنة حاولت الدولة وبكل السبل ربط الرعية بوطنها، حيث قرر مجلس المبعوثان في اجتماعه الأخير قانونا جديدا لانتخاب المبعوثان، بحيث ينتخب الأعضاء من كافة الطوائف وذلك حسب عدد السكان بغض النظر كونهم مسلمون أو غير مسلمين، فالكل في الدولة عثمانيون مهما كانت جنسيتهم أو كان مذهبهم ودينهم، وقد أصدرت الدولة قرارها باشتراك الجميع في الخدمة العسكرية، وقد تلي هذا القرار في مدينة حلب يوم الخميس الماضي، وقد حضر تلاوته كبار الطوائف الثلاثة، وتلقوه بالقبول والاحترام، وقريبا سوف يتم البدء بتنفيذ هذا القرار، وقد نشرت

الشهباء صورة هذا الأمر العالي، لأن هذا يسر جميع المواطنين، فهو ينصف المسلمين لأنهم وحدهم كانوا القائمين بهذه الخدمة منذ عدة قرون، وبالإضافة إلى مشقة هذه المهمة وعبئها عليهم، فقد كانت أعدادهم في نقص مستمر نتيجة لما خاضوه من حروب لوحدهم دفاعا عن الدولة، أما غير المسلمين فقد تلقوا هذا القرار بالفرح لأنه أتاح لهم الفرصة للمشاركة في هذه المهمة النبيلة لحماية بلدهم، وتحقق بذلك التساوي بين الجميع، ذلك التساوي الذي كانت تتوق إليه النفوس العاقلة من كلا الطرفين، وهو الطريق الوحيد لجمع كلمة الأمة وعدم تفرقها، مما يتيح أمام الدولة الالتفات إلى الإصلاحات الداخلية . وهذا يؤدي إلى مضاعفة القوة العسكرية للدولة، هذه القوة التي تشكل أساس عزة الدولة ومجد فخرها، لأن فيها يتحقق الأمن والراحة، ويزول الطمع فيستتب الأمن والسلم، وتستفيد الدولة من كافة مواردها لتحقيق التقدم في المعارف والمدنية، وتحقيق السعادة و الرفاهية، وهذا يعود على الدولة بأعظم الفائدة، متعنا الله بأحاسن إحسانه، ووفقنا لشكره وامتنانه، آمين .

بعد هذه المقالة الافتتاحية الرائعة ينتقل بنا العدد للحديث عن ((**الأحوال الحاضرة**))، فنقرأ تحت هذا العنوان بعض الأنباء الواردة من بعض المدن، وتحليلها والوقوف عندها، فبعد أن استولى الروس على ((**بلافنا**)) تتجه الأمور نحو المصالحة، ولكن هل سيتم الصلح بين المتحاربين مباشرة وبالتراضي، أم أن هذا الصلح سيتم بوساطة ورعاية أوروبية، لا أحد يعلم ؟ ! فروسيا لا تميل للتدخل الأوروبي، وكذلك ألمانيا يبدو أنها تميل لترك المتحاربين وشأنهم في عملية الصلح، ونقلت الجرائد أن ((**بسمارك**)) استمال لسياسته هذه وزير خارجية النمسا ((**الكونت أندراسي**)) وأقنعه بأن ذلك أكثر فائدة للنمسا، ونقلت ((**لاتركي**)) أنه ليس من الصعب على ألمانيا ضم إيطاليا إلى سياستها، وبذلك تبقى إنكلترا وحيدة فتضطر لمجاراة الآخرين. فالجميع في حالة ترقب لانتهاء الحرب وبدء المصالحة، حينها يهب الجميع للدفاع عن مصالحهم وحمايتها، مما يؤهب لحدوث حرب أوروبية عامة، وصدق حدث الكواكبي وتحليله، لأنه ما هي إلا سنوات عن هذا التاريخ إلا وكانت الحرب العالمية الأولى مشتعلة.

وتحت عنوان ((**حوادث الحرب**)) تنقل لنا الشهباء بعض أخبار الحرب الدائرة بين روسيا والدولة العثمانية، وهي تؤكد أن الحرب بينهما سجال، بين كر وفر، بين هزيمة

وتراجع جزئي هنا وإقدام محدود هناك، لكن الحرب لم تلق بأوزارها بعد.

ثم نقرأ مجموعة من الأخبار المتفرقة تحت عنوان ((**حوادث شتى**)) كان أهمها خبر عن احتجاز الحكومة العثمانية لبعض السفن الإيطالية التي دخلت البحر الأسود مما أدى إلى وقوع خلاف بين الطرفين، لكن الباب العالي وعد بإطلاق السفن تحت بعض الشروط.

ونقرأ في نفس الباب نقلا عن جريدة التايمز (التيمس) نبأ عن ارتياح ألمانيا لانتصار الروس في ((قارص))، لكن ذلك أثار حفيظة وقلق إنكلترا، مما دعاها لتشكيل لجنة للدفاع عن حقوق إنكلترا تجتمع مرتين في الأسبوع، وأنه في غضون أيام سوف يصدر عن هذه اللجنة بعض القرارات التي تعجب العثمانيين .

ثم ينقل لنا العدد عن مراسل الشهباء في الشام ((دمشق)) أخبارا عن حالة الفقر المدقع الذي يعانيه الناس هناك، حيث أن المراسل رأى رجلا يحمل بيده رغيف خبز، يتأوه ويصرخ بأعلى صوته ((**اللهم نشكو إليك ما وصلنا إليه من الضيق، ونطلب مع التوسل من كرمك أن تخرب بيوت حاكري القمح الذين هم لا يخافونك، أفلا يكفينا ما ألم بنا ؟!**)) وجعل يبكي، وأن المراسل أخذ رغيف الخبز من الرجل ووزنه فإذا هو [٢٥ درهما] وهو يباع [بعشر بارات] بالتالي يكون ثمن الأقة على هذه الحال أربعة قروش، بينما السعر الحقيقي لجفت القمح وهو [٣٦ أقة] أربعون قرشا، ويعلق المراسل على ذلك بقوله، لو أن المجلس البلدي تنبه لمثل هذه المخالفات والتجاوزات لتمكن الفقير من تأمين عيشه ولساعده ذلك على دفع الضرائب المترتبة عليه ((**كالتبرعات الحربية الشهرية ورديفية وأموال ميرية وتمتع وبدل نقدي وخلافه**)) ثم يدعو المراسل لله كي يصلح الأمور .

ويعلق الكواكبي على هذا النبأ بإبداء تأسفه على هذا الغلاء الذي يعاني منه السوريون علما أن الموارد وفيرة في البلاد، ويعجب كيف يكون في نفس الإقليم مجموعة من الناس تعاني الفقر المدقع، وأخرى تعاني من الثراء الفاحش.

ثم ينقل لنا العدد الترجمة الكاملة للأمر السامي القاضي بتشكيل العساكر الملكية، ومن أهم ما جاء فيه هو الحديث عن أهمية القوة العسكرية بالنسبة للدولة، وهي تتقدم

في أهميتها على أية إصلاحات داخلية أو سياسية **(ما أشبه منطق مستبد اليوم بمنطق مستبد الأمس)**، لأنه بالقوة العسكرية يدوم عز الأمة وتصان حدودها وكرامتها، على حد تعبيره . ثم يشير الأمر السامي إلى تخلف الجيش الإنكشاري وما سببه للأمة من أضرار، وأن أول من تنبه لهذا الخلل، وقام بأولى الإصلاحات في الجيش هو السلطان محمد خان الثاني، حينها تحسنت أحوال القوة العسكرية، وأصبحت مقسمة إلى ثلاثة أقسام ((النظام والرديف والمستحفظ))، أي القوات النظامية والرديفة والاحتياط . أما في الحرب الحالية فإن الدولة تنظم قواتها العسكرية على شكل أفواج مقسمة إلى عساكر معاونة وعساكر ملية، والسلطان الحالي يتابع ما ابتدأه جده من إصلاحات في الجيش، فباشر أولا بأخذ أبناء دار الخلافة إلى الخدمة العسكرية، وتحويلهم هم و أبناء الولايات التابعة للخلافة من عساكر معاونة إلى عساكر ملكية، ويبدأ التجنيد اعتبارا من سن السابعة عشر، لا فرق في هذا بين دين أو مذهب أو ملة، ومهمة هذه القوة العسكرية هي حماية الوطن .

(صدر هذا القرار بتاريخ [٢٠ / ذي القعدة / ١٢٩٤ هج – الموافق ١٤ / ت٢ / ١٨٧٧ م]).

وتحت عنوان ((**حوادث محلية**)) نقرأ بعض الأخبار المحلية، منها أزمة البريد ((**البوسطة**))(٤٥) في مدينة حلب، في البداية ينوه كاتب المقال إلى مركزية حلب وأهميتها التجارية، وبالتالي أهمية البريد وأهمية وصوله بانتظام إليها، ويقول عندما كان البريد في عهدة الأجانب كان منتظما ويأتي في موعده، أما حين أصبح يعهد به إلى العثمانيين الذين يأخذونه بطريقة المناقصة، وهم لا يهمهم من ذلك سوا الربح والتوفير، فاستعملوا لذلك أرخص الخيول وأضعفها، واستخدموا من الرجال أقلها أجرا، بالتالي فإن بريد القطار الفرنسي يوم الاثنين [١٨ / نوفمبر – ١٣ / ذي الحجة] لم يلحق به المراسل المكلف، فبقيت المكاتيب والحوالات والجرائد والأمانات المرسلة إلى سواحل سوريا والهند وعموم أفريقيا وأوروبا وأمريكا معطلة مدة خمسة عشر يوما، أي لحين موعد البوسطة التالية، ولا يخفى على أحد ما ينجم عن ذلك من أضرار.

ومن الأخبار المحلية تحذر الشهباء فيه من شخص يدعى (**هدايت أفندي**)، يدعي العلم والمعرفة والاتصال بالباب العالي، وهو في الحقيقة ليس أكثر من نصاب دجال

كذوب وعاهر مطرود من قبل السلطات المحلية في حلب.

ثم ينقل العدد عن جريدة ((**لسان الحال**)) (٤٦)، مقالة عن عادة غريبة تنتشر في النمسا ((أوستريا)) وهي أن الفتيات يعرضن أنفسهن للزواج على صفحات الجرائد، وأنه قد تم فتح مكاتب خاصة للزواج، بحيث تأتي الفتاة الراغبة في الزواج إلى المكتب يوميا مدة ساعة أو ساعتين لتعرض نفسها للشبان القادمين إلى المكتب لنفس الغرض، ولها الحق في القبول أو الرفض، وفي المكتب قاعتان إحداهما مخصصة للشقراوات والثانية للسمراوات، ويعلق صاحب المقال على ذلك بأنه لا يدري إن كان ذلك يسهل عملية الزواج أم أن ذلك يؤدي إلى فساد الأخلاق ؟ !

وفي هذا العدد تنشر الشهباء القسم المتبقي من ((**قانون مجلس بلدية الولايات**)) الذي نشر الجزء الأول منه في العدد الخامس من الشهباء، ولا أرى مبررا لنقله، ولمن أراد الاضطلاع على بقية مواد هذا القانون، يمكنه العودة إلى الأعمال الكاملة للكواكبي (ص ٢٠٣ – ٢٠٦) .

وينتهي العدد بمقالة سياسية كتبها ((**أحمد أفندي وهبي**)) (٤٧)، جاء فيها: أن الجرائد ومنذ مدة طويلة، تنقل لنا أخبار التحالف بين إنكلترا والدولة العلية ((العثمانية))، وكنا نصدق ما تنقله هذه الجرائد، إلى أن اندلعت الحرب الروسية – العثمانية الحالية، وصرنا نترقب أن تفي إنكلترا بوعودها فعلا، فإذا بإنكلترا تحجر على بارجة عثمانية كانت قد صنعت في أحد الموانئ البريطانية ودفعت الدولة العثمانية ثمنها، تحت دعوى أن إنكلترا تقف في الحرب على الحياد، كذلك قامت بمعاقبة بارجة أخرى كانت تنقل بضائع لنا، كنا اشتريناها من أمريكا.

وحين اندلعت الحرب الأخيرة بين روسيا والدولة العثمانية، كنا ننتظر الدعم المعنوي على الأقل للدولة العثمانية من إنكلترا، لكننا لم نسمع سوى كلمات فارغة لا طائل منها، كالذي قاله وزير خارجية بريطانيا لنظيره الروسي، بأن بريطانيا لن تسمح بدخول الروس إلى آسيا، والسؤال هل سيكترث وزير خارجية روسيا لهذا الكلام أم أنه سيصم أذنه عنه ولا يتأثر به ؟

ترى هل تعلم إنكلترا كم انحط موقفها السياسي في نظر فرنسا حين لم تشارك في

الحرب الألمانية سنة(٧٠)، وها هي تتابع موقفها المشين بعدم تدخلها في الحرب الحالية ضد روسيا، وإذا كان رجال السياسة الإنكليز لا يعلمون فنحن لا نلومهم، وسنكتفي بتفسير هذا الموقف المتخاذل بأن إنكلترا راغبة في حرب روسيا ضدنا كي تضعف القوة الروسية حتى لا تمتد يدها إلى الهند، أما إذا كانوا يدركون كم انحطت سياستهم بعدم تدخلهم في الحرب الألمانية والحرب الروسية الحالية، وهم يبررون موقفهم بمحافظتهم على مصالحهم الخاصة التي لا يعلمها سواهم، عندها يذكرنا تحالفهم هذا مع الدولة العلية بقصة الرجل الكسول الذي يذهب مع ولده يوميا لأرضهم كي يحرثوها، وحين يصلا إلى الأرض يقول لولده : دعنا اليوم من العمل، فإن البرد أو الحر شديد، غدا نأتي كي نحرثها، واستمرا على هذه الحال سنة كاملة، ولم يحرثا الأرض، فنبتت فوقها الأعشاب، فقال لولده: إعطني كبريتا لنحرق هذه الأعشاب ثم نحرث الأرض، فما كان من طيرة كانت قد بنت عشها وفرخت بين تلك الأعشاب إلا أن قالت لفراخها: هيا بنا نذهب من هذه الأرض فإن صاحبها حراقا وليس حراثا.

العدد السابع :

صدر هذا العدد بتاريخ [٢٩ / ذي الحجة / ١٢٩٤ هج الموافق ٢٢ / ك١ / ١٨٧٧م].

يبدأ العدد بالتنويه إلى الأمر الرسمي الصادر عن وزارة الداخلية، القاضي بعدم نشر التحركات العسكرية على صفحات الجرائد .

ثم ينتقل العدد للحديث عن أحوال الحرب الدائرة بين روسيا والدولة العثمانية، جاء فيه أن الأخبار تتحدث عن تفوق الروس على الدولة العثمانية، ولكن من الحمق أن نقول أن العثمانيين قد خسروا الحرب خسارة لا رجعة فيها، وأنهم قد أصبحوا تحت هيمنة الدولة الروسية، ولكن إذا نظرنا للأمر بعين الدقة والموضوعية، نرى أن استيلاء روسيا على القارص وبلفنا ما هو إلا ثأر أخذ ليتعادل الطرفان في ساحة المعركة، ولا يخفى على أحد أن روسيا تعتمد في قوتها العسكرية على أربعين مليون من ((السلاف))، وأنها تستعد للحرب منذ عشرين سنة، وأنها لدناءتها استعانت ببعض رعايا الباب العالي عليه، وأن العائلة المالكة كانت تشرف على الحرب بنفسها، أما الدولة العثمانية فليس

لديها من القوات العسكرية أكثر من [١٥ مليون]، وأنها لم تعط الحرب اهتمامها الكامل الذي تستحق، ويكفي الروس عارا ما ألحقهم به ((**أحمد مختار باشا**)) من هزائم في الستة أشهر الماضية، صحيح أن استيلائها على القارص وبلفنا محا عنها بعض العار، إلا أن ثمن القارص وعشرة آلاف أسير فيها، لم يكن أقل من ثلاثين أ لف قتيل في صفوفها، وكلفها من المبالغ ما يزيد عن أموال أرمينيا، وثمن بلفنا وثلاثين ألف أسير فيها لم يكن أقل من ستين ألف من رجالها وبخسائر مالية تزيد عن قيمة بلغاريا كلها، هذا عدا عن انحطاط قيمتها بين الدول بعد أن كان الجميع يحسب لها ألف حساب وهي لم تربح هذا الربح الكبير لكي يجعلها تفرض شروطها، والباب العالي لن يقبل بأي شروط مذلة مهينة لأنه مازال مستعدا لمواصلة الحرب، والجميع يعرف أن الشتاء أفضل للعثمانيين منه للروس، وصحيح أن الدولة العلية طالبت الدول الأخرى للتدخل في الصلح حقنا للدماء، ولكن رغم رغبتها في الصلح لم تطلب الهدنة، ولم تتوقف عن تجنيد المزيد من العساكر وتسيير الكتائب وإرسال النجدات وابتياع المهمات والاستمرار في الاستعداد وإذا استمرت روسيا في فرض شروطها وتعنتها فالحرب قادمة لا محالة، أما إذا اعتدلت روسيا في شروطها وهو الغالب تفاديا لإغضاب إنكلترا و أوستريا ((النمسا))، أما ما يقال عن أن مساندة ألمانيا لها تجعلها لا تبالي بغضب الدولتين المذكورتين، أو أن ذلك يجعلها بمأمن من غضبهما، فإن دعم ألمانيا لها ليس أكثر من دعم سياسي فقط، ويبعد أن تضحي ألمانيا بدماء أبنائها وبأموالها في سبيل المصالح الروسية، خصوصا وأن الأخبار الواردة تفيد أن فرنسا قد استقرت أحوالها، وحتى لو فرضنا أن روسيا تعتمد على ألمانيا في كبح غضب إنكلترا و أوستريا ((النمسا))، لكن روسيا نفسها لم يعد لديها تلك القوة التي تمكنها من متابعة الحرب، لأن الأشهر الأخيرة قد أتعبتها وحملتها من الخسائر ما يدفعها لأن تتمنى الخلاص من هذه الحرب بأي شكل من الأشكال، لأنها تخرج من الحرب في هذه الحالة وهي بكامل كرامتها، والآن الفرصة سانحة. أما ما تناقلته جرائدها والجرائد الموالية لها، بأنها لن تنه هذه الحرب إلا بشروط تفرضها وإلا فإنها سوف تستمر في هذه الحرب متوغلة في آسيا وأوروبا حتى تستولي على الأستانة، فهذا هراء لا يسمعه أحد، خاصة أن الأخبار الواردة تفيد أن حالة الجيش الروسي في تدهور مستمر، وهو مضطر في هذا الشتاء إلى التراجع إلى حدود ((أردهان)) وغالبا إلى قارص أيضا، وما سيفعله في الربيع القادم ليس أكثر من التوغل ثانية في ((أرض روم)) التي تكون قد استوفت كامل

تحصيناتها، حتى البلغار لم يسمحوا لروسيا، وخلال ستة أشهر من القتال الضاري، لأن يستولوا على أكثر من بلفنا، فتوغلهم في البلاد ضرب من المستحيل، خاصة إذا علمنا أنهم أخذوا ما أخذوه بالحيلة والدسائس، والخلاصة فإن الصلح لا يمس شرف العثمانيين، ولا داع لروسيا لمزيد من الشطط، وقد نقلت ((**الليفانت هرالد**)) عن ((**باري دينا**)) فيما يتعلق بمركز المتحاربين وصعوبات الصلح المنتظر، فقالت : إن ما تبدى عن الحرب الحاضرة هي نتيجة واحدة، وهي أن كلا الطرفين بذلا ما في وسعهما من قدرة على الحرب، وما لدى الدولتين من الوسائط والقوات يعادل ما كان لديهما قبل الحرب، أي أن الحرب قضت لا غالب ولا مغلوب، وإذا كانت علامات السلم بادية على العثمانيين أكثر من الروس، فيجب أن لا يغيب عن الأذهان أن العثمانيين قد أظهروا قوة وبسالة ليس بعدها في ميدان القتال والدفاع، وأعربوا عن مزيد من الصبر والتجلد على ما أصابهم من العدوان، وقابلوها بمزيد من النشاط ولم يبالوا بالخسائر، ويخطئ من يتوقع منهم تهاونا أو تذللا، وإذا كان الجميع يتحدثون عن الصلح، فالصلح أمامه عقبات كثيرة، لكن الذي يدفع الطرفين إلى الصلح هو الأحوال الداخلية لكلا الطرفين وليس وضع قواتهما العسكرية، ومع ذلك فإن الأوضاع الداخلية هي التي تمنع السلطان العثماني والقيصر من أن ينهيا الحرب بأقرب فرصة، لأنه مهما كانت رغبة الاثنين بالسلام كبيرة، فيجب عليهما عرض ذلك على شعبيهما، لأن وراء هذه الحرب الضروس كانت هناك دوافع عرقية وأخرى دينية، بالتالي لا يمكن إنهاء الحرب إلا بانتصار أحد الطرفين واستسلام الآخر، وما تحقق في ساحات القتال ليس كافيا لاستتباب السلم.

ثم نقرأ في هذا العدد تحت عنوان ((**الأحوال الحاضرة**)) متابعة لأخبار الصلح بين الدولتين العثمانية وروسيا، منها أن أحوال الحرب دفعت الباب العالي لأن يتوسط الدول الأخرى لإجراء المصالحة، فأرسل وزير الخارجية العثماني ((**دولتلو سرور باشا**)) تلغراف لهذه الدول يقول فيه : ((**حيث أن العساكر العثمانية قد أثبتت ما لها من الشرف العسكري مدة الحرب، وقد أبدت الحكومة في الفترة الماضية رغبتها في إجراء بعض الإصلاحات الداخلية، وقد قامت فعلا ببعض هذه الإصلاحات دون أن تسمح لأحد بالتدخل في أمورها الداخلية، والحكومة العثمانية ترى أنه آن الأوان لعقد الصلح وهي تطلب توسط الدول في هذا الصلح**)) .

فكان رد باريس أنها تنصح الباب العالي أن يطلب الصلح مباشرة من روسيا، أما دولتي ألمانيا والنمسا فقد أبدتا عدم رغبتهما بالتوسط، بينما أبدت إيطاليا قبولها بالتوسط بين الدولتين بناء على طلب الباب العالي، أما وزراء إنكلترا فهم في ارتباك كلي من الأمر، لكن روسيا أبدت إصرارها على عدم قبول توسط أي من الدول الأوروبية .

والأخبار تفيد أن جميع الدول مهتمون بهذا الأمر، وأن سفراءهم لا يغادرون الباب العالي، وفي رسالة أخيرة أفادت أن إنكلترا قبلت التوسط وسألت روسيا عن شروطها للصلح، وردت روسيا بأنها أصدرت أوامرها إلى سائر شطوطها البحرية وبوارجها الحربية بأن تتحصن وتستعد للدفاع، وكأنها تتوجس الشر، علما بأن مطالبها لا ترضي إنكلترا .

وحاصل ما تقدم فإن إنكلترا وإيطاليا قبلتا التوسط، أما ألمانيا والنمسا فقد رفضتا التدخل وهذا يشير إلى خلاف بين الدول الأوروبية، ينذر بحرب عامة سياسية إن لم تكن دموية، والجميع متشائم من سوء العواقب إذا تطرفت روسيا في مطالبها.

ويؤكد المقال أن الباعث الحقيقي وراء الصلح هو سقوط بلفنا بيد الروس بعد أن كانت قد سقطت قبلها القارص، ويتطرق المقال إلى الأسباب الكامنة وراء هذا السقوط وكيف تم السقوط، ومن هو المسؤول لينتهي في النهاية بأن ذلك قدر مكتوب من الله، ولا بد من الصبر.ثم يتطرق المقال في النهاية إلى أخبار متفرقة عن الحرب هنا وهناك، وعن تغيير في بعض القادة، وتردد إنكلترا في موقفها، وما إلى ذلك مما ليس له أهمية على أرض الواقع .

ونقرأ في هذا العدد نقلا عن الجوائب، نبأ عن افتتاح مجلس الأعيان والمبعوثان، جاء فيه أنه في يوم الخميس الماضي الموافق [٧ / ذي الحجة]، توجه الوكلاء والوزراء والعلماء وأعضاء مجلسي الأعيان والمبعوثان، وسفراء الدول الأجنبية إلى سراية ((بشكطاش)) بهدف افتتاح مجلس الأعيان والمبعوثان بحضور السلطان المعظم، واصطفوا أمامه على الشكل التالي، فكان على يمينه الصدر الأعظم ووكلاء الباب العالي، ثم مأمور المجالس العالية، ثم رؤساء المذاهب المختلفة، ثم أعضاء مجلس الشورى ومستشاري النظارات المختلفة وعدد من أعيان المأمورين العسكرية والملكية حسب رتبهم ومقامهم، وعن شماله شيخ الإسلام والشريف عبد المطلب أمير مكة السابق ثم العلماء من رتبة

قاضي عسكر وعدد من العلماء والأعيان، وكان أعضاء مجلس الأعيان أمام السلطان المعظم من ناحية اليمين على صفين، وأعضاء مجلس المبعوثان أمامه ناحية الشمال على تسعة صفوف، وأنه في تمام الساعة السادسة دخل السلطان المعظم وسلم على الحاضرين، ثم أعطى إلى حضرة ((دولتلو سعيد باشا)) أمين سر مولانا المعظم، ورقة تشتمل على الكلمة التي يريد أن يلقيها، فتلاها على الحاضرين وهذه ترجمتها بتصرف :

أيها الأعيان والمبعوثان :

إنني ممتن لكم بافتتاح المجلس العمومي ولقائي مبعوثي الملة، وكما تعلمون فإن روسيا قامت في العام الماضي بالاعتداء علينا فاضطررنا للمواجهة والدفاع عن أنفسنا ومازالت هذه الحرب دائرة، ومشكلات الحرب قد ازدادت، والخلل الذي ظهر في ((هرسك)) منذ عامين ونصف ظهر في مواقع أخرى، وأن قسما من أهالينا المتمتعين بكامل الحقوق وتلقي المساعدات الخاصة، والمحافظة على ملتهم ولغاتهم بشكل كامل، وقد سلكوا مسلكا غير مشروع مما أضر بهم وبإخوتهم وبالوطن بشكل عام، وأعلنوا الخصومة لدولتنا بدون وجه حق خاصة أنهم يتمتعون باستقلال إدارتهم الذاتية، ومع الرغم من هذا فبلادنا لا تتأخر في الدفاع عن نفسها، وقد أثبت العثمانيون كافة بما أظهروه في الحرب من حميّة، امتلاكهم للحس الوطني بشكل خارق، وأثبت جنودنا قدرتهم وبسالتهم في القتال، ومع هذا فأنا مصر على مطالبة أتباعنا بالتعاون معنا للمحافظة على حقنا المشروع.

وللوصول إلى إتمام كامل الترتيبات العسكرية الملكية، فنحن نتوقع أن يظهر العثمانيون غير المسلمين تشوقهم للمحافظة على وطنهم، خاصة بعد المساعدات التي تلقوها من الدولة، وأنهم أصبحوا متساوين في الحقوق والواجبات بقوة القانون، وبالتالي فإن اشتراكهم في الخدمة العسكرية هو أكبر دليل على هذه المساواة .

وقد وعد بإجراء الإصلاحات المالية والإدارية اللازمة، والتي حالت الحرب دون إتمامها، هذه الحرب التي تجاوزت كل حد، حتى أنها طالت المدنيين، وكم تعرض الأطفال والنساء لجرائم هذه الحرب، ولكن لا بد للحق من أن ينتصر.

ثم ذكرهم ببعض القوانين التي أحيلت لمجلسهم، ودعاهم لدراستها والانتهاء منها في

أسرع وقت ممكن. وعدم تناسي الدولة للإصلاحات الداخلية الضرورية في الوقت الذي تنشغل فيه بأمور الحرب دليل على رغبة الدولة الأكيد في التقدم والرقي .

أيها المبعوثان : إن إيجاد الحقائق في المسائل القانونية والسياسية وتحقيق منفعة البلاد، يتوقف على تشاور أصحاب الرأي بحرية تامة، وبما أن القانون الأساسي يأمركم بذلك فلا حاجة لترغيب أولترهيب .

وتحت عنوان ((**الأفكار العمومية في إنكلترا**)) نقرأ ما نشرته الجرائد الإنكليزية، من أن استسلام بلفنا له تأثيره في الأحوال الحاضرة، وهي تحث الدولة على السعي في المصالحة، لأن استمرار الحرب يضر بمصالح إنكلترا.

وفي رسالة أخرى فإن وزير الحربية وبعد أن أثنى على عثمان باشا وعساكره، قال أن ما قاساه هؤلاء الأبطال يقع على مسؤولية من تسببوا بهذه الحرب، وأن الدولة تنتظر الفرصة السانحة لإيقاف القتال، وذكر في ((الستاندرد)) أن روسيا إذا تجاوزت البلقان واستولت على ((أدرنة)) (٤٨)، سوف يخرج إنكلترا من حيادها.

وفي رسالة أخرى من لندن أن ((المورنن بوسط)) قال : أنه يرتاب في إمكانية التوسط للصلح في الوقت الحاضر لكن سياسة الروس الوحشية توجب على إنكلترا أن تنهض لمنع الروس من هذه السياسة، وفي رسالة أخرى يصرح وزير الحربية أنه إذا خيف على مصالح إنكلترا فيجب عليها استنفار كل قواتها للدفاع عن مصالحها.

وجاء في التايمز ((التيمس)) أن استيلاء الروس على بلفنا كان بسبب خيانة الجواسيس البلغار، وأن جميع من في إنكلترا يستنكرون تصرف أمير الصرب وخيانته .

* * *

ثم يعرض لنا العدد نبذة عن الأنظمة العسكرية الملكية، ومن أهم ما جاء فيه، أنه يستثنى من العساكر الملكية :

١ – أعضاء العائلة الفخيمة الملوكية .

٢ – هيئة الوكلاء الفخام .

٣ – أعضاء مجلس الأعيان .

٤ – أعضاء مجلس المبعوثان ما لم تنته مدة انتخابهم .

ولمن أراد المزيد عن الأنظمة العسكرية الملكية، يمكنه الرجوع إلى الأعمال الكاملة للكواكبي – نشر مركز دراسات الوحدة العربية – ص ٢١٦ وما بعدها .

ثم يتابع هذا العدد نشر ما تبقى من قانون المجالس البلدية الذي بدأ نشره في العدد الخامس من الشهباء ونشر قسم منه في العدد السادس.

وينتهي العدد بذكر بعض الأخبار المحلية، كان من أهمها تخفيض سعر رطل الخبز من القرشين إلى [٧٠ بارة] ووضع نظام جديد لجباية الأعشار، وينتهي العدد بعرض سعر العملات المتداولة آنذاك، وأسعار بعض البضائع الموجودة في الأسواق .

العدد العاشر: (٤٩)

صدر هذا العدد بتاريخ [١٢ / محرم / ١٢٩٥ هج – الموافق ١٣ و ٢٥ ك٢ / ١٨٧٨ م].

جاء في مقال الافتتاحية :

لا شك أن أحوال الحرب الأخيرة أثارت غضب الناس وغيظهم، من سوء إدارة تلك الحرب ومن سوء الإدارة بشكل عام، وبدأ صبرهم ينفذ من عدم تحقيق الوعود التي وعدوا بها للتخلص من الفساد المستشري بالدولة، ومما يشجعهم على الطعن والتنديد بالأحوال الحالية، هو اعتراف السلطان العثماني ((مولانا المعظم)) بهذا الفساد في جميع خطبه ومقالاته ورسائله، إضافة إلى حثه الرعية للنظر في مصالح المملكة والوطن بكل حرية، وهذه الميزة تميز فيها السلطان الحالي عن أسلافه، فإنهم كانوا وفق ما اعتادت عليه العائلات الحاكمة في الشرق، يتجنبون مخالطة الناس، فيعتلي أحدهم عرش السلطة وهو غير كفء لها، وكان هذا الاحتجاب، قبل توليه السلطة وبعدها، يدفعه لأن يصرف معظم وقته في مباشرة السراري (٥٠)، فتغلب عليهم طباع النساء وصفاتهن من شدة الحلم والصبر والميل للمشاحنة، إضافة إلى الغلو بالزينة الظاهرية والأخذ بالمظاهر.

ويبدو أن هذه الصفات التي يتحلى فيها هؤلاء الولاة إضافة إلى الاستبداد الذي يمارسونه، هما الأسباب الأساسية فيما نشاهده من فساد في الإدارة، لأن الوزراء والمدراء والحاشية يتحلون عادة بأخلاق مليكهم ((**الناس على دين ملوكهم**)) كما يقال، والذي ينظر في تاريخ الأديان والحضارات، يظهر أن الناس كانت تتبع ملوكها في المعتقدات، فكيف بالعادات والأشياء الظاهرية، والمقربين إلى الملك عادة هم أكثرهم تقليدا وتشبها بالملك، وإذا ما سيطرت هذه الصفات على رجال السياسة سرعان ما تفسد الإدارة ويختل نظامها، لأن شدة الحلم ينجم عنها التساهل في معاقبة المجرم ومحاسبة المذنب، وهذا يؤدي إلى لا مبالاة عند الموظفين في مخالفة الأوامر وإهمال واجباتهم الوظيفية، وذلك لأنهم مطمئنون سلفا بأنهم لن يتعرضوا لأي مساءلة وكلهم أمل بأن مسؤوليهم لن يطردوهم من وظيفتهم، وسوف يعيدوهم إليها إذا ما طردوا منها . وإذا ما ثبتت الجريمة على أحد الموظفين، فإنه إما أن يفصل من عمله لفترة مؤقتة وسرعان ما تشمله عناية السلطان العليا ورأفته، وتعيده إلى نفس وظيفته، أو أن ينقل إلى وظيفة أخرى، قد تكون أفضل من سابقتها، وكم سمعنا في فترة الحرب الأخيرة أن القائد الفلاني طلب إلى الأستانة لأنه اقترف كذا، وأنه حكم عليه بعدم كفاءته لوظيفته، ولا نلبث إلا ونسمع بأنهم أعادوه إلى وظيفته أو إلى وظيفة غيرها، أو نسمع بنفيه ثم نسمع بمسامحته ثم بتهمته ثانية ثم بترقيته إلى وظيفة أخرى، إلى غير ذلك مما ينافي الأول الثاني والمقدم التالي.

أما الصفة الثانية : وهي الاهتمام بالمظاهر التي لا حدود لها ولا غاية تنفع مرجوة منها، هذه الصفة إذا ما ابتلي فيها رجال الحكم والسياسة، موظفين ومديرين، تحتاج إلى بذل أموال كثيرة، مما لا يكفي معه مرتبات الموظف ومخصصات المسؤول مما يدفع إلى ظاهرة خطيرة هي ((**الرشوة**))، ومن مظاهر ذلك ما نلاحظه من مظاهر بذخ وترف عيش على موظف من الموظفين، ما لا يكفي معه أضعاف مرتبه لتحقيق هذا المستوى من الرفاهية، حتى إذا زادت الدولة مرتبه تضاعف مصروفه، وقد انتشرت هذه الظاهرة لدرجة أن أصحابها يتباهون فيها ولا يخفونها على احد، وحين تتضافر هذه الصفة مع سابقتها تنشأ ظاهرة الواسطة والمحسوبية، وظاهرة المنفعة المتبادلة بين الأدنى والأعلى، وكثيرا ما تفشت هذه الظاهرة بين رجال السياسة، فنسمع فلان له وزير يسنده، وآخر

خلفه أميريدعمه، لدرجة أصبح الناس يستحبون القبيح ويتفاخرون بأرذل الصفات .

الصفة الثالثة : هي الاعتماد في التكريم على النسب أو الانتساب، بمعنى آخر إعطاء الأفضلية في الوظائف والمناصب العالية لمن ينتسب إلى العائلة الحاكمة نسب الانتماء، أو ينتسب إلى أفكار المجموعة أو الفئة الحاكمة، نسب الموالاة والتأييد والتبني .

وإذا ما سيطرت هذه الفكرة على الحكام، تختل الإدارة، لأنه في هذه الحالة نعطي الوظائف ونحمل المسؤولية لغير الجديرين فيها، أي نضع الرجل المناسب في غير مكانه المناسب، وبالتمادي في هذه الظاهرة، تحرم الدولة من الجديرين والقادرين على قيادتها، لأن من لهم شرف الانتساب للعائلة الحاكمة لا يجهدون أنفسهم ببذل الجهد لتأهيل أنفسهم ليكونوا جديرين بتلك المناصب والوظائف التي سوف يستلمونها، لأنها مضمونة لهم، تأهلوا لذلك أو لم يتأهلوا، والآخرين ممن لا ينتسبون للفئة الحاكمة، لا يبذلون جهدا ليتأهبوا لتلك المناصب والوظائف، ليأسهم من الحصول عليها، ويؤول الأمر في النهاية إلى استئثار المنتسبين للعائلة الحاكمة بالوظائف والإدارات والمسؤوليات بالقهر والغلبة حينا، ولعدم وجود كفاءات تنافسهم حينا آخر. **((ما أشبه اليوم بالأمس، يبدو أن الاستبداد وما يخلفه من فساد وسوء إدارة هو واحد ويتخذ صورا متشابهة عبر التاريخ)).**

ومن آثار الغلبة والقهر هذا، أن لا نرى وزراء و مسؤولين كبار إلا من طائفة واحدة، وليس من المعقول أنه ومنذ ثلاث مئة سنة لم يوجد من العرب من لديه كفاءة ليتبوأ وزارة أو منصبا عاليا في وزارة .

ومن آثارعدم وجود كفاءات في الطرف الآخر، ما نشاهده من خيبات أملنا في معظم من نحسن الظن فيهم، حتى باتت الأمة لا تجد من تعتمد عليه في إدارة شؤونها، ونلجأ للأقل سوءا في معظم خياراتنا .

ومن آثار الصفات الثلاثة آنفة الذكر ينشأ الخلل والفساد المستولي على إداراتنا منذ القدم، وقدمه هذا جعله يصبح جزءا من طبيعتنا، وكأنه شيء طبيعي، ومن هنا باءت كل محاولات الإصلاح بالانكفاء والفشل، وقد قالت الحكماء : **((إذا ظهر الفساد والاختلال في أحد أطراف المملكة، فعلى أهلها أن يبادروا لإصلاحه حالا، وإلا فإذا**

دام الفساد عشرة سنين يعز استدراكه وينقطع الأمل من تداركه، حينها يجب أن نجتهد لمنع انتشاره إلى سائر أنحاء المملكة بتغيير كل المسؤولين فيه، لأنه إذا انتشر الأمر في المملكة عموما، حينها لا يبقى من يمكن الاستعانة بهم لإجراء الإصلاح، وفي هذه الحالة فلينظر لهذه المملكة ما ينظر للبدر في عجز الشهر))، أي تصبح هذه الأمة آيلة إلى زوال.

ومن المعلوم أن أول من ابتدأ بالإصلاح في السلطة العثمانية هو السلطان ((**محمود خان**)) الذي ابتدأ بإصلاح الناحية العسكرية، وقد نجح في ذلك بعض النجاح إثر عزله لجماعة الجيش الانكشاري و إعدامهم جميعا . كذلك السلطان ((**عبد المجيد خان**)) الملقب بمنجي الأمة، والذي أجرى إصلاحات كثيرة في الإدارة الملكية بالأخذ على أيدي المسؤولين عن أرواح وأموال الناس في السلطة، وتقييد تصرفاتهم بسن بعض القوانين والأنظمة التي تحد من تصرفاتهم السيئة، مما أبهج الرعية منتهى الابتهاج . أما السلطان ((**عبد العزيز خان**)) فقد اقتصرت إجراءاته على سن بعض الأنظمة وإنشاء بعض الإدارات، دون معرفة لكيفية تنفيذ هذه القرارات، أو أنه لم يوجد من يساعده على إجراءاته تلك، فصرنا نرى تغييرات وزارية باستمرار، وانتشرت الرشوة حتى صارت وكأنها شيء طبيعي، وأصبح المسسؤولون يجاهرون فيها علنا دون خجل أو وجل، وانتشرت الظاهرة في العساكر مما سبب استياء الرعية وتضجرها وهم بانتظار أن تضع الحرب أوزارها عسى أن يتم ما وعدوا به من إصلاحات .

* * *

ثم ينقل لنا العدد ما تناقلته الصحف الأوروبية من أخبار متناقضة عن موقف إنكلترا والنمسا من الحرب، فخبر هنا يقول عن حياد الدولتين، وخبر آخر يشير إلى تحالف كل منهما مع الباب العالي، وخبر ثالث يتحدث عن علاقتهما واتصالاتهما مع روسيا لترتيب الأمور معها، لكن المؤكد أن الطرفين بانتظار ما تسفر عنه نتائج الحرب، ليحدد موقفه بما يخدم مصالحه ومصالح أمته.

* * *

وتحت عنوان ((**مصر**)) ينقل العدد ما ذكر في ((الإنديبدانس))عن جريدة

((الوثيوثيوف)) التي نشرت مقالا سياسيا بعنوان ((**ملكة إنكلترا وإمبراطورية الهند وسلطانة مصر**)) جاء فيه أن المبعوثان الإنكليزي ((مجلس العموم البريطاني)) دعا لاجتماع طارئ لمناقشة ما قامت به الحكومة البريطانية من عرضها على السلطنة العثمانية بأن تشتري منها سيادتها على مصر بالمال، ومراسل الجريدة يؤكد بأن اتصالات تمت بهذا الخصوص بين الحكومة الإنكليزية والسلطنة العثمانية وخديوي مصر وقد تم الاتفاق فيما بينهم على الشروط والحدود وكمية النقود، والباعث على هذه الصفقة هو تخوف إنكلترا من امتداد الفتوحات الروسية، من آسيا والتي قد تمتد إلى أرمينيا، مما يجعلها مهددة لاتصال بريطانيا بالهند، لذلك ليس أمام المبعوثان الانكليزي إلا المصادقة على هذا الشراء لأنه أقل كلفة من القتال إلى جانب العثمانيين لطرد الروس من آسيا، وقد أثبتت الحكومة أن دفع النقود لجعل مصر تحت الإدارة الإنكليزية يأتي لها بفوائد كثيرة، وخاصة أنه يجعلها آمنة على أملاكها في الهند .

وتعلق الشهباء على هذا النبأ بأن جميع الجرائد تناقلته، حتى بعض صحف الأستانة أكدت النبأ ولم تكذب جرائد الحكومة النبأ، ولسنا ندري إن كان ذلك إهمالا أو تعمدا، فهذا الزمن زمن العجائب، ولا بد من الانتظار لنرى ما يخبئه الزمان .

وتحت عنوان ((**الحرب**)) ينقل لنا العدد بعض أخبارها المتضمنة لتقدم الروس، دون أن يواجهوا أي مقاومة تذكر من القوات العثمانية، وأنهم قد دخلوا البلقان من عدة معابر تخلى عنها الجنود العثمانيون خوفا من البرد، فاحتلها الروس ومنها دخلوا إلى المناطق الداخلية في جنوب البلقان، ونقلت بعض الأنباء أن العثمانيين تحصنوا في أدرنة وأغلقوا أبواب حصونها المنيعة في وجه العدو، وأنهم سيدافعون عنها بكل بأس إذا لزم الأمر.

و أما عساكر الجبل الأسود فقد تبين كذب إسلامهم، وأن كثرة بغيهم في ألبانيا أثار ضجر بين الأهالي مسلمين ومسيحيين، وهؤلاء الأهالي يتمنون انتهاء هذه الحرب بأي ثمن.

أما أخبار الحرب في الأناضول فهي تشير إلى أن ((باطوم)) مازالت تدافع بقوة مما يمني الأعداء بالخيبة، وإن شائعة سقوط ((أرض روم)) لم تثبت صحتها بعد، ولكن المؤكد

أن الروس قد أتموا حصارها في أوائل هذا الشهر، وأهالي المدينة لا يستغربون إمكانية سقوطها، ويشككون بإمكانية مقاومتها أكثر مما مضى، وهذا لا ينفي ضيق محاصروها بسبب عدم وجود الوقود وتعذروصول الإمدادات إليهم . هذا عن أخبار الحرب .

أما أخبار الهدنة والصلح، فلا يبدو أن هناك أي أمل بذلك، فروسيا لم تجب إنكلترا عما تريده من شروط الصلح، لكن روسيا قالت بأنها سوف تحدد شروطها بعد أن تخابر قائد قواتها في الروملي ((الغراندارك نيقولا)) وطلبت من إنكلترا أن تسأل الباب العالي عن شروطه للهدنة، وما دامت روسيا تتشدد في شروطها فإن وقت الصلح لم يأت بعد، ولا فائدة من إخبار القيادة بذلك، وقد ذكرت الشهباء في عدد سابق أن نامق باشا وسرور باشا ذهبا إلى ((كزانلك)) للمفاوضة مع ((الغراندوك)) على الهدنة، وحين وصلا وجدا ترحابا كبيرا وإكراما زائدا، وغالب الظن أنهما يتساهلان في الشروط تفاديا لاستمرار الحرب، ولكن يبدو أن غموض الموقف الروسي مرده انتظارها لمعرفة حقيقة موقف الدول الأوروبية، وروسيا تطرح مسألة السلم لترى ردود فعل الدول الأوروبية على ذلك، وهي في نفس الوقت تزيد تقدمها لتعزز موقفها النهائي، ويخولها لتوزيع الحصص في النهاية .

ونقلت كولونيا عن الجرائد الروسية أخبار انتصارات الروس في أرمينيا وبلغاريا، ونقلت عن ((الغولوب)) (٥١)، تصريحا للروس مفاده أن الجميع يعلمون أن اجتياز البلقان والزحف إلى ((أدرنة)) أصبح سهلا بعد سقوط ((بلفنا))، أما مربع القلاع فلا أهمية له سقط في أيدينا أو لم يسقط، فالأمر سيان، ولا خطر منه إن لم يسقط، وعساكرنا لا تلبث أن تجتاز البلقان وتزحف إلى أدرنة، ولولا غموض موقف إنكلترا من المسألة الشرقية، لأوضحنا عزمنا على تحرير مسيحيي البلقان، أما إذا تدخلت إنكلترا بإرسال بواخرها إلى البوسفور وعساكرها إلى الأستانة حينها سيرى العالم روسيا تزحف بخيلها ورجالها إلى أسوار الأستانة ليعلم الإنكليز أننا لا نهابهم، وينتج عن ذلك عواقب وخيمة على العثمانيين .

أما إذا لم تتدخل إنكلترا عسكريا حينها سيرى العالم روسيا بعد أن تستولي على ((باطوم)) و ((أرض روم))، وتحاصر ((أدرنة))، هي نفسها سوف تدعو الدول لتبليغ الباب العالي بالشروط التي تضمن راحة العثمانيين خاصة وراحة أوروبا عامة وفقا

لما جاء في لائحة برلين العادلة، مع بعض الزيادات التي جناها الباب العالي على نفسه، حين رفض قرار الدول أكثر من مرة، مما دفعنا للدخول في هذه الحرب التي تسببت في قتل أكثر من مئة ألف من عناصرها، وخسارة أكثر من [٨٠٠ مليون روبل] بالتالي لا يمكن أن تذهب هذه الخسائر سدى دون تعويض تقرره الأمة . والمتابع للجرائد المحلية يرى أن الأمة ترغب في الاستيلاء على أرمينية، لا أقل من ((مرسى باطوم)) والتوغل في أوروبا لإعادة ((بساربيا)) التي خسرناها (الروس) في حرب القرم وألحقت بالمملكتين، أما الصرب والجبل الأسود فيقرر مصيرهما باتفاق دولي.

ونقلت جريدة ((النورد)) عن البرنس ((كورتشاكوف)) أن الروس لا يرون في إعلان الباب العالي طلب توسط الدول ما يفيد أنه يجنح للسلم، لأن هذه هي رغبة روسيا، لكنه يقصد بإعلانه الميل للسلم إلى اجتذاب حلفاء جدد له، وهو واهم إن ظن أن إنكلترا وأوستريا (النمسا) تساعدانه على الحصول على صلح وفق القانون، لأن لتلك الدولتين رغبة في إلزام الباب العالي لتحسين أحوال المسيحيين في الولايات الشمالية وأوروبا، وبالتالي لن تنطلي عليهما خدعة الباب العالي، بالتالي فهو لن ينجح في مسعاه هذا، كما لم ينجح في مسعاه منذ سنة ونصف حين حاول أن يغير خارطة أوروبا.

وتحت عنوان ((**كريت**)) ينقل لنا العدد ما ورد في كولونيا من أن جميع مسلمي جزيرة كريت قد لجأوا إلى القلاع ، والحكومة فيها من نوع الإدارة العسكرية، وأن ((سامح باشا)) فشل في إخماد العصيان فيها وعاد إلى الأستانة، وزعماء المتمردين مستاءون من معاملة اليونان لهم، فبدؤوا يميلون إلى بريطانيا وهم يبدون رغبتهم في الاستقلال تحت الحماية البريطانية بدل اليونان، وهم يبحثون في إقامة حكومة مؤقتة، وقد نشرت التايمز رسالة من مراسلها في كريت يوضح فيها أسباب ميل أهل الجزيرة لحماية إنكلترا دون اليونان، ومن جملة ما ذكره : خيانة اليونان لهم سابقا، واليونان ليس لها سوى بارجة واحدة لا تستطيع حماية شواطئهم الواسعة من اعتداءات الأسطول التركي، كما أن القوة العسكرية اليونانية لا تزيد عن [٥٠،٠٠٠] في أحسن حالاتها، لهذا فهم يميلون إلى الحماية البريطانية، كما فعل اليونان أنفسهم حين استقلالهم .

*　　*　　*

وتحت عنوان ((**مذاكرة مجلس المبعوثان**)) ينقل لنا العدد بعض المناقشات التي دارت داخل مجلس المبعوثان، فقد حمل بعض أعضاء المجلس الوزراء مسؤولية الواقع المتردي، بينما اعترض آخرون على ذلك، فقال ((صادق باشا)) أنه يجب عدم التصريح بذلك في الوقت الراهن لأن الباب العالي يجري محادثات هامة مع إنكلترا والنمسا وهنغاريا، وإذا ما أصر المجلس على تحميل الوزراء المسؤولية، فقد يستقيل الوزراء وهذا يزيد الوضع ارتباكا، والأفضل هو أن نستدعي الوزراء إلى المجلس ونسائلهم .

وناقش المجلس مسألة انضمام المسيحيين للخدمة العسكرية، ولم يستقروا على رأي في ذلك، وفي جلسة يوم الخميس تحدث ((**أمين أفندي يكي شهرلي زادة**)) مندوب أزمير، وبعد أن ذكر الأسباب التي دعت للحرب، قال إن الوالي المعظم قد صرح العام الماضي أنه يوجد تحت الخدمة العسكرية [٦٠٠،٠٠٠ عنصر]، وقد طلبت المعونات والمصاريف التي تكفي لهذا العدد، علما أن ((عبد الكريم باشا)) قد صرح أنه لم يكن تحت أمرته في الرملي أكثر من [١٧٠ طابورا] وعدد عساكر الأناضول لا يتجاوز ال [١٤٠ طابورا]، أي أن عدد أفراد الخدمة العسكرية يتراوح بين[٧٤،٤٠٠ و ٣١٠،٠٠٠] فأين هم بقية ال [٦٠٠،٠٠٠] وأين ذهبت مصاريفهم ؟ !

ولماذا أرسلت الدولة جيشا إلى ((صخوم قلعة)) دون مشاورة مجلس المبعوثان؟ ومن الذي تدخل في الشؤون العسكرية حين كانت قيادة الجيش تحت إمرة ((عبد الكريم باشا))؟ ومن هم الذين تعهدوا بحماية طرق البلقان ولم ينجزوا وعدهم ؟ ولماذا لم ترسل إمدادات عسكرية إلى بلفنة والأناضول؟ (٥٢) وإذا كانت ألبسة العساكر السلطانية مناطة بالأمة فلماذا لم يعلن عن ذلك قبل دخول الشتاء ؟ ولماذا لم ترسل البواخر المدرعة إلى ((الأساكل)) لنقل الجنود الذين ينتظرونها هناك ؟ ولماذا لا تتم حماية البواخر التجارية في البحر الأسود ؟ ولماذا لم يحاسب ويعاقب المسؤولون عن حادثة ((أردهان)) ؟

ثم تليت مذكرة من الصدر الأعظم يطلب فيها مبلغ [٣،٠٠٠،٠٠٠ قرش] لإعانة المهاجرين، فاعترض كثير من الأعضاء في المجلس على هذا القرض لأن هناك مبلغ [١٥،٠٠٠،٠٠٠ ليرة] مخصصات العام الماضي لا يعرف أين وكيف صرفت .

ثم تليت مذكرة أخرى من الصدر الأعظم يتم بموجبها استدعاء قائد البحرية إلى المجلس يوم السبت وسؤاله عن مشكلة الباخرة ((مارسين)) واستيلاء الروس عليها، وفي الموعد المحدد حضر ((سعيد باشا)) قائد البحرية إلى المجلس، و بادأه ((نافع أفندي)) مندوب حلب بسؤاله عن إطلاق الروس مدفعيتهم على البحر الأسود، وعن استيلاء الروس على الباخرة مارسين، وأن هذا يلحق العار بسلاح البحرية، خاصة وأن قائدي الباخرة الأول والثاني هما من الصقالبة، ويمكن أن يكونا قد سلما الباخرة بفعل خياني، والأمة التي صرفت ملايين الليرات لشراء البواخر والبوارج من حقها أن تعرف مصيرها .

فأجاب سعيد باشا : على المجلس أن يعلم أنه ليس لدى الدولة سوى [١٢ بارجة] لحماية شواطئها الممتدة من باخوم إلى بحر الأدرياتيك حتى جزيرة ((فولو)) و((أنتوري)) وأماكن أخرى يجب حمايتها، ولا يجب أن لا ننسى الجهود الكبيرة التي بذلتها القوات البحرية في هذه الحرب، فقد قامت بنقل [٥٠،٠٠٠ جركسي و ٤،٠٠٠،٠٠٠ قنطار من الفحم] من ((صخوم قلعة))، أما مشكلة الباخرة مارسين فلا أهمية لها لأنها تعتبر من حالات القرصنة البحرية، وقد ذكر لنا التاريخ حوادث مشابهة جرت في أمريكا، فقد كانت الباخرة ((ألاباما)) التابعة لبحرية أمريكا الجنوبية تخترق دائما أسطول وبوارج أمريكا الشمالية .

وبعد مناقشات عديدة لم يقتنع المجلس بتبريرات قائد البحرية، وطلبوا الإجابة بشكل رسمي عن ثلاثة مسائل هي :

١ – كيف كان استيلاء الروس على هذه الباخرة، ومن هو المسؤول عن هذه القضية؟

٢ – لماذا لم تتم حماية البحر الأسود حماية تامة ؟

٣ – وهل الوزارة مسؤولة عن ذلك أم لا ؟

* * *

وفي هذا العدد تنقل الشهباء عن الإنديبدانس أن مساحة المستعمرات البريطانية في الهند يبلغ [٩٠٩،٣٣٤] وفيها من السكان [١٩١،٠٦٥،٤٤٥] مقسمين إلى

[١٣٩،٣٤٣،٨٢٠ مجوس] (٥٣) و [٤٠،٨٦٧،١٢٥ من المسلمين] و [١،١١٤،٤٣٦ سيخوس] (٥٤) و [٨٩٧،٦٨٢ مسيحيون غرباء] و [٥،٤١٧،٣٠٤ مسيحيون أهليون] و [٢،٨٣٢،٨٥١ بوزية] (٥٥)، و [٥،٥٥٢،٢٢٧ كفرة] .

هذه قيمة المستعمرات البريطانية، أما الأجزاء المحررة بما فيها المستعمرات الفرنسية والبرتغالية، فمساحتها [٥٧٣،٠٥٢ ميل] وعدد سكانها [٤٨،٢٣٣،٩٨٧ نسمة] بالتالي تكون مساحة الهند [١،٤٨٤،١٥٠ ميلا مربعا]، وعدد السكان [٢٣٩،٩٧٨،٥٩٥ نسمة].

* * *

وتحت عنوان أخبار محلية ينقل العدد الأمر السامي الذي نشرته جريدة الفرات، والذي يقضي بمنع طبع ونشر الكتب والرسائل المخلة بالآداب، أو التي تعارض فكر الحكومة، كما ينوه إلى أنه يجب الانتباه لعدم تهريب هذه الأشياء من خارج الوطن حرصا على أخلاق الناس .

كما ينقل العدد ما ورد في جريدة الجنة عن أبناء الشغب التي قام فيها [٣٠ شخص] من إدلب يسكنون ((ترسوس)) ضد شهبندر إيران فيها، والشهباء تقف إلى جانب المواطنين ضد الشهبندر، وتذكر بالدور القذر الذي يلعبه الإيرانيون في ترسوس وشرههم للعدوان وأنهم حيث حلوا يحدثون الفتن ويسلبون راحة الأهالي، ناهيك عن فتنهم السابقة في الأستانة مع العساكر السلطانية وفتنتهم في المدينة المنورة وشرورهم الدائمة في مراكز قنصلياتهم الكبيرة، مما أعيا الحكومة والأهالي، ولا أحد يتجاهل دور هؤلاء الإيرانيين القذر في الأستانة وطرابزون وبغداد وترسوس وحلب والشام إلى غير هذه المدن، ولو أردنا التفصيل في ممارساتهم السيئة لضاق بنا المقام، وهذا الشهبندر الإيراني يستعين على هؤلاء المواطنين المساكين بأعوانه من أشقياء النصيرية الملتجئين إليها من سواحل أنطاكية وجبال اللاذقية .

((كم أنت رائع يا كواكبي ، لست ادري إن كنت تنقل لنا في شهبائك ، أخبار أيامك أم أخبار أيامنا هذه)).

وينتهي العدد بنشر أسعار العملات الدارجة وأسعار البضائع المتوفرة .

* * * *

العدد الحادي عشر: (٥٦)

صدرهذا العدد بتاريخ [٢٧ / محرم / ١٢٩٥ هج – الموافق ١٩ و٣١/ك٢ / ١٨٧٨م].

كان مقال الافتتاحية تحت عنوان ((**الأحوال الحاضرة**)) :

وأولى الأخباركانت عن الهدنة التي عقدت بين مندوبي الدولة والكراندوق ((نيقولا)) ولكن لا أحد يعرف تفاصيل الهدنة حتى الآن، لكن يبدو أن هذه الهدنة مبنية على شروط الصلح، وقد اتفق على معظم الشروط، وبقي ما يحتاج منها إلى توسط الدول أصحاب المصلحة مثل إنكلترا والنمسا، ويعتقد أن ما تم الاتفاق عليه هو استقلال دول البلقان التام، أو رفع الخراج عنهم مع بقائهم تحت سيادة الباب العالي شكلا، ولكن الشكل النهائي للصلح لم يتضح بعد، والأفضل عدم الخوض في التخمينات .

أما أخبار الحرب، على الرغم من عدم أهميتها بعد عقد الهدنة، لكنها ذات أهمية من حيث ترتيب شروط الصلح، فالأخبار الأخيرة تفيد أن القوات الروسية بعد أن اجتازت البلقان من ثلاثة أو أربعة مداخل، أخلت القوات السلطانية باقي المعابر عدا معبر ((دمرقبو)) فحل فيها الروس، والفرقة الأولى التي اجتازت من جهة ((أوتروبل)) زحفت على ((تتربزارجك)) وبعد قتال عنيف، غادرها السلطان ((سليمان باشا)) مع أغلب جيشه ولجأ إلى ((فيلبة))، كما أن الفرقة الثانية التي دخلت من ناحية ((بوغاز سيبكة)) وأسرت [٤٢ طابورا] زحفت إلى ((فيلبة)) وهاجمت سليمان باشا الملتجئ إليها، وأجبرته على مغادرتها واللحاق ((ببرغوس)) ومنها إلى ((أدرنة))، وفي [١٤ من الشهر الجاري] نزلت فرقة روسية في الجهة الغربية من ((أدرنة)) في مركز يبعد عن آخر استحكامات المدينة مسافة [٦ ساعات]، وهناك بدأت القوات الروسية بالتجمع ولحق بهم ابن القيصر وفي [١٨ الشهر] زحف بجيشه إلى أدرنة، وهذا ما دفع بإنكلترا لإرسال بواخرها إلى ميناء القسطنطينية لحمايتها بالاتفاق مع الباب العالي، لكن نجاح أخبار الهدنة الناجم عن تساهل الدولة بشروطها، دفع إنكلترا لسحب بواخرها وإعادة هذه البواخر إلى ((غانبولي)).

ويعلق صاحب الشهباء بأن نتائج الحرب مازالت مجهولة، وخلال طباعة هذا العدد من الشهباء وصل بريد الأستانة، ليعلن استيلاء الروس على ((أدرنة))، بالتالي يمكن

تلخيص آخر الأخبار بأنه بعد استيلاء الصرب على ((نيش)) وأسرهم خمسة آلاف من العساكر السلطانية زحفوا إلى ((صوفيا)) ومنها إلى ((فسوى))، والجيش الروسي الذي استولى على ((تتربازارجق)) ثم ((فيلبة)) ومنها زحف إلى ((أدرنة)) التي غادرها محافظها ((جميل باشا)) بعد أن أحرق سراية الحكومة فيها، فدخلها الروس تحت قيادة ابن القيصر، وذكرت جرائد الأستانة أنه لم يكن موجودا في أدرنة أكثر من خمسة آلاف جندي ليحرسوها، علما أنهم كانوا يقولون أن فيها [١٥٠ ألف]، وبعد أن استولوا على ((كليا و بورغاس))(٥٧) (مينة (٥٨)على البحر الأسود) فلم يبق بينهم وبين الأستانة إلا خط دفاعي واحد في ((جتالجة))، لذا فأهل الأستانة في حالة اضطراب، و ناد المنادون في المنارات والمساجد يحثون الناس للتطوع دفاعا عن المدينة.

وقالت الجوائب تعليقا عما يحصل: إذا كانت أدرنة التي بذل الكثير للدفاع عنها هذه هي حالها، فكيف هي حال جتالجة ؟ ! وبعد ما حصل في ادرنة لم يعد أحد يصدق كلمة مما تقوله نظارة الحربية ((وزارة الدفاع)) ولابد من محاسبة المسؤولين عما يحصل بعد انتهاء الحرب، وأما الأستانة فهي في غاية الاضطراب وقد غادرها الكثيرون خوفا، ولكن ينصح بعدم مغادرتها لأنه أأمن ولأن وقت الصلح قد اقترب .

* * *

ونقرأ في هذا العدد حديث السلطان لمراسل ((**الدالي تلغراف**)) (٥٩)

جاء فيه أن السلطان ينتظر جواب الحكومة الروسية بشأن الوساطة الإنكليزية، وقد ثمن السلطان عاليا جهود إنكلترا المبذولة لإجراء الصلح، وقد صرح السلطان أن الصلح غاية ما يتمنى شرط ألا يمس الصلح بهيبة الدولة وبمصالحها، هذا وقد أثنى السلطان على الملكة فكتوريا خلقا وسلوكا وموقفا، وأن على ملوك الأرض أن يقتدوا فيها ويتخذوها مثالا لهم، كما أثنى على البارونة ((بوردت كوتس)) وعلى الجمعية الخيرية المتشكلة لمساعدة المصابين العثمانيين وعلى جميع المشاركين في الأعمال الخيرية لمساعدة المنكوبين جراء الهجوم الروسي الوحشي. ثم تحدث السلطان عن الحرب وأثنى على الجهود التي بذلها الجيش من البسالة والصبر، كما أثنى على القوة والعزيمة التي تحلى بها الروس دفاعا عن أمتهم .

ويعقب المراسل أنه اتضح لي من هذا الحديث أن الأستانة عامة والحكومة خاصة تعتمد على شرف إنكلترا وتثق بعدالتها .

*　　*　　*

وتحت عنوان ((**خطاب ملكة إنكلترا**)) (٦٠)، ينقل لنا العدد ما نشرته جرائد بيروت من الرسالة الموجهة إلى سفير إنكلترا في بيروت فيما يخص المسألة الشرقية الذي ورد في خطاب الملكة أمام مجلس العموم البريطاني، وملخص ما قالته الملكة : ((كان بودي أن نجتمع منذ مدة لتداول الرأي حول ما يجري في شرقي أوروبا وأرمينيا، ولكن حالت الظروف العامة دون ذلك، ولا يخفى عليكم أني بذلت جهدا كبيرا لمنع تلك الحرب، لكن ذلك الجهد ذهب سدا، أخذت موقف الحياد متأسفة لما يحصل، وإني لأغتنم كل فرصة لإجراء تسوية سلمية بين الدول المتحاربة، وبعد انتصار الروس هذا النصر الباهر في أوروبا وآسيا، رأى الباب العالي أنه يجب الحيلولة دون استمرار هذه الحرب التي كلفته الكثير، فدعا دول أوروبا للتوسط دون ذلك، وحين لم تعره هذه الدول انتباها لجأ إلى حكومتنا وحدها، فبادرت بالسؤال لإمبراطور روسيا رأيه في إنهاء تلك الحرب، فأجاب أنه يتمنى ذلك من كل قلبه، وتمت مباحثات بين الطرفين بهذا الخصوص، وكلي أمل أن يتوصل الطرفان لنهاية هذا النزاع على أن لا تمس الأسباب التي دعت لحيادنا)) .

*　　*　　*

وتحت عنوان ((**إنكلترا**)) نقلت الشهباء في هذا العدد عن ((الإنديبنداس)) أن الحرب الشرقية قد بلغت نهايتها، لكن هذه النهاية غير واضحة المعالم ولا يعلم منها سوى أن روسيا المنتصرة تتابع فوزها غير عابئة بمصالح أوروبا، والعثمانيون عازمون على الدفاع حتى النهاية . ويبدو أن ألمانيا والنمسا عازمتان على ترك العثمانيين وروسيا وشأنهما، معتقدين أن روسيا لن تمس مصالحهما، أما سياسة بريطانيا فغامضة، فيبدو أنها لا تثق بوعود روسيا، وقد بقيت على الحياد حتى اللحظة التي أحست فيها أن مصالحها وسمعتها في أوروبا مهددة، وبالتالي فهي لن تقبل أن تختم المسألة الشرقية بمعزل عنها، لأن مصالحها غير مصالح بقية الدول الأوروبية، واستيلاء الروس على تركية الأوروبية قد لا يهدد مصالحها، بعكس القسم الآسيوي، كما أن حرية المرور في

البوسفور يهم إنكلترا كثيرا، لأن قوة إنكلترا تكمن في نقطتين هما : قوتها البحرية وثروتها المالية ، ولا يبعد أن تتفوق عليها روسيا . هذه الملاحظات لا تغيب عن ذهن إنكلترا، لكن يبدو أن ميلها للسلم منذ قرون، يتقدم على نظرتها للمستقبل .

* * *

وتحت عنوان ((**أوستريا**)) (النمسا) نقرأ :

هذه الدولة مازالت على سياسة واحدة، فبعد أن أعلنت حيادها في المسألة الشرقية، واشترطت عدم اشتراك رومانيا وصربيا في الحرب، فلما أعلنت الأولى استقلالها وانضمامها لروسيا، لم تجر النمسا شيئا، وأعلنت أن ذلك لا يضر بمصالحها، وقالت لكن إذا اشتركت صربيا فسوف لن نسكت، ولكن حين اشتركت صربيا لم تحرك النمسا ساكنا، فانقسم المواطنون فيها إلى ثلاثة أقسام((سلاف وهنكاروألمان)) ولكل منها ميوله، فلجأت الحكومة إلى سياسة الملاطفة والتملق، فأرضت الجميع .

* * *

وعن ((**الأسرى العثمانيين**)) تنقل الشهباء عن ((الليفانت هرالد)) ما ذكرته جرائد رومانيا من أن [١٤ ألف أسير عثماني] مازالوا في بلغاريا، بسبب انقطاع المواصلات، وهم جميعا فريسة المرض بسبب البرد والصقيع ولا يمكن مداواتهم بسبب كثرة الأمطار والثلوج وانقطاع الطرق والمواصلات .

وذكرت ((كولونيا)) عن مراسلها في الأستانة أن الحزب السلمي ((أنصار السلام)) في الأستانة قد زادوا كثيرا لدرجة أنهم أصبحوا أغلبية، خاصة بعد أن جاءهم الرد من بقية الدول بعدم التدخل مما يخفف عن الدولة أعباء الشروط الروسية.

وبالمقابل فإننا نجد في الأستانة أيضا رجالا آخرين مازالوا على غرورهم، غرور النمر في بلوغ القمر، وآخرين يثقون بأوروبا وبأنها ستساعدهم حين الحاجة، وهناك من يعتقد أن روسيا أرأف بهم من أوروبا، وحين اللزوم سوف يحتمون فيها، ويمكنوها من إدخال أسطولها إلى البحر المتوسط، بل ويساعدوها على تحقيق غاياتها، مفضلين ذلك على حماية أوروبا الوهمية، لأن باعتقادهم أن روسيا دولة قوية تحافظ على مصالحها

ومصالح حلفائها، وهي تسيطر على زمام السياسة منذ سنة سبعين، ويهابها الجميع في أوروبا وآسيا، واللجوء إليها أفضل من مقاومتها اعتمادا على الدول الغربية المترفة .

* * *

وتحت عنوان ((**فرنسا وبروسيا**)) تنقل لنا الشهباء ما ذكرته الجرائد نقلا عن البريس من أن ألمانيا تنوي توسيع أملاكها من جهة هولندا وأوقيانوسيا، وهم يعتبرون هذا التوسع مهما لرفع الحصار عنهم، ومما قالته البريس أن بلجيكا تنوي اقتسام هولندا مع ألمانيا وأنه على فرنسا أن لا تتذمر من هذا الاقتسام، لأن ذلك لا يضر بمصالح فرنسا، ولكن يمكن أن يضر بمصالح إنكلترا، لأنه في هذه الحالة لا يبقى بين إنكلترا وألمانيا من حاجز إذا اتسعت ثغور ألمانيا على شواطئ هولندا وأصبحت ثغورهما وشواطئهما مشتركة، وهذا يضر بإنكلترا برا وبحرا، وسوف تنازعها ألمانيا سيطرتها على البحر، فليس على فرنسا أن تقلق بل عليها أن تدع ألمانيا وإنكلترا وشأنهما .

* * *

وتحت عنوان ((**مفاوضة الصدر الأعظم مع مكاتب التلغراف**)) تنشر الشهباء رسالة من مراسل التلغراف بتاريخ [٣١ ديسمبر]، جاء فيها، تشرفت الليلة الماضية بحديث مع الصدر الأعظم قال لي فيه

- من ناحية ميناء ((باطوم)) فإن الدولة العثمانية ومنذ سنتين كانت تفكر بأن تجعله ميناء دوليا لكل الدول، وسينظر في هذه القضية بعد أيام قليلة، وهذا يعود بالفائدة على الروس، بالتالي تكون مشكلة هذا الميناء قد حلت .

- أما من ناحية ((البوغازين)) فمولانا السلطان يرى أن طلب روسيا يمس إنكلترا أكثر مما يهم الباب العالي، فإذا استجابت حكومة مولانا السلطان لطلب روسيا فإن حكومة السلطان لا تخسر كثيرا والخاسر الأكبر في هذه الحالة هو إنكلترا، بالتالي لا يجب أن تترك الحكومة العثمانية وحيدة في مواجهة الروس، وعلى إنكلترا أن تشارك في الدفاع عن مصالحها، وليست المسألة بالسماح للبواخر التجارية الروسية بالمرور في هذين الميناءين لأن هذين الميناءين مفتوحين للتجار الروس كما هما مفتوحان لغيرهم،

بل المسألة الأهم هو هل ترضى إنكلترا أن ترى البواخر الروسية الكثيرة تسير في البحر المتوسط دون عائق، بالتالي فهي في حال أي اضطراب سوف تستولي على خليج السويس وتمنع المرور فيه، بالتالي تسد الطريق الموصلة إلى الهند، وهذا الجانب يهم بريطانيا أكثر مما يهم الدولة العثمانية .

- وقال الصدر الأعظم : بخصوص الجبل الأسود، فقد كان بنية الباب العالي التساهل معه ومنحه بعض الأراضي، وما منعنا من تنفيذ هذه الخطوة هو الدول الأخرى التي لا تريد للجبل الأسود ميناء على البحر، أما الصرب فلا يمكن مسامحتهم عما اقترفوه من دناءة وتمردهم مرتين، وأنه يجب على الدول الأوروبية محاسبتهم على هذا السلوك الدنيء، أما من ناحية رومانيا فإن طلبها للاستقلال مخالف للقانون ويجب إحالة هذه القضية إلى المجلس الأوروبي، ومن جهة البلغار فإنه يمكن قبول شروط المؤتمر الذي عقد لهذه القضية، تحت شروط وضمانات مناسبة .

هذا مجمل ما دار بيني وبين الصدر الأعظم، ومنها يتضح أنه آن الأوان لأن تشترك بريطانيا في الدفاع عن مصالحها ومصالح الدولة العثمانية .

الوطن (٦١)

* * *

وتحت عنوان ((**مجلس المبعوثان**)) ينقل العدد عن الليفانت، أن مناقشات الأعضاء في المجلس تتم بحرية كاملة، وهذا يبشر بدخول الأمة في عهد جديد يسود فيه القانون، وهو ينوه أن الانتقادات الحادة للوزراء في مثل هذه الظروف الصعبة يربكهم ويؤثر على أدائهم، وهذا ما لا يجب أن يحدث الآن .

والصحف التركية تحدثت عن انقسام النواب إلى فريقين، الأول محافظ والثاني مقاوم، ويبدو من لهجة هذه الصحف أنها تميل إلى الفريق المقاوم، المعروف في أوروبا باليساري، وهم مستفيدون من حرية الصحافة المتوفرة، ولا احد ينكر إخلاص هذه الجرائد ووطنيتها، لكن النقد يجب أن يتم بالتدريج، لأن الأمة غير مستعدة لتحمل عبء حرية التعبير في هذه لظروف.

ثم ينقل لنا العدد نبأ تلقي ولي العهد الإيطالي خبروفاة الملك وهو على تخوم بيروت، فبقي في الباخرة يتلقى التعازي لليوم التالي، ثم أفل راجعا إلى بلاده ليتسلم مهامه كملك.

- ونقرأ في هذا العدد أيضا نبأ عن إبعاد [١٧٠ بلغاري] من الأستانة إلى عكا، فنزلوا خطأ في بيروت، حاولت الحكومة إرسالهم إلى حيفا في نفس الباخرة، فلم يتثن لها ذلك، فأرسلتهم برا عن طريق صيدا، فتوفي منهم ثلاثة، قامت الحكومة اللبنانية بترتيبهم ودفنهم حسب الأصول الواجبة.

- وتحت عنوان ((الأماكن المقدسة)) ينقل العدد ما جاء من لندن أن ((كورتشاكوف)) يطالب بتملك ((أورشليم)) (٦٢)، بمعزل عن باقي الدول، وقد صرحت ملكة إنكلترا أنها ستقاوم هذا الأمر بالقوة حتى لو تساهل الباب العالي بذلك، وقد علقت جريدة ((صوت الحق)) على هذا النبأ بأنه ليس مستغربا ذلك من روسيا التي تدعي دفاعها عن مسيحيي الشرق، وقد كانت فرنسا سابقا تدعي هذا الشرف، إلا أنه بعد قيام ثورتها، لم تعد تدعي مثل هذا الشرف .

- وتحت عنوان ((إنكلترا ومصر)) ينقل لنا العدد عن مراسل ((صوت الحق))، أن إنكلترا لا تريد سوى السيطرة على مصر، ولكن دون ذلك مصاعب كثيرة، منها تنافس فرنسا وإنكلترا على ذلك، وإذا ما استولت روسيا على ((أرض روم)) فيسهل لها عند ذلك السيطرة على مصر وهذا يحتم على إنكلترا الدفاع عنها.

- أما تحت عنوان ((ألمانيا)) فقد ذكر العدد أن الجنرالات الألمان يرون أن إنكلترا غير جادة في الدفاع عن مصالحها، بل جل قصدها هو أن تدفع روسيا والنمسا وألمانيا لعقد مؤتمر صلح، وغاية ما تهدف إليه إنكلترا هو إبقاء الباب العالي في الأستانة، وإبقاء وادي الفرات بأيدي العثمانيين، وهذين الأمرين لا يهمان الروس كثيرا. وإنكلترا لا تستطيع منع البلغار من الاستقلال، خصوصا بعد ما أشيع عن إصرار رومانيا وبلغاريا على الاستقلال، وغاية روسيا الضغط على الأستانة من جهة أوروبا، وإذا ما فتح مضيق الدردنيل والبوسفور لمرور مراكب كل العالم مع تخويل الباب العالي السيطرة عليها والسماح لمن تريد وعدم السماح لمن لا تريد بالمرور، في هذه الحالة يعتبر الممران محرران، حينها ينقطع أمل روسيا بالسيطرة على الأستانة، وبهذه الطريقة تحل روسيا مشكلة الصقالبة

بحيث يكون للصرب والبوسنة إدارة مستقلة، ويكونان تابعين للنمسا، أما إذا لم يرض الباب العالي بحل المسألة الشرقية بهذه الطريقة، حينها تقوم اليونان التابعة للحكومة العثمانية بالثورة والعصيان، وتصبح المسألة معضلة يتعذر حلها.

وتحت عنوان ((**الأخبار المحلية**)) ينقل لنا العدد نبأ عن انتشار الكولورين (٦٣) = (الكوليرا) بين الحجاج، وأمر الخديوي بإجراء الكرنتينا (٦٤) عليهم في جدة لمدة [١٨ يوم]، وفي رسالة من القنصل الفرنسي في جدة إلى نظيره في حلب، جاء فيها أن الداء ظهر في عدد قليل من الأفراد برئ معظمهم، وأن عدد الذين أدخلوا إلى الكرانتينا [٥٠ ألفا] .

وفي خبر آخر أن سبب الكارانتينا هو انتشار التيفوس بين بعض الهنود، ولم يتعداهم لغيرهم، وفي الجرائد المصرية أن التقارير الواردة من مكة المكرمة تفيد أنه في الشهر الماضي أصيب بالكوليرا [٢٢ حاج توفي منهم ١٣ وشفي الباقي] وان مصدر ذلك هطول الأمطار الغزيرة وتشكل المستنقعات والازدحام الشديد هو ما أدى إلى انتشار هذا الوباء، والحكومة المصرية أمرت بالحجر الصحي مدة عشرة أيام على القادمين من الحج.

وفي نبأ عن القرعة في حلب، كان عددها [٧٠٠ نفر أخذ منهم ٦٦٩ عسكريا] وتمت القرعة بشكل نظامي وبأسرع ما يمكن لأن الوالي كان يشرف عليها بنفسه .

وفي نبأ سابق عن مشاكل البريد بين حلب واسكندرونة، كان الجميع يطالب بنزع البريد من مسؤولي البريد العثمانيين وتكليف أناس مختصين للقيام بهذه المهمة، وقد جاءت الموافقة بذلك.

كما ينقل لنا العدد نبأ عن ظهور الأمراض بين البقر، وأنه قد كثر تناول لحم البقر بين المواطنين في حلب في المدة الأخيرة، وتناول الناس للحم البقر المريض يمرضهم، لذلك يجب الانتباه وتوخي الحذر.

وينتهي العدد بعرض سعر العملات المتداولة، وأسعار بعض البضائع في الأسواق .

*　　　*　　　*

صحيفة ((**اعتدال**))

تصدر يوم الأربعاء من كل أسبوع

العدد الأول (٦٥)

صدر العدد بتاريخ [٥ / شعبان / ١٢٩٦ هج – الموافق ١٣ و ٢٥ تموز / ١٨٧٩ م]

تحت عنوان ((**اعتدال صحيفة سياسية متنوعة الحوادث**)) كتب الكواكبي افتتاحية العدد الأول لجريدته الجديدة، يوضح فيها أسباب إنشاء هذه الجريدة، بعد أن تم إغلاق جريدة الشهباء ومصادرة ممتلكاتها، جاء فيها : نحن مقتنعون تماما بأنه لا يوجد أفضل من الصحافة وسيلة لكي نخدم فيها أمتنا، وهذا ما دفعنا لإصدار جريدة الشهباء التي قامت بمهمتها خير قيام، وحازت على رضا وقبول المواطنين، لكن القمع الذي تعرضت له من الوالي ((كامل باشا))، أدى إلى إغلاقها ثلاث مرات(٦٦)، ولا داعي لذكر أسباب هذا التعدي على الجريدة، لأن من اعتدى عليها مازال يتمتع بالسطوة والقوة، ولكن ماذا سيجيب لو سئل في محكمة الإنسانية عن أسباب قمعه للجريدة، وما تبع ذلك من أضرار مادية ومعنوية لأصحابها، وهل من جواب له سوى أنه عدو للحرية .

أما الشهباء التي علم الناس براءتها وإخلاصها، فقد قيض الله لها من يعرف قيمتها ويدافع عنها أمثال سمو الوالي ((غالب باشا)) ونائبه ((مظهر باشا)) فقد شملاها برعاية نسيت معها مصابها الأول، ولله درهما على فعلهما الذي يستحق الثناء، لأن الأشياء تعرف بضدها، حيث أن كامل باشا في التعطيل الثالث والأخير أمر بحجز المطبعة، ولم يعترف بقرار المحكمة الابتدائية التي حكمت للشهباء بالبراءة، ولم يصدق على قرار البراءة الذي أصدرته محكمة الاستئناف، واستبد برأيه في تعطيل الجريدة بصورة غريبة، أما حضرة دولتلو ((مظهر باشا)) فإنه ومنذ تسلمه لمنصبه يسعى لتحريرها وحمايتها، مصرحا بأنه يرحب بكل نقد موضوعي تقدمه الجريدة لأي نقص وأي عيب.

هذا ولاشك أننا نرحب بمزيد من البهجة والسرور، بهذه المنحة الجليلة من حرية التعبير، ولما كانت الظروف لا تسمح لأن تقوم الشهباء بهذه المهمة، فقد قمنا بإنشاء

جريدة الاعتدال لتحل مكانها، وهي نفس الشهباء بخطها وتوجهها، تأخذ على عاتقها نشر الحسنات، والتنويه عن السيئات، لتصل إلى أذان أولي الأمر، ونشر كل ما يهذب الأخلاق وينمي المعرفة من أبحاث علمية وسياسية .

والاعتدال مصممة على الاعتدال في منهجها وأسلوبها، وهي ترحب بأي نقد يتطرق لنواقصها، وستعمل على تدارك هذه النواقص، ونأمل أن تحوز على رضا الجميع، راجين من الله التوفيق.

وبما أن أكثر من نصف الأهالي أتراك، لذلك ارتأينا أن تصدر الجريدة باللغتين العربية والتركية بناء على رغبة المحبين، كان بودنا أن تصدر الجريدة بنسختين عربية وأخرى تركية أسبوعيا، لكن لم تساعدنا الظروف على ذلك، فقررنا أن نصدر النسخة الواحدة بلغتين، دون التخلي عن وعدنا بإصدار نسختين حين تتوفر لنا الظروف.

*   *   *

ثم ينقل لنا العدد بعض أخبار المراسلين من مدن وعواصم العالم، ثم نقرأ في العدد مقالة تحت عنوان ((**لجنة الإصلاحات العمومية**)) جاء فيها : نحن أحوج ما نكون إلى الإصلاح، ويعرف الإصلاح بالمفهوم السياسي أنه إزالة المفاسد، وإكمال النواقص، وتنظيم الإدارة، بهدف تحقيق المصلحة العامة، وهذا ما يهدف إليه الجميع .

من هنا يجب الاهتمام بلجنة الإصلاحات، ومهمتها حسب الفرمان السلطاني، معاينة الإدارة الحكومية الحالية، والبحث في نواقصها وأسباب عجزها، ثم تحري وسائل إصلاحها وإصدار القرارات اللازمة لذلك، ونحن نناشد أعضاء هذه اللجنة ونقول لهم، إنكم نواب من جميع الناس وأنتم تمثلون خمس مئة ألف إنسان، وقد أنابوكم لكي تحققوا مصالحهم، وقد وثقوا بأمانتكم، فاشكروهم على هذه الثقة بالبحث والتفكر في إصلاح أحوالهم وتحقيق آمالهم، فاتحدوا وتعاونوا لتحقيق هذا الهدف النبيل، وإياكم أن تختلفوا فتعودوا بالخيبة وتخسروا هذه الثقة، وهذا لاشك خسران كبير، لأن المجد والشرف الإنساني صفات مكتسبة، يعترف بها البعض للبعض، والعاقل هو من يحوز على هذه الفضائل ثم يدعو الناس للاعتراف بها. أما وظيفة هذه اللجنة فهي، تنظيم الإدارة، وإشاعة المعرفة، فتح الطرق، وترقي الزراعة، وإصلاح القضاء، وإذا ما وفقت

اللجنة في هذه المهمة، فإن أسماء أعضائها سيكتب في سجل الخالدين .

ولعل أهم المطالب التي قدمت لهذه اللجنة وأكثرها شمولا هي التي تقدم بها ((ناهد أفندي باشا)) مدير البريد في حلب، وهي كاملة وشاملة لكافة النواقص، فله كل الشكر على اهتمامه بمصالح بلده وغيرته عليها، ولعل أهم المسائل التي تم حولها النقاش، مسألة جباية الأعشار بحيث يتم تحصيلها بطريقة ترفع الظلم عن المزارعين .

* * *

ثم ينقل لنا العدد بعض الأخبار المتفرقة، لينتهي بمقالة تحت عنوان ((**آثار جغرافية حلب**)) تبرز عبقرية الكواكبي وأسلوبه الساخر في الكتابة، جاء فيها : من الآثار الجغرافية في حلب ((صحراء سوق الجمعة)) (٦٧)، وهي صحراء واسعة تشبه الصحراء الكبرى في المغرب وسط أفريقيا(٦٨)، يبلغ محيطها ما يقارب ال [٤٠ كم]، فيها جبال تضاهي جبال أورال في ارتفاعها (٦٩)، مكونة من أوساخ المدينة، ولا يمنع من تشكل هذه الجبال وزيادة ارتفاعها ما يحمله الهواء من هذه الأوساخ ويمطره على رؤوس سكان المدينة، لأن زيادة الوارد من هذه الأوساخ يفوق ما ينقص منها.

ومن الآثار الجغرافية أيضا ((بحيرة الكلاسة)) (٧٠)، وهي مستنقع من المياه القذرة، تبلغ مساحتها نحو ألف متر مربع، تقع في الجهة الغربية من المدينة، يحدها شرقا سور المدينة، وغربا منتزه رئيس البلدية السيد زكي بك، وجنوبا محلة الكلاسة وشمالا طريق عام، ظهرت هذه البحيرة منذ ثلاث سنوات وقد نضب ماؤها هذه الأيام، ولا ندري إن كان ذلك بسبب حرارة الصيف وهو الغالب، أو بسبب جهود البلدية، والمهم أن المدينة خسرت ما كان يكسبه هواؤها من الجودة بسبب امتزاجه ببخارها المتصاعد.

ومن الآثار أيضا ((مزابل الحمامين)) والتي تحاكي أهرام مصر بارتفاعها وشكلها، وهي تتكون من روث الحيوانات الطري، وهو يتسلق بهذا الشكل حتى يجف، ولها فائدتان، الأولى بخارها والثانية دخانها الذي ينتشر في سماء المدينة فيظللها ويلطف عنها الحرارة صيفا والبرد شتاء.

وهذا كله بفضل دائرتي البلدية، هاتين الدائرتين اللتين إذا أردنا أن نحصي

إنجازاتهما، فلا يعد ما ذكرناه شيئا أمام بقية إنجازاتهما.

وينتهي العدد بخبرعن زيادة ضغوط الحكومة الروسية على العدميين (٧١)، وكيف أن ذلك يزيد من عنفهم وتمردهم .

وينتهي العدد بتوقيع شريف زادة سعيد .

*　　　*　　　*

رابعا : مجلة ((**المنار**))

المجلد ٨ ، الجزء ٢٢ تاريخ ١١ / ١ / ١٩٠٥ م

تجارة الرقيق وأحكامه في الإسلام (٧٢)

إن من يدقق في مسألة الرقيق، ويضطلع على ما يحصل في الشاطئ الشرقي لأفريقيا وفي سواحل الجزيرة العربية، وبعد المؤتمر الذي عقد لهذه المسألة في زنجبار، تظهر له الحقائق التالية :

١ – هذه التجارة بعد المؤتمر المذكور وبدعم من أوروبا، لم يبق منها إلا اسمها .

٢ – البقية الباقية من هذه التجارة محصورة في شمال شرقي أفريقيا، حيث إن نخاسي الجنس السواكني والجنس الدنقلي يأتون ببعض الرقيق من السودان إلى الثغور الأفريقية المهملة المقابلة لثغور الوجمة وينبع ورابغ ومبلت وقنفذة وجران على سواحل الجزيرة العربية .

٣ – يتم تهريب هؤلاء الرقيق بسفن أهل جدة الذين يشتهرون بالمهارة والإقدام، هذه السفن تنقل الرقيق من الساحل الشرقي لأفريقيا إلى الساحل الغربي لجزيرة العرب، وهذه الثغور المهملة على الطرفين هي الباقية على تجارة الرقيق، وقد اشتكى أهل الحجازمن وجود قرصان في تلك المياه تحت رياسة ابن غبيش، والحكومة العثمانية لا تعطي أي انتباه لتلك الشكاوي .

٤ – هذه السفن ليست حرة في نقل الرقيق، وهي تخشى من بواخر حراسة الرقيق،

لذلك فهي تراقب أواخر الشهر القمري لتغتنم فرصة السير ليلا تحت جنح الظلام إذا ما كانت الرياح مواتية، فتقلع من الشاطئ الأفريقي مع غروب الشمس، لتصل إلى شواطئ الجزيرة العربية في الصباح .

٥ – إذا دقق جناب الوالي، وكان ممن يؤمنون بالحرية، يرى أن المتبقي من الرقيق يصدر من الحجاز مع قوافل الحجاج إلى نجد بالدرجة الأولى وإلى اليمن بالدرجة الثانية، والقليل منها يذهب إلى سوريا، وهذه الأخيرة لم تعد تقبل أي رقيق ذكر.

ونحن نرى أن أفضل السبل لمحاربة هذه الظاهرة هي :

١- مراقبة سفن جدة وينبع وسفن السواكن وما جاورها، التي يمتلكها أهل جدة، من قبل قناصل الدول الموجودين في جدة .

٢- على سفارات الدول في الأستانة أن تضغط على الباب العالي بأن يلزم حكومة الحجاز بعدم المتاجرة بالرقيق، خاصة ما يتم علنا في السوق المخصصة لذلك في مكة، والذي يدعى ((الدكة)) .

٣- أن يكون تهديد الباب العالي، تهديدا مشتركا من قبل كل الدول مجتمعة .

*　　　*　　　*

ويتابع الكواكبي، وفي حديث لي مع أحد العلماء المسلمين المتنورين والمهتمين بالأمور السياسية **((يعني به غالبا الإمام محمد عبده))** عن مسألة الرقيق وموقف الإسلام منها، ورأي العلماء المسلمين بهذه الخدمة الإنسانية التي تقوم فيها الدول الغربية، فقال : ((إن الدين الإسلامي كغيره من الأديان أجاز الرق، لكن شريعته تطورت عن بقية الشرائع بأنها لم تقف ضد هذه الظاهرة موقف الممانع البات، لكنها أقرت بوجودها كظاهرة، وجعلت تحرير وعتق الرقيق منقذ لكثير من العقوبات، وضيق هذه الظاهرة بحيث يبدو لأي مدقق أن الشريعة الإسلامية تهدف في النهاية إلى إبطال ظاهرة الرق بالتدريج، والدليل على ذلك :

١ – الشريعة حصرت الرق في المولودين لأبوين رقيقين، وفي أسرى الحرب من غير

المسلمين وغير العرب وغير الأقارب، فإن هذه الأصناف لا تسترق.

٢ – جعلت الاسترقاق غير الشرعي من أكبر المحرمات وهو يلي قتل النفس في درجة التحريم.

٣ – جعلت العتق هو الكفارة الوحيدة للعديد من الخطايا الدينية .

٤ – جعلت العتق هو الكفارة العظمى لجميع أنواع الخطايا التعبدية .

٥ – جعلت العتق من أهم النذور .

٦ – جعلت العتق محللا للحنث باليمين التي لا تتعلق بحق من حقوق الناس .

٧ – جعلت العتق أتم وفاء لحق شكر الله على النعمة، أو على السلامة من الخطر.

٨ – جعلت العتق أهم ما يوصي به المسلم بعد موته ليكافئه الله بعتقه من عذاب الآخرة .

والنتيجة أنه كاد الإسلام أن يلزم كل الأفراد، بعتق ما لديهم من الرقيق، لهذا فالرق في الإسلام مؤقت وليس دائم، والشريعة المدنية الإسلامية هي من أعظم الشرائع التي جاءت للدفاع عن الحرية، لأنها :

١ – جعلت الرق يسقط بمجرد أن يدعي الإنسان انه حر، لأنها تعتبر الحرية حق طبيعي للإنسان وألزمت من يدعي ملكية هذا الرقيق إثبات ملكيته .

٢ – جعلت إقرار الإنسان على نفسه بالرق ولو ألف مرة، لا يسلبه حريته ولا يمنعه من ادعاء حريته فيما بعد .

٣ – جعلت الرق يسقط بورود لفظة التحرير على لسان المالك، حتى ولو قالها هازلا أو كان سكرانا أو مكرها، حتى وإن قالها بلغة غير واضحة .

٤ – جعلت رق الأنثى يسقط بمجرد أن تلد من مالكها ولدا، فلا تنقل لغيره، وتصبح حرة بموته.

٥ – جعلت القول في أن حملها من مالكها يؤثر في عتقها وإن لم يؤثر في نسبة مولودها.

٦ – جعلت مالك جزء من رقيق ولو واحدة بالألف، إذا أعتق جزءا يعتق الكل رغما عن باقي الشركاء، ولهم الحق في التعويض المادي من المعتق عن خسارتهم .

٧ – جعلت حكم القاضي بالعتق قطعي التنفيذ، حتى وإن كان حكما ظالما .

٨ – جعلت الخليفة المسلم إذا اجتهد بأن الأرقاء المملوكين للمسلمين، رقهم غير صحيح وحكم بحريتهم، ينفذ حكمه فورا ويصير العبيد أحرارا دفعة واحدة، حتى ولو خالف في حكمه هذا آراء بعض المذاهب الإسلامية القديمة.

إلى غير ذلك من الأحكام الشرعية التي تقاوم الرق، والشريعة الإسلامية هي أول شريعة دينية سياسية تدافع عن الحرية وتنادي بإبطال الرق، وليس ذلك عليها بغريب لأنها ظهرت في العرب أحرص الناس على الحرية، وأكثرهم توقا إليها، ونزلت بأرضهم التي نزلت فيها صحف الحكمة على موسى أبي الأنبياء عليهم السلام، وكتبت بلغتهم أول قوانين للحرية والإخاء والمساواة .

ولكن كما جرفت سيول برابرة الشمال رياض الرومان واليونان فأوقعتهم في ظلمات القرون الوسطى، كذلك جرفت سيول المغول والتتار رياض العرب فأوقعتهم في ظلمات تشبه تلك الظلمات، وهم مازالوا يسعون للخروج منها.

بالتالي فالسبب الحقيقي لاستمرار الرق، هم الأمراء المستبدون الذين لا ينقادون للدين الإسلامي إلا ليطبقوه وفق أهوائهم، فيتخذون الدين في الظاهر حجة للتمتع بالرقيق، خاصة بعد أن قام الغرب بتحرير الرقيق، وحاربت دوله هذه الظاهرة، فهؤلاء الأمراء يتظاهرون أمام أوروبا بأنهم يودون منع الرقيق لكنهم يخافون ردة فعل رعاياهم المسلمون، لأن الرق جائز شرعا، وللمحافظة على العادات والتقاليد الإسلامية، لا يمكنهم إبطال الرق دفعة واحدة ولكن بالتدريج، علما أن كبار الأمراء والمقلدين لهم هم وراء تثبيت هذه العادة وليس الإسلام كما يفترون .

وقد يستغرب الغربيون إن قلنا أنه ليس بين العلماء المسلمين من يجيز الرق منذ قرون، أي منذ انتهت الحروب الإسلامية التي تهدف إلى حماية الدعوة الإسلامية

ونشرها، أو التي تهدف إلى الدفاع عن المسلمين، والعلماء يسكتون أو يتجاهلون خوفا من الأمراء أو محاباة لهم، خاصة وهم يرون أن أعظم بيت من بيوت الأمراء المسلمين لم يزل ومنذ أربعة قرون تقريبا يتبع قانون عائلي يقضي بعدم زواج ذكورهم بنساء غير رقيقات، فأمهاتهم وزوجاتهم جميعهن رقيقات من الكرج أو الجركس، علما أن الرق لا ينطبق شرعا على الكرج منذ قرن ونصف، إذ توقفت جيوش المسلمين عن الدخول إلى بلاد الكرج، ولا ينطبق الرق على الجركس لأنهم مسلمون، والمعروف عن الجركس أيضا أنهم يبيعون أولادهم بيعا، أو يسترقون من المدينين لهم أولادهم في مقابل ديونهم .

والعلماء المسلمون إذا لم يسكتوا عن هذا الخلل في الكرج والجركس، عليهم أن يحكموا ويصرحوا أيضا بأن جميع أولئك الأمراء ليسوا بأولاد شرعيين .

هؤلاء الأمراء يمكنهم إبطال هذا القانون العائلي دون أي صعوبة، كما أبطلوا منذ أربعين عاما، القانون القاضي بقتل جميع أولاد الأميرات السلطانيات اللواتي كن يزوجن لأزواجهن شرط أن لا يعقبن بأولاد حرصا على البيت الملكي من كثرة المنتسبين إليه .

أما ما يقال عن حاجة المسلمين للرقيقات من أجل الخدمة، فهي حاجة غير ضرورية وهي فعل لتقليد الأمراء ليس إلا . كما أن الخصيان لا ضرورة لوجودهم، والشريعة الإسلامية لا تجيز خصاء الحيوان فكيف تجيزه للإنسان ؟ وإذا وجد رجل مخصي بفعل الغير، فإن أكثر المذاهب الإسلامية تعتبره كسائر الرجال بلا فرق، وتجيز استخدامه في القصور بين النساء.

والشريعة الإسلامية وعلماؤها الأحرار يشكرون أوروبا على منعها للرق، وهم مسرورون لسعيها وجهودها لتحقيقه، ويتمنون لو أن أوروبا تجد وسيلة قاطعة لسد باب الرق بالكلية.

ويقول صديقي المذكور أن في ذهنه بعض الأمور التي قد تكون مؤثرة في هذا الشأن، مثل :

أولا – أن تستعمل أوربا نفوذها الأدبي في استقباح وجود الجنس الأسود، ذكورا وإناثا، في قصور الأمراء، بحجة قبح خلقتهم وأخلاقهم، كذلك استقباح وجود إناث

بيض أسيرات ذليلات بغير ذنب ودون جناية.

ثانيا - أن تدفع أوروبا الأمراء الشرقيين لإتباع عادات الأمراء الغربيين بإعلان زواجهم الشرعي، وأن تجبرهم تدريجيا إلى عدم الاعتراف بالورثة الشرعيين كأمراء، إذا لم يكونوا مولودين لزوجات شرعيات، وأن يعلن الزواج قبل الولادة بسبعة أشهر على الأقل، ومنع إعلان الزواج بعد ظهور الحمل .

ثالثا – أن تكلف الدول سفراءها في القسطنطينية و طنجة و ظهران وكابول، وقناصلها في تونس ومصر وجدة (بدل مكة)، أن يستفتوا بواسطة حكومات العواصم الإسلامية، المفتين الرسميين من المذاهب الإسلامية المختلفة عن مسألة هذا نصها : **((ما قول علماء الشرع الإسلامي المحترمين في الإنسان، هل يصح اعتباره رقيقا بشرائه من أوليائه ؟ أو بالسرقة ؟ أو بالأسر ؟ علما أن بعض الأمراء المسلمين دعا إلى عقد معاهدة دولية لمنع الأسر الحربي، مقابل عدم وقوع الأسر على كافة المسلمين))** .

في هذا الاستفتاء سوف تحاول القسطنطينية الجواب، وسيمتنع علماء مكة عن الرد، أما باقي العواصم فسوف تحكم بعدم جواز الرق، هذا الجواب من بقية العواصم يكفي لامتناع الأمراء من التفاخر باستخدام الرقيق، امتناعا أدبيا وأخلاقيا أمام رعاياهم، وهذا الامتناع الأخلاقي من تملك الرقيق، سيجعل من أنصار الرق من المسلمين أعداء له، وبذلك يتم بعد سنوات قليلة إبطال الاسترقاق من العالم، ويرتفع عن عاتق الإنسانية هذا العار العظيم.

هوامش
في الصحافة

١ – فرات : صحيفة ولاية حلب الرسمية، كانت تصدر أسبوعيا وتطبع باللغتين العربية والتركية، صدرت عام [١٢٨٤ هج = ١٨٦٩ م]، عمل فيها الكواكبي من سنة [١٢٨٩ – ١٢٩٣ هج = ١٨٧٢ -١٨٧٦ م]، محررا متعاونا ((غير رسمي))، ثم أصبح محررا رسميا فيها .

٢ – المؤيد : صحيفة مصرية لصاحبها علي يوسف، نشر فيها الكواكبي أول مقالة له في [١٧ / آذار/ ١٨٩٩ م] تحت عنوان **((ما هو الداء وكيف يرجى الشفاء))** بتوقيع ((حلب ع))، والمقال صورة أولية لما نشر بعد ذلك في كتاب ((أم القرى)).

وبعد هرب الكواكبي إلى مصر كتب في المؤيد مقالات كثيرة شكلت الأفكار الأولية لما جاء فيما بعد في كتاب ((طبائع الاستبداد))، ونشرت كلها على الصفحتين الأولى والثانية من الصحيفة وهي على الشكل التالي :

المقال الأول : ((اقتراح على المحررين السياسيين)) بتاريخ [١٥ / ١٠ / ١٩٠٠ م]، لكاتب عربي مبين بتوقيع ((مجيب)) .

المقال الثاني : ((جواب الاقتراح في : ما هو الاستبداد)) بتاريخ [١٠/٢٠ / ١٩٠٠]، بقلم أحد أفاضل الكتاب المجيدين .

المقال الثالث : ((جواب ثاني للاقتراح : الاستبداد والدين)) بتاريخ [١٩٠٠/١٠/٢٧م]، بتوقيع ((مستبد)).

المقال الرابع : ((جواب ثالث للاقتراح : الاستبداد والعلم)) بتاريخ [١٩٠٠/١١/٦م] بدون توقيع .

المقال الخامس :((الجواب الرابع للاقتراح :الاستبداد والمجد)) بتاريخ [١٩٠٠/١١/٢٠م] بتوقيع (مجيب).

المقال السادس :((الجواب الخامس للاقتراح :الاستبداد والمال)) بتاريخ [١٩٠٠/١٢/٢م] بتوقيع(مجيب) .

المقال السابع :((الجواب السادس للاقتراح : الاستبداد والأخلاق)) بتاريخ [١٩٠٠/١٢/١٥م] بدون توقيع.

المقال الثامن : ((الجواب السابع للاقتراح : الاستبداد والترقي)) بتاريخ [١٩٠٠/١٢/٢٩م] من دون توقيع.

المقال التاسع : ((الجواب الثامن للاقتراح : الاستبداد والتربية)) بتاريخ [١٩٠١/١/١٠م] من دون توقيع .

٣ – المنار: صحيفة مصرية يصدرها محمد رشيد رضا، نشر فيها الكواكبي فصول كتاب ((أم القرى)) سنة [١٣٢٠ هج = ١٩٠٢ م] بعد تعديلات اقترحها صاحب الصحيفة تتعلق بحذف عبارات عن نقد السلطنة العثمانية .

بعد وفاة الكواكبي نشرت هذه الصحيفة مقالا بينت فيه، أنه من آثار الكواكبي ما كتبه بعد سياحته الأخيرة إلى بعض البلدان العربية والإسلامية وهو بعنوان ((**تجارة الرقيق وأحكامه في الإسلام**)) بتاريخ [١٦/ذي القعدة/١٣٢٣ هج = ١٩٠٥/١/١١م] .

٤ – العمران : صحيفة مصرية أسبوعية، كانت تصدر كل سبت، كتب فيها الكواكبي سلسلة مقالات، كان أولها ((العلم)) في العدد الثاني بتاريخ [١٩٠٢/٤/٥م] من دون توقيع، ثم كتب مقالة بعنوان ((المجد و التمجد)) في العدد الثالث بتاريخ [١٩٠٢/٤/١٢م] .

٥ – القاهرة : صحيفة مصرية نصف شهرية، صدر عددها الأول في [١/ نيسان / ١٩٠٣ م] تحدث فيه بشير يوسف عن عثوره على بعض مؤلفات الكواكبي غير المنشورة، ويؤكد عزمه على نشرها في الأعداد التالية، لكنه لم يف بوعده، ولم ينشر سوى ترجمة لحياة الكواكبي، وآرائه، ودفاعه عن نفسه أمام محكمة بيروت، وأقواله في لقائه مع

قنصل إيطاليا.

٦ – النجاح : صحيفة بيروتية، نقلت مقالا عن صحيفة حلب الرسمية ((فرات)) في العدد [٣٣] تاريخ [٢٧/ آذار/ ١٨٧٢]، نسبه جان داية إلى الكواكبي .

٧ – النحلة : صحيفة كانت تصدر في بريطانيا، نشر فيها الكواكبي مقالين تحت عنوان ((حلب)) بتوقيع وصفته النحلة بأنه ((مكاتبنا غير الاعتيادي)) وذلك بتاريخ [١ / نيسان / ١٨٧٩]، لاحظ جان داية أن هذين المقالين يشبها افتتاحية الكواكبي في الشهباء، العدد الخامس الصادر في [ك١ / ١٨٧٧ م].

٨ – الأهرام : بتاريخ [١٢ / حزيران / ١٨٧٩ م] نشرت مقالة بعنوان ((حلب الشهباء)) من دون توقيع، يرى جان داية أنها تلتقي في مضمونها مع كتابات الكواكبي، من حيث نقدها جهاز الحكم في حلب، ومن حيث روح السخرية التي ميزت مقالة الكواكبي في اعتدال حول ((آثار جغرافية حلب)) .

٩ – المصباح : تصدر في جبل لبنان، فيها مقالة أدرجت تحت عبارة ((مراسلات حلب في ١٩ / آذار)) في [العدد ٣٢٦ تاريخ ٢٤ / آذار/ ١٨٨٣ م]، بتوقيع ((الإمضاء محفوظ)) وقد نشرها الكواكبي بعد تعطيل صحيفتيه، واختار المصباح لأنها تستطيع نشر الانتقادات السياسية بفعل الامتيازات التي أعطيت لجبل لبنان إثر فتنة الستين .

١٠ – لسان العرب : نشرت مقالة تحت عنوان ((أحب شيء إلى الإنسان ما منع)) في العدد [٣٢٣] من لسان العرب تاريخ [٢٨ / آب /١٨٩٥م] بتوقيع ((أحد الأفاضل الحلبيين))، ومقالة أخرى تحت عنوان ((أحمد مختار باشا – معتمد الحكومة التركية في مصر)) في العدد ٣٢٨ بتاريخ [٤ / أيلول / ١٨٩٥ م] بالتوقيع نفسه .

١١ – المقطم : نشرت مقالتان ((الجامعة الإسلامية – الفصل الأول)) في العدد ٣١٤٨ بتاريخ [٥/آب/١٨٩٩م] بتوقيع ((مسلم حر الأفكار)) و ((الجامعة الإسلامية – الفصل الثاني)) في العدد ٣١٤٩ تاريخ [٧/آب/١٨٩٩م] بالتوقيع نفسه .

١٢ – القاهرة : صحيفة نصف شهرية ، على لسان نديم الكواكبي العدد ١ (١ / نيسان/ ١٩٠٣م) ص ٦ ١٣ – هنا يعتمد الكواكبي في شهر نيسان على تاريخ السنة

الشرقية وفي أيارعلى التاريخ الميلادي .

١٤ – الجوائب : صحيفة سياسية أسبوعية، كانت تصدر كل يوم ثلاثاء، أسسها أحمد فارس الشدياق في الأستانة (١٨٦٠ – ١٨٨٤)، وفي عام (١٨٨٣) نقلها إلى القاهرة.

١٥ – مصطفى الأنطاكي : شاعر حلبي (١٢٧٧ - ١٣١٠ هج = ١٨٦٠ – ١٨٩٢ م)، انتقل من حلب إلى بغداد للتجارة وتوفي هناك .

١٦ – الوقت : لم يعثر لها على ترجمة، وقد وجد صحيفة الوقت التي صدرت عام (١٨٧٩) بالإسكندرية لصاحبها سليم وبشارة تقلا، ولا يمكن أن تكون هي الصحيفة المقصودة لأن هذه الصحيفة صدرت عام (١٨٧٩) وهذه الأحداث تمت في عام (١٨٧٧) .

١٧ – المبعوثان : مجلس ينتخب الأهالي أعضاءه، وهو جزء من مجلس الأعيان الذي تعين الحكومة أعضاءه، ويشكل المجلسان مجلسا عموميا (برلمان)، تشكل المجلس بقرار من السلطان عبد الحميد الثاني في (٥ / شوال /١٢٩٣ هج = ٢/ ت٢ / ١٨٧٦ م) بناء على اقتراح مدحت باشا (الصدر الأعظم)، ولكنه سرعان ما ألغي بعد أقل من شهرين، ونفي مدحت باشا .

١٨ – البابوج : حذاء خفيف، وهي من التركية عن الفارسية (بابوشيدن أو بابوش)، وتعني لبس القدم .

١٩ – القندرة : من التركية ، قوندرة أو قونطورة وتعني الحذاء الإفرنجي .

٢٠ – نقولا بن الياس نقاش [١٢٤١ – ١٣١٢هج = ١٨٢٥ – ١٨٩٤م]، أديب وصحافي لبناني، من رجال القانون في العهد العثماني' مثل سورية في مجلس المبعوثان عام (١٨٧٧)، وأنشأ جريدة المصباح عام (١٨٨٠)، ترجم إلى العربية كثيرا من القوانين العثمانية، وله ديوان شعر.

٢١ – العرضحالات : اصطلاح تركي، يعني إخبار الحكومة بكتاب يطلب منها تحقيق مطلب أو يشكو من مظلمة، ويراد منها الاستدعاء أو التظلم، ويسمى من يكتبه بالعرضحالجي .

٢٢ – عنتاب أو عينتاب : مدينة في كيليكية، كانت متصرفية تتبع حلب، واسمها سامي أو آرامي : عين طوب وتعني عين الماء الطيبة .

٢٣ – مايانس : مدينة في ألمانيا على نهر الراين، مشهورة بكاتدرائيتها ومتحفها .

٢٤ – لويس الحادي عشر : [١٤٢٣ – ١٤٨٣]، حكم فرنسا بين عامي (١٤٦١ – ١٤٨٣)، كرس حياته لإنشاء دولة قومية جديدة تقوم على تركيز السلطة في يد العرش، وجنح إلى الحكم الأوتوقراطي، تدخل في شؤون الكنيسة لصالحه، كان يخشى الاغتيال ومات سجين نفسه في قلعة بلسيه لي تور .

٢٥ – محمود خان الأول : (١٦٩٦ – ١٧٥٤)، كان سلطانا لتركيا (١٧٣٠ – ١٧٥٤)، ابن مصطفى الثاني، أجلسته على العرش ثورة قام فيها الانكشارية، بنا كثيرا من المباني المنيفة في اسطنبول .

٢٦ – نابليون الأول : (١٧٦٩ – ١٨٢١) ولد في أجاكسيوم من عائلة بونابرت، إمبراطور فرنسا (١٨٠٤ - ١٨١٥) جلب من الفاتيكان إلى مصر أول مطبعة عربية هي مطبعة بولاق، تحالفت أوروبا ضده فهزم في معركة واترلو (١٨١٥)، نفي إلى جزيرة القديسة هيلانة حيث توفي هناك .

٢٧ – محمد على باشا : (١٧٦٩ – ١٨٤٩)، ولد في اليونان وتوفي في الإسكندرية، مؤسس السلالة الخديوية، عين واليا على مصر(١٨٠٥)، انتصر على الجيوش البريطانية بقيادة فريزر (١٨٠٧)، وقضى على المماليك في مذبحة القلعة (١٨١١)، عمل على النهوض بالبلاد وحاول التحديث .

٢٨ – رهبانية أسسها القديس أغناطيوس دي لوبولا (١٥٤٠)، ينصرف أعضاؤها إلى الوعظ والتعليم وأعمال الرسالة، فتحوا الأديرة في حلب ودمشق وصيدا وطرابلس وسواها، وأسسوا جامعة القديس يوسف في بيروت (١٨٧٥)، ومدرسة القاهرة (١٨٧٩).

٢٩ – أتوفون بسمارك (١٨١٥ – ١٨٩٨)، سياسي ألماني انتخب عام (١٨٤٧) للبرلمان البروسي (الإندتاخ)، عينه وليم الأول (١٨٦٢) رئيسا للوزارة، فخرق الدستور وحل البرلمان، وتسلم زمام الحكومة والميزانية، ثم رأس حكومة الإمبراطورية واقترح

برنامجا قويا، وأنشأ تحالفات كثيرة، فأصبح بذلك قطب السياسة الأوروبية، وعزل عام (١٨٩٠).

٣٠ – جبرائيل عبد الله الدلال (١٢٥٢ – ١٣١٠هج =١٨٣٦ – ١٨٩٢م)، صحافي وشاعر، ولد في حلب، تعلم في لبنان، وأتقن عدة لغات، تولى تحرير صحيفة ((الصدى)) في فرنسا، وعمل سكرتيرا لخير الدين التونسي في تركيا، ثم أصدر في الأستانة جريدة ((إسلام))، عاد إلى حلب سنة (١٨٨٤)، له قصيدة طويلة بعنوان ((**العرش والهيكل**))، هاجم فيها سلطان الكنيسة والملوك، وقد أدت هذه القصيدة إلى حبسه ومات في السجن.

٣١ – رأس الرجاء الصالح : رأس في أقاصي أفريقيا الجنوبية في إقليم الكاب، اكتشفه فاسكو دي غاما عام(١٤٩٧ م).

٣٢ – السويس : مدينة مصرية أسست في القرن العاشر، وازدهرت بعد فتح القناة التي سميت باسمها.

٣٣ – البصرة : مدينة عراقية تقع على الضفة اليمنى من شط العرب، وهي ميناء العراق الرئيسي، وتبعد عن الخليج العربي [١١٨ كم]، تأسست في زمن الخليفة عمر بن الخطاب عام (٦٣٦ م)، بناها عقبة بن غزوان بعيدا عن النهر، وعلى طرف البادية، حيث تلتقي الطرق البرية مع الطرق المائية.

*- رسالة أتمنى العودة إليها في الأعمال الكاملة للكواكبي (ص ١٥٩ – ١٦٠).

٣٤ – الطاعون البقري : سمي أبو هدلان، لأن من أعراضه تهدل الأذنين.

٣٥ – جزر سيام : هي تايلاند، مملكة في جنوب شرقي آسيا (شبه جزيرة الهند الصينية)، تقع بين بورما ولاووس وكمبوديا، من محاصيلها الأرز والقطن والتبغ والمطاط.

٣٦ – التتار : اسم عام يطلق على شعوب اكتسحت في القرن الثالث عشر أجزاء من آسيا وأوروبا بزعامة المغول، ظلت إمبراطوريتهم التي كانت تسمى (**إمبراطورية الجحفل الذهبي**) حتى أواخر القرن الخامس عشر، حين تمزقت إلى خانات عديدة

مستقلة، سقطت في أيدي الأتراك العثمانيين والقيصر إيفان .

٣٧ - سليمان القانوني : (٩٠٠ – ٩٧٤هج = ١٤٩٤ – ١٥٦٦ م)، عاشر السلاطين العثمانيين (١٥٢٠-١٥٦٦)، لقبه الأتراك بالقانوني، ولقبه الإفرنج بالعظيم، قاد بنفسه ثلاث عشرة حملة في أوروبا وآسيا، دون القوانين والشرائع .

٣٨ – مكماهون : ماري أوميه باتريس دي (١٨٠٨ – ١٨٩٣)، مارشال فرنسي من أصل إيرلندي، انتخب عام (١٨٧٣) رئيسا للجمهورية الفرنسية وبقي حتى عام (١٨٧٩)، اشترك في حرب القرم، وساعد في إخماد ثورة الكومون في باريس عام (١٨٧١)، وقد أكره على الاستقالة من رئاسة الجمهورية .

٣٩ – يكي جري : وتعني القوة الجديدة (الانكشارية) .

٤٠ – ملبار : ساحل جنوب غرب الهند، يمتد من جوا إلى الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة عند رأس كمورين .

٤١ – قسطاكي حمصي : (١٨٥٨ – ١٩٤١) أديب عربي ولد في حلب، عني باللغة له شعر وترجمات من الشعر الفرنسي .

٤٢ – الرائد التونسي : صحيفة رسمية أسبوعية تأسست في محرم (١٢٧٨هج = ٩ / تموز / ١٨٦١م] على يد محمد الصادق باشا، الباي الثالث عشر للدولة التونسية، جعلتها فرنسا نصف أسبوعية وزادت في عدد صفحاتها .

٤٣ – لاتركي : صحيفة لم يعثر لها على ترجمة .

٤٤ – يبدو أن الكواكبي كتب هذا الكلام قبل أن تضح نوايا الصهاينة التوسعية .

٤٥ – البوسطة : من الإيطالية عن اللاتينية، بمعنى المركبة المسقوفة، استعملت بعد اختراع السيارات للسيارة الكبيرة، واستعملت قديما للبريد لأنها آلة حمله، ويسمون من يشتغل بالبوسطة البوسطجي، والبوسطة :هي حاملة البريد ذات الأربعة أحصنة،أيضا .

٤٦ – لسان الحال : صحيفة إخبارية أدبية سياسية، صاحب امتيازها خليل سركيس، صدرت في بيروت بتاريخ [١٨ /١٠ / ١٨٧٧ م]، بدأت نصف أسبوعية ثم

تحولت إلى يومية .

٤٧ – كاتب حلبي مغمور، كتب في الجنان والشهباء .

٤٨ – أدرنة : مدينة في تركيا، من مدن الإمبراطورية البيزنطية، فتحها الأتراك عام (١٣١٦)، فأصبحت مقرا لسلاطينهم حتى عام (١٤٥٣)، اسمها بالروسية ((أدريانابوليس)) .

٤٩ – العددان الثامن والتاسع مفقودان .

٥٠ – السرية : هي الأمة التي أنزلتها بيتا وجاز مضاجعتها، أو المملوكة التي يتسراها سيدها، والجمع : السريات والسراري .

٥١ – غلوب آندميل : صحيفة يومية كانت تصدر في تورنتو بكندا عام (١٨٤٤) .

٥٢ – الأناضول : هو الجزء الآسيوي من تركيا، شبه جزيرة جبلية بين البحر الأسود في الشمال وبحر إيجة في الغرب والبحر المتوسط في الجنوب، ويستعمل اسم الأناضول أحيانا معادلا لاسم آسيا الصغرى .

٥٣ – مجوس : كلمة إيرانية الأصل، منها المجوسية، ورد ذكرها في القرآن غير مرة، وتطلق على أتباع الديانة الزردشتية، كادت أن تنقرض بعد استيلاء المسلمين على فارس .

٥٤ – السيخ : جماعة دينية في الهند وباكستان، أسس ناناك (١٤٦٩) ديانتهم التي نادت بالوحدانية والتقارب بين الأديان، لكن (جوفند سيخ) عام (١٦٦٦) وحد صفوف السيخ وجعلهم جماعة محاربة، سمى واحدهم سيخ ويعني (أسد) .

٥٥ – البوذية : مذهب أسسه بوذا في الهند، وبوذا في اللغة السنسكريتية تعني (المتنور)، وترجمت تعاليم بوذا إلى العربية في كتاب بعنوان ((إنجيل بوذا)) .

٥٦ – الأعداد من الثاني عشر إلى السادس عشر مفقودة .

٥٧ – بورجاس : مدينة شرقي بلغاريا .

٥٨ – مينة : تعني ميناء .

٥٩ – الدالي تلغراف : صحيفة يومية كانت تصدر في لندن ومانشستر، أسستها عام (١٨٥٥) شركة ديلي تلغراف لمتد – فئة بيري .

٦٠ – الملكة فكتوريا : (١٨١٩ – ١٩٠١)، هي ملكة إنكلترا بين عامي (١٨٧٣ – ١٩٠١) وإمبراطورة الهند بين عامي (١٨٧٦ – ١٩٠١)، وقد أيدت حرب القرم .

٦١ – الوطن : صحيفة يومية أسبوعية مؤقتا، سياسية أدبية تجارية، صدرت في القاهرة بتاريخ [١٧/ت١٨٧٧/٢] .

٦٢ – أورشليم : عاصمة فلسطين، احتلها داوود وجعلها عاصمة ملكه، بنا فيها سليمان هيكله الشهير، احتلها الصليبيون عام (١٠٩٩)، واسترجعها صلاح الدين الأيوبي بعد معركة حطين عام (١١٨٧)، ثم وقعت بيد الأتراك الخوارزميين عام (١٢٤٤)، وظلت بأيدي العثمانيين بين عامي (١٥١٦ – ١٩١٧)، وبدأ انحطاطها في عهدهم، وهي مدينة تقدسها الأديان السماوية، وفيها كنيسة القيامة والمسجد الأقصى وقبة الصخرة، واسمها العربي هو (القدس أو بيت المقدس) .

٦٣ – الكولورين : من اليونانية ومعناها الهواء الأصفر= الكوليرا ، وهو مرض وبائي حاد، أعراضه التشنج الحاد والإسهال والقيء، كانت نسبة الوفيات فيه عالية جدا.

٦٤ – الكرنتينا : من الإيطالية، بمعنى الأربعين، أطلقت على الحجر الصحي، ومدته أربعين يوما .

٦٥ – وهو العدد الوحيد المتوفر لدينا من أصل عشرة أعداد صدرت من هذه الجريدة .

٦٦ – حسب ما لدينا من المعلومات، أن الشهباء عطلت مرتين، مرة بعد العدد الثاني والثانية بعد العدد[١٦] حيث تم إغلاقها نهائيا، لأن تواريخ الأعداد المتوافرة متسلسلة، كما أن تاريخ العدد [١٦] والأخير حسبما ذكرت الصحف الأخرى عن الشهباء لا يشير إلى أي انقطاع .

٦٧ – سوق الجمعة : كان قديما أهم سوق أسبوعي في حلب، تعرض فيه صنوف البضائع، يوم الجمعة من كل أسبوع، وقد أقيم في القرن الخامس عشر الميلادي، لتأمين حاجيات جنود القلعة، ولم يزل قائما حتى الآن، إلا أن مكانه يتغير باستمرار.

٦٨ – المغرب : اسم أطلقه الجغرافيون على شمال أفريقيا (ليبيا وتونس والجزائر ومراكش)، وهي منطقة تشتهر بصحرائها الواسعة .

٦٩ – جبال أورال : جبال في روسيا، تمتد نحو [٢١٠٠ كم]من الشمال إلى الجنوب، بين أوروبا وآسيا، أعلى قممها نارودا [١٨٧٠ م] .

٧٠ – الكلاسة : من حارات حلب خارج السور القديم، سميت بالكلاسة لأن فيها مقالع الكلس، أكثر سكانها يمتهنون حرفة الكلس وقطع الحجارة من مقالعها، ونحتها وبنائها .

٧١ – العدمية : تعبير استعمله للمرة الأولى الكاتب الروسي تورغنيف (١٨٦١) في رواية الآباء والبنون، وهو وصف لنظرية سياسية واجتماعية اعتنقها كثير من الثوريين الروس، وظلت قائمة حتى سقوط الحكومة القيصرية عام (١٩١٧ م)، وتقوم على ضرورة هدم الأوضاع السياسية والاجتماعية الفاسدة القائمة، بغض النظر عن طبيعة النظم الصالحة التي يجب أن تحل محلها، وتميز أنصارها بممارسة الإرهاب والاغتيال السياسي .

٧٢ – وردت هذه المقالة في مجلة ((المنار)) [مج ٨ ،ج ٢٢ ، تاريخ ١١/ك٢ /١٩٠٥م، ص ٨٥٤ – ٨٦٠] ، تحت تعليق ((من آثار المرحوم السيد عبد الرحمن أفندي الكواكبي الشهير)) كتبها بعد سياحته الأخيرة قبل موته .

الباب الثاني
أم القرى *

كتاب كتبه الكواكبي في حلب، وظهرت أولى مقالاته في ((**المؤيد**))، يبدأه المؤلف بتنبيه تحت عنوان ((أيها الواقف على هذه الذكريات))، ينبه فيه الكواكبي لضرورة قراءة الكتاب من أوله إلى آخره قبل الحكم عليه، لأنه سلسلة لا يغني أولها عن آخرها، كما يقول، ثم يندب الكواكبي من يقرأ الكتاب أن يعممه على غيره، كي تعم فائدة الكتاب على الناس وعسى أن يضيفوا له من أفكارهم ما ينقصه .

لقد تخيل الكواكبي أن مؤتمرا عقد في مكة المكرمة ((أم القرى)) بين ممثلين عن الأقطار الإسلامية تحت شعار ((لا نعبد إلا الله))، غايته التداول في أحوال المسلمين، والبحث في أسباب تخلفهم وتأخرهم، وهذا الكتاب هو عبارة عن ضبط مفاوضات ومقررات هذا المؤتمروسجل لاجتماعاته التي دامت خمسة عشر يوما، وبلغت اثني عشر اجتماعا، غير الاجتماع الأخير الذي يشتمل على توصيات المؤتمر.

كتب الكواكبي الكتاب بأسلوب حواري، على ألسنة الأعضاء الذين يتخيل الكواكبي حضورهم لهذا المؤتمر، وهم كما يسميهم الكواكبي : ((السيد الفراتي، الفاضل الشامي، البليغ القدسي، الكامل الإسكندري، العلامة المصري، المحدث اليمني، الحافظ البصري، العالم النجدي، المحقق المدني، الأستاذ المكي، الحكيم التونسي، المرشد الفاسي، السيد الإنكليزي، المولى الرومي، الرياضي الكردي، المجتهد التبريزي، العارف التاتاري،

الخطيب القازاني، المدقق التركي، الفقيه الأفغاني، الصاحب الهندي، الشيخ السندي، والإمام الصيني)) وهم ثلاثة وعشرون عضوا، وقد تخلف الأديب البيروتي عن الحضور بعذر مقبول، وهناك الأمير الهندي الذي يتدخل في اللاحقة ويدلي بآرائه في مباحثات الجمعية ونتائجها، وهؤلاء الأعضاء يمثلون مدن : حلب، دمشق، مصر، فلسطين، اليمن، العراق، نجد، المدينة، مكة، تونس، مراكش، إنكلترا، تركيا، كردستان، فارس، شمال التتار، كازاخستان، أفغانستان، الهند، الصين . ونلاحظ من ترتيب الأسماء، أن الكواكبي يقدم العرب على سواهم، والمندوبين العرب يمثلون الأغلبية في هذا المؤتمر، ترأس المؤتمر الأستاذ المكي، وعهدت أمانة السر إلى السيد الفراتي (١) .

يبدأ الكتاب بمقدمة للمؤلف يستعرض فيها الأسباب التي دعت لعقد هذا المؤتمر، وأهداف هذا المؤتمر، والخطوات التي تمت حتى تم عقد هذا المؤتمر، وقد كتب الكتاب بأسلوب حواري شيق، بحيث لا يمكن للقارئ والمتتبع لوقائع هذا المؤتمر إلا أن يعتقد أن هذا المؤتمر قد عقد فعلا وليس تخيلا، ويشير الكواكبي في مقدمة كتابه، إلى الخلل والضعف الذي يعتري المسلمين، ثم يبحث في أسباب هذا الخلل، وفي نهاية الكتاب (المؤتمر)، يضع الكواكبي ما يتصوره حلولا لهذا الخلل والضعف، والآن إلى الكتاب لنرى ما فيه، يبدأ الكتاب بمقدمة، يستهلها الكواكبي ب:

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد حمد الله والصلاة والسلام على نبيه محمد (ص) وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين، يعرف الكواكبي بنفسه، بأنه هو ((الرحالة المعروف بالسيد الفراتي))، ثم يقول : نحن الآن في مطلع القرن الرابع عشر الهجري حيث عم الخلل والضعف كافة المسلمين، وإن من سنة الله في خلقه أن جعل لكل شيء سببا، وللوقوف على أسباب هذا الخلل وهذا الضعف الذي منيت فيه الأمة الإسلامية، دعت الحمية أفاضل العلماء المسلمين والكتاب السياسيين للبحث عن هذه الأسباب، وبحثوا عن أفضل الوسائل للنهوض بالأمة الإسلامية وأخذوا ينشرون آراءهم في الصحف والمجلات، وقفت (أي الكواكبي)على معظمها، وتعميقا لهذه الفكرة خطر بذهني عقد مؤتمر بين علماء المسلمين في مهد الهداية ، واعني (مكة المكرمة) لهذه الغاية، فانطلقت بجولة سياحية زرت فيها معظم الأقطار العربية لاستطلاع الآراء والتهيئة لعقد هذا الاجتماع

في موسم الحج، فخرجت من حلب في محرم عام (١٣١٦) وعدت إلى مكة المكرمة في أوائل ذي القعدة، فوجدت أن معظم الذين استجابوا للدعوة ممن كنت قد اجتمعت بهم من العلماء الأفاضل قد سبقوني في الوصول إليها، وما أن انتصف شهر ذي القعدة موعد التلاقي، حتى كان قد أتى الباقون، عدا الأديب البيروتي الذي اعتذر عن المجيء لأسباب قبلناها منه، وأثناء انتظارنا لمنتصف الشهر اتصلت ببعض الأصدقاء في المدن الإسلامية النائية، ليتحروا ويختاروا اثني عشر عضوا من تلك المدن لإضافتهم للجمعية، وقمت باستئجار دار في حي متطرف من أحياء مكة لعقد الاجتماعات فيها تحت اسم ((بواب داغستاني روسي)) (٢)، لتكون في مأمن من التعرض والاعتداء، وقد انعقد من منتصف الشهر حتى نهايته اثني عشر اجتماعا غير اجتماع الوداع، جرت فيها مباحثات مهمة، تم ضبطها وتسجيلها بالكامل .

الاجتماع الأول

تأسيس الجمعية وخطبة الرئيس

الاثنين / ١٥ / ذي القعدة / ١٣١٦ هجرية

في أول اجتماع للمؤتمر، اتخذ المؤتمر شعارا له ((لا نعبد إلا الله))، وخطب فيه الرئيس مبينا أن المسلمين في حالة تقهقر، بينما يتمتع العالم الغربي بنهضة كبرى، كنا نحن حملة لوائها، ثم زالت عنا منذ أكثر من ألف عام، ولا بد لنا من أن ننصر ديننا، وأن نسعى لإقامة الحكم على أساس ديمقراطي لننهض من جديد، ثم دارت في هذه الجلسة مناقشات ومباحثات حول وصف الحالة الحاضرة وتبيان أسباب الخلل الذي ينذر بسوء عاقبة للأمة إذا استمر أبناؤها على ما هم عليه من جهل وكسل، ثم وجه المتباحثون اللوم إلى الناس جميعا، وفي مقدمتهم الأمراء والعلماء، لأنهم لا يتعاونون من أجل النهضة، على الرغم من معرفتهم أن يد الله مع الجماعة، وأن الجماعة لا تتفق إلا بنبذ اختلاف المذاهب وبالانضواء تحت لواء جمعية وظيفتها النهوض بالأمة من وهدة الجهل والغفلة، ثم حدد المؤتمرون المسائل الأساسية التي ينبغي أن تدرس وتناقش في جلسات هذا المؤتمر، وهي : موضع الداء وأعراضه وجراثيمه، وما هو الداء، وما هي وسائل استعمال الدواء. ثم ما هي الإسلامية، وكيف يكون التدين بها، وما هو الشرك

الخفي، وكيف تقاوم البدع، ثم تحرير قانون لتأسيس جمعية تعليمية .

يقوا الكواكبي : في اليوم المذكور، عقدت الجمعية اجتماعها الأول، وأعضاؤها [٢٢ عضوا فاضلا]، جميعهم يحسنون العربية، تعرف الجميع على بعضهم، وأعطي لكل منهم بطاقة تعرف به، اسمه ونسبته ومذهبه ومزاياه الخاصة ورقم شيفرة خاص به. ثم جاهرت بشعار المؤتمر الذي اتفقت مع الجميع عليه من قبل وهو ((**لا نعبد إلا الله**))، وخاطبتهم بقولي ((من كان منكم يعاهد الله على الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، والإخلاص لإخوان التوحيد أعضاء هذه الجمعية المباركة، فليجهر بقوله على عهد الله بالجهاد والأمانة، ومن كان لا يطيق العهد فليعتزلنا))، وما إن جال نظري فيهم حتى بادر الجميع إلى عقد العهد .

ثم دعوتهم لأن ينتخبوا من بينهم رئيسا للجمعية، يدير مباحثاتها ويرأس جلساتها، وآخر كاتبا يضبط المفاوضات ويسجل المقررات، فأجابني العلامة المصري ((أن الجميع حديثي المعرفة بعضهم لبعض، وأنت أكثرنا معرفة بالجميع وأنا أترك لك الخيار))، فورا وافقه الجميع على رأيه، حينها أعلنت أني أختار الأستاذ المكي لرئاسة الجمعية، وأختار نفسي لخدمة الكتابة حتى أجنب الآخرين عبء هذه المهمة، وطلبت من الإخوة الأعاجم أن يكتبوا رأيهم بالفصحى، أظهر الجميع الرضا والتصويب، وأعلن الأستاذ المكي قبوله مهمته، وشكر الجميع على حسن ظنهم فيه، وبعد هدوء ساد، بدأ الرئيس بإلقاء كلمته التي جاء فيها :

((الحمد لله الذي جمعنا على دينه وتوحيده، وأمرنا بالتعاون على البر والتقوى، والصلاة والسلام على نبيه القائل : المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا (٣)، وعلى آله وصحبه الذين جاهدوا في سبيل الله انتصارا لدينه، وكان أمرهم شورى بينهم، ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا .

السادة الكرام : تعلمون سبب اجتماعنا هذا وكلكم بحثه مع أخينا السيد الفراتي، الذي أجبنا دعوته لهذه الجمعية شاكرين سعيه، لذلك لا أرى لزوما لذكر الأسباب، كما لا أجد حاجة لتنشيط همتكم وتأجيج حماسكم، فكلنا في العناء سواء .

ثم قال : إن مسألة تقهقر الإسلام بدأت منذ ألف عام وأكثر(٤)، وما حفظ عز هذا

الدين هذه القرون المتوالية إلا متانة أساسه، لقد انحطت أمم أخرى أكثر من المسلمين، لكن بعضها تقدم وتفوق علينا بالعلوم والفنون المنيرة للعقول، واعتنت بتقدمها إلى أن استطاعت أن تنشر نفوذها على المسلمين وعلى غير المسلمين، والمسلمون مازالوا في سباتهم إلى أن أصاب الشلل جميع أطراف الدولة الإسلامية، وقد اقترب الخطر من قلبها وأعني به ((جزيرة العرب)) .

لقد تنبه بعض المتنورين للخطر المحدق وإلى عواقبه، فهبوا ينشرون المواعظ ويذكرون بالأخطار المرتقبة، فكثر المتنبهون وتحرك الناس، لكنها كانت حركة غير هادفة وقوتها مشتتة، ونأمل من الله أن يمكن جمعيتنا من توحيد الهدف وجمع هذه القوة، والمتتبع للمقالات التي تنشر حول هذه المسألة يجدها تركز على أربعة نقاط :

١ – بيان الحالة الحاضرة ووصف أعراضها .

٢ – بيان أن سبب الخلل النازل هو الجهل الشامل، وهو بيان إجمال وتلميح وليس بيان تفصيل وتوضيح .

٣ – إنذار الأمة بسوء العاقبة المنذر.

٤ – تحميل المسؤولية للأمراء والعلماء لأنهم لا يتفقون على النهوض، علما أنه في ظل صراعاتهم يستحيل اتفاقهم .

هذه النقاط استوفت حقها في الحديث، لكن لتشخيص المرض علينا :

(١) - أن نبحث عن مركز المرض، والجراثيم المسببة له، حتى يتعين بعد ذلك اختيار الدواء الفعال، الأسهل توفرا والأضمن نتيجة .

(٢) - البحث عن أسلوب إدخال الدواء في جسم الأمة حتى يتجاوز كل الممانعات .

أظنكم أيها السادة تحبذون السرية التي استعملها معظم هؤلاء الكتاب، ولهذه السرية ما يبررها، وعلى جمعيتنا أن تتحلى بها، لكن علينا أن نكون صريحي النصيحة في الدين، دون رياء ولا استحياء ولا مراعاة لذوق عامة أو مستبد، لأن حياء المريض مهلكة، وكتم الأمر المفضوح سخافة، والدين النصيحة ولا حياء في الدين .

ومن موجبات السرية أيضا أن كل ما نفكر فيه معروف لدى الناس لكن بصورة مشتتة، والناس فيه على أقسام، فالعلماء إما جبناء وإما مراؤون مداحون يأبون أن تخالف أقوالهم أحوالهم، وباقي الناس يأنفون سماع النصح من ناصح غير معصوم، ولذلك كان القول من غير معرفة القائل أرعى للسمع وأقرب للقبول والقناعة وأدعى للإجماع .

ثم أيها الإخوة : علينا ترك اختلاف المذاهب جانبا، لأننا جميعا نتبعها تقليدا، وعلينا الاعتماد على صريح الكتاب وصحيح السنة وثابت الإجماع، حتى لا نختلف في آرائنا، ويكون ما نقرر مقبولا عند جميع أهل القبلة .

ثم علينا أيها السادة أن لا ترعبنا أسباب الضعف والفتور الكثيرة التي تعترضنا، كي لا يدخل اليأس إلى نفوسنا، وليس صحيحا قول من قال : أننا أمة ميتة لا أمل لحياة فيها، كذلك ليس صحيحا القول بأنه إذا حل الضعف في أمة من الأمم لا يخرج منها، فهذه أمم اليونان والرومان والأمريكان والطليان واليابان وغيرها، كلها أمم استعادت قوتها بعد تمام ضعفها، ولا فرق بيننا وبينهم سوى في العلم والأخلاق العالية، ومدة حضانة العلم عشرون عاما فقط، ومدة حضانة الأخلاق أربعون سنة (٥)، فعلينا أن نثق بالله الذي لا يعبد سواه، وأن نثق بديننا الذي نشرعزه على العالمين، وهو دين حنيف متين محكم مكين، لا يفضله ولا يقاربه دين آخر في الحكمة والنظام ورسوخ البنيان .

ثم تأكدوا أيها الإخوة أن الأمر ممكن، وهناك من الأمور ما يبشر بان الزمن قد تغير، وظهر في المسلمين أذكياء أحرار وحكماء أبرار، واحدهم بألف وجميعهم بألف ألف، فتشكيل جمعية منظمة منهم كفيلة باختراق حزب الشيطان وتسترعي سمع الأمة مهما كان رقادها عميق، وتقودها إلى النشاط حتى وإن كانت في فتور مستحكم عميق، وانعقاد جمعيتنا هذه من أكبر المبشرات، خصوصا إذا وفقنا الله إلى تشكيل جمعية قانونية منتظمة، لأن الجمعيات المنتظمة يدوم تأثيرها أكثر من الأفراد، ويد الله دائما مع الجماعة، وهذا هو سر الإنجازات الكبيرة للجمعيات، وهذا هو سر تقدم الأمم الغربية، وهذا هو سر النجاح في كل الأعمال المهمة، وإن كل ما يحصل بقوة قليلة وزمن أطول يكون أكثر ثبوتا ورسوخا من الأعمال التي تتم بقوة كبيرة وزمن قصير، ومسألتنا أكبر من أن يفي بها عمر إنسان بمفرده، أو سلطان غير مهتم، أو قوة حمقاء تظهر سريعا وتذهب سريعا .

علينا أن نشكل الجمعية حتى لو ابتدأنا باثنين، من ثم يزداد عددها حتى تأخذ شكلها النهائي، وعلينا أن لا نتوهم بأن الجمعيات في الشرق تسيطر عليها السياسة، فلا تعيش طويلا، خاصة إذا كانت فقيرة وليست تحت حماية رسمية، وعلينا أن نتوقع الخير، وليس عزيزا على الله أن يمكننا من تشكيل جمعية إذا ناد مناديها حي إلى الفلاح في رأس الرجاء الصالح بلغ صداه إلى الصين .ونتمنى أن تكون الحكومات الإسلامية راضية عنها وحامية لها، لأن مهمتها الأساسية النهوض بالأمة من رهدة الجهالة والترقي بها في مدارج المعرفة، مبتعدة عن كل صبغة سياسية .

ولنبدأ بتشخيص داء الفتور المستولي على الأمة، تشخيصا سياسيا دقيقا، فعليكم أيها السادة أن تعملوا ذهنكم في أسباب هذا الفتور، وسوف نناقش كل الآراء في اجتماعاتنا التي تعقد يوميا من بعد طلوع الشمس بساعة إلى قبيل الظهر، عدا يومي الثلاثاء والجمعة، ويفتتح كل اجتماع بقراءة المباحثات التي تمت في الاجتماع السابق، ثم تبدأ المناقشات .

وأختم اجتماعنا اليوم بطرح برنامجنا الأساسي الذي تدور عليه المباحثات، وهي تتألف من عشرة نقاط :

١- موضع الداء . ٢ – أعراض الداء . ٣ – جراثيم الداء . ٤ – ما هو الداء .

٥ – ما هي وسائل استعمال الدواء . ٦ – ما هي الإسلامية . ٧ – كيف يكون التدين بالإسلامية .

٨ – ما هو الشرك الخفي . ٩ – كيف تقاوم البدع . ١٠ – تحرير قانون لتأسيس جمعية تعليمية .

وبعد انتهاء خطاب الرئيس، دعاهم السيد الفراتي لتناول طعام الغداء، وبعد الطعام عرض عليهم بعض المشروبات مثل الشاي والقهوة وبعض المشروبات المثلجة، ثم انصرف الجميع مجيبين دعوة المؤذن للصلاة .

*   *   *

الاجتماع الثاني

الداء أو الفتور العام

الأربعاء / ١٧ / ذي القعدة / ١٣١٦ هج

يبحث المجتمعون في هذا الاجتماع في أسباب الفتور الذي بدا متمثلا في تحول السياسة الإسلامية من ديمقراطية إلى ملكية مقيدة ثم إلى ملكية مطلقة ، وفي تأصل الجهل في غالب أمراء المسلمين المترفين، وفي فقدنا حرية التعليم والخطابة والمطبوعات والمباحثات، بمعنى فقد حرية العلم و التعليم وحرية التعبير بكافة أشكالها بالخطابة أو بالكتابة، وأكد المجتمعون على أن السبب الأعظم لمحنتنا هو انحلال الرابطة الدينية وتركنا أمورنا إلى الفوضى، مما أفشا فينا الفساد، وصرنا نتبع الأشخاص بدلا من التمسك بديننا الحنيف، الذي يدعو إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فبعد قراءة ضبط الجلسة الأولى، قال الأستاذ الرئيس : إن كثيرا من الباحثين يشبهون ما حل بالمسلمين بالمرض، ويصفونه بالدفين أو المزمن أو العضال، وأنا أرى أن إطلاق صفة الفتور العام يناسب حالتنا أكثر، لتعلق الحالة التي نعاني منها بالأدبيات أكثر منها بالماديات، ولأن آخر ما تتصف به هو ضعف الحس، بالتالي فإن تعبير الفتور هو ما يناسب الحالة .

ولأن الفتور يصيب كافة أعضاء الجسم الإسلامي، فمن المناسب وصفه بالعام ، والسؤال الذي يطرح نفسه : لماذا يلازم هذا الفتور المسلمين منذ قرون؟ من أي قوم كانوا وأينما وجدوا، وما من قريتين أو حيين أو بيتين في قرية متجاورين، أحدهما من المسلمين والآخر من غير المسلمين، إلا ونجد المسلمين أقل من جيرانهم نشاطا وانتظاما في جميع شؤون الحياة، وأقلهم إتقانا في كل صنعة .فما سبب تعمم هذا الفتور ؟ وما سبب ملازمته للجماعة المتدينة تلازم العلة بالمعلول ؟ بحيث أينما وجد المسلمون وجد هذا الداء، حتى قال احدهم : أن الإسلام والنظام لا يجتمعان .

هذا ما يجب البحث فيه عسا أن نهتدي لجرثومة الداء، فنسعى لعلاجها، حتى إذا ارتفعت العلة برئ العليل إن شاء الله .

الصاحب الهندي :صحيح أن الفتور العام يصيب المسلمين كافة، لكني أرى أن بعض النحل الوثنية شديدة التعصب، كبقايا الصابئة (٦) حول دجلة (٧)، الذين يضيعون كثيرا من وقتهم منغمسين في الماء تعبدا، وكالكونغو من الزنوج، أو البوذيون من الهنود، الذين يعتقدون أن كافة مصائبهم حتى الموت تأتي بفعل السحرة، وجميع هؤلاء أكثر فتورا من المسلمين .

الأستاذ الرئيس : كلام الصاحب الهندي صحيح، فالمذاهب المتعصبة من النحل الأخرى أكثر تخلفا من المسلمين .

الحافظ البصري : يجب استثناء الدهريين والطبيعيين وأمثالهم مما لا دين لهم، لأن هؤلاء يكونوا عادة بدون قيم وبلا أخلاق، معذبين في حياتهم، متخلفين عن أهل الأديان، كما يعترف الطبيعيون بذلك، فيقولوا عن أنفسهم أنهم أكثر الناس شقاء في الحياة .

فأجابه الصاحب الهندي : كنت أعتقد أن هناك بشرا لا دين لهم، ومن يكون كذلك لا أخلاق لديه، ولكن إذا كان الدين بمعناه العام هو: ((**إدراك النفس وجود قوة غالبة تتصرف في الكائنات، والخضوع لهذه القوة على وجه يقوم في الفكر، هو أمر فطري في البشر**))، والقول بأن فلان دهري أو طبيعي هو صفة لمن يتوهم أن تلك القوة هي الدهر أو الطبيعة فيدين بها، لذا لا يصح وصف إنسان أنه بلا دين، بل لكل إنسان دينه، وهذا الدين إما أن يكون صحيحا أو فاسدا .

الأستاذ الرئيس : أتمنى أن لا يصر أي منا على رأيه، ويتعصب في الدفاع عنه، واعتبار أن ما يقوله أي منا مجرد رأي يحتمل الصواب والخطأ، فنحن هنا باحثون لا متناظرون، نتبارى في تقديم الحجج والبراهين لا للفوز بمكافأة أو بشهرة، ولكن لنقف على أسباب الفتور العام، ولا بأس إن أعجبنا قول أحدنا أن نقول له مرحى .

الفاضل الشامي : أنا أرى أن سبب الفتور هو بعض المعتقدات الدينية والأخلاقية، كالعقيدة الجبرية (٨)، والتي بعد كل التعديلات التي طرأت عليها جعلت الأمة جبرية باطنا وقدرية (٩) ظاهرا .

ومن الأسباب أيضا، الحث على الزهد في الدنيا والقناعة باليسير والاكتفاء بالقليل

والابتعاد عن بعض مطالب النفس كحب المجد والرياسة، والابتعاد عن الزينة والتفاخر والإقدام، والترغيب في أن يعيش المسلم كميت وهو لم يمت بعد، أعتقد أن كل هذه الأشياء تعتبر، مفترات، مخدرات، مثبطات، معطلات، لا يرتضيها عقل ولم يأت فيها شرع .

أجابه البليغ القدسي : هذه الأصول الجبرية والتزهيدية موجودة في كل الديانات لتخفف من حدة الطمع المتأصلة في النفس البشرية، وتدفع بها إلى الاعتدال، ولكي تخفف عن العاجزين وتنفس عن المقهورين، رغبة في حصول المساواة بين الأغنياء والفقراء في مظاهر النعيم، ألا ترى إلى إجماع الأديان على أن القدر خيره وشره من الله، أو أن خيره من الله وشره من النفس أو من الشيطان، ومع هذا لا نرى من البشر من ينسب شيئا إلى القدر إلا في حالتين :

الأولى : عند الجهل بالأسباب، وذلك سترا لذلك الجهل .

الثانية : عند العجز عن الحصول على الخير أو دفع الشر، وذلك سترا لذلك العجز.

وبالتالي فنحن نرى أنه يغلب على المسلمين الجهل بأسباب المسببات الكونية، والعجز عن أي عمل، فالتجؤوا إلى القدر والزهد تمويها لا تدينا، لذلك لا يصح اعتبار هذه الأصول الجبرية والتزهيدية سببا للفتور بل نتيجة له، وأنا أرى أن سبب الفتور هو تحول الحكم في الإسلام من حكم شوري ((ديمقراطي)) أيام الخلفاء الراشدين، إلى ملكي دستوري ثم ليتحول في النهاية إلى حكم استبدادي مطلق. أما سبب هذا التحول هو أن قواعد الشرع كانت في البداية غير مكتوبة بسبب انشغال الصحابة في الفتوحات وتفرقهم في البلاد، فحين تم تدوين وضبط قواعد الشرع، ظهرت بين آراء العلماء اختلافات، وتحكمت فيها آراء الدخلاء، فرجحوا الأخذ بما يلائم نزعاتهم الوثنية، واتخذ حكام بعض الولايات لاسيما المتطرفين منهم هذه الاختلافات في الأحكام أسبابا للانقسام والاستقلال السياسي، فتمزقت الدولة الإسلامية إلى طوائف ودويلات تختلف مذهبا، متعادية سياسة، يقاتل بعضها بعضا، بالتالي خرج الدين من يد مؤسسيه، وتفرقت كلمة الأمة، فطمع فيها أعداؤها، وصارت معرضة للحروب الداخلية والخارجية معا، هذه الحروب الطويلة دفعت بأبناء الأمة لامتهان مهنة الحرب ويبتعدوا عن كافة الفنون

والصنائع وأسباب الكسب الأخرى، وبعد فقدان معظم القواد وتخلف معدات القتال، لم يعد مجال والحالة هذه لحروب رابحة فاقتصروا على الدفاع ، وحين صار القتال عند غيرنا فنا وعلما وحرفة، ونحن لا نمتلك من ذلك شيء لجأنا إلى الحيلة والتحايل بدل البناء والوحدة، وهذا برأيي سبب الفتور .

فأجابه الحكيم التونسي : لكن دولة كألمانيا مثلا، فيها حكومة مطلقة، وفيها اختلافات مذهبية وانقسامات داخلية، وهم في حروب مستمرة، ومع هذا فهم ليسوا في حالة فتور، فلابد لفتور المسلمين من أسباب أخرى، وأنا أرى أن سبب فتور المسلمين هو، تأصل الجهل في الأمراء المترفين، حتى البهائم والحيوانات تحمي أبناءها وتدافع عن حدودها، أما هؤلاء فهم يخربون بيوتهم بأيديهم وهم لا يشعرون، والبعض الآخر يدعي الإصلاح السياسي ويبدي الرغبة فيه ظاهرا، لكنهم في الحقيقة يبطنون الإصرار والعناد على ما هم عليه من إفساد دينهم ودنياهم، هذا العناد وهذا الغرور لا شفاء منه ولا يقر صاحبه بفضيلة لصاحب فضيلة، وهذا الداء انتشر من الأمراء إلى العلماء إلى الكافة .

أجاب المولى الرومي : أرى أن تحميل الأمراء المسؤولية وحدهم غير صحيح، وما هم إلا جزء منا، فهم يشبهوننا في كل شيء، وقد قيل ((كما تكونوا يولى عليكم))، ولو لم نكن نحن مرضى، لما كان حكامنا مدنفين، وعندي أن سبب ما نحن فيه هو فقدنا للحرية، والحرية تعني : ما حرمنا معناه حتى نسيناه، وحرم علينا لفظه حتى استوحشناه (١٠). وعرف بعضهم الحرية بأنها : أن يكون الإنسان مختارا في قوله وفعله لا يعترضه مانع ظالم .

ومن فروع الحرية : تساوي الحقوق ، ومحاسبة الحكام باعتبارهم وكلاء، وعدم الخوف من المطالبة وبذل النصيحة .

وأما أنواع الحرية فهي : حرية التعليم، حرية الخطابة والمطبوعات (حرية التعبير والصحافة)، حرية المباحثات العلمية (حرية البحث العلمي)، العدالة واستقلال القضاء حتى لا يخشى إنسان من ظالم أو غاصب أو غادر، الأمن على الدين والروح والشرف والعرض والأمن على العلم واستثماره، والحرية هي روح الدين، يقول حسان بن ثابت (رض)(١١) :

وما الدين إلا أن تقام شرائع وتؤمن سبل بيننا وهضاب

فقد حصر هذا الصحابي الجليل الدين بإقامة الشرع والأمن، بمعنى سيادة القانون والأمان .

والحرية هي أعز ما يملك الإنسان بعد حياته، وبفقدها تفقد الآمال، وتعطل الأعمال، وتموت النفوس، وتتعطل الشرائع، وتختل القوانين، وكان الواحد منا ينادي الأمير باسمه، وأصبحنا نقتل الطفل في حضن أمه ونلزمها السكوت كي لا تزعجنا ببكائها عليه، في مثل هذه الحالة لابد أن يستولي علينا الفتور، وتوالت القرون ونحن على هذه الحال، فتركنا الأعمال وابتعدنا عن الجد وارتحنا للكسل وانغمسنا في اللهو وأخلدنا للخمول، وصرنا ننفر من كل ما هو جدي ومفيد، ونبتعد عن مطالعة الكتب المفيدة، ولا نصغي لنصيحة، هذا وألف بعضنا الاستعباد والاستبداد والذل والهوان، وصار الانحطاط طبعا لهم تؤلمهم مفارقته، وأصبح الأخ لا يتألم لآلام أخيه، والبعض يعتبر الإصلاح مروق من الدين، كأن مجرد كون الأمير مسلما يغني عن كل شيء حتى عن العدل، وإن طاعته واجبة حتى وإن كان يخرب بلادهم ويقتل أولادهم ويقودهم ليسلمهم لحكومات أجنبية، **والنتيجة إن فقدنا للحرية هو سبب الفتور والتقاعس عن كل صعب ميسور .**

أجاب المجتهد التبريزي : لكن هذه الحالة ليست عامة مع أن الفتور في ازدياد واستحكام، لذا لابد له من أسباب أخرى، وأنا أرى أن انحطاطنا من أنفسنا، فقد كنا خير أمة أخرجت للناس، نعبد الله وحده، نطيع من أطاعه، نأمر بالمعروف وننهي عن المنكر، أمرنا شورى بيننا، نتعاون على البر والتقوى، ولا نتعاون على الإثم والعدوان، والنهي عن المنكر إزالته بالفعل فإن لم يكن فبالقول وإلا فبالقلب، أي بالإعراض عن مرتكبه وعدم معاملته ومجاملته، وعنه (ص) : ((لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليستعملن الله عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب)) .

فقال المرشد الفاسي : كنا على عهد السلف الصالح، شريعتنا سمحاء واضحة المسالك، معروفة الواجبات والنواهي، وكان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفة لكل مسلم ومسلمة، ثم شغلنا شأن التوسع والفتوحات فخصصنا لذلك محتسبين (١٢)، ثم دخل في ديننا أقوام ذوي بأس ونفاق، أقاموا الاكتساب بدل الاحتساب، وحصروا

همهم في الجباية عن طريق الجنود، فبطل الاحتساب وبطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا من جملة أسباب الفتور وليس كلها .

والاهتمام بالجباية والجند أدى إلى إهمال الدين طبعا، ولم يبق منه إلا بعض مظاهره، خاصة عند بعض الأمراء الأعاجم الذين يتظاهرون بالدين لفرض سيطرتهم على البسطاء من العامة، وهم في حقيقة أمرهم مشركون، وإذا أضيف لشركهم ظلمهم وجورهم فإن العقل والشرع يحكم بأن ملوك الأجانب أفضل منهم وأولى بحكم المسلمين، لأنهم أقرب للعدل ولإقامة المصالح العامة وأقدر على تعمير البلاد وترفيه العباد .

وحكا ((**ابن طباطبا**)) (١٣) في ((الآداب السلطانية والدول الإسلامية)) أنه لما فتح هولاكو المجوسي(١٤) بغداد سنة [٦٥٦هج = ١٢٥٨م]، أمر أن يستفتى علماؤها، **أيهما أفضل السلطان الكافر العادل أم السلطان المسلم الجائر ؟ !** فاجتمع العلماء في المستنصرية لذلك، فلما وقفوا على الفتيا أحجموا عن الجواب، حيث كان **رضي الدين علي بن طاووس** حاضرا، وكان مقدما محترما، فتناول الفتيا ووضع خطه فيها بتفضيل العادل الكافر على المسلم الجائر، فوضع العلماء خطوطهم بعده .

وأظن أن سبب ما نحن فيه هو انحلال الرابطة الدينية، لأن الولاء في ديننا يقوم على الولاء لكافة المسلمين، والإمام وحده هو المختص بحفظ رابطة المسلمين والسيطرة على شؤونهم العامة، وإلا كان الأمر فوضى، كما هو الآن .ومن أين لنا بواحد كبسمارك أو كغاريبالدي (١٥)، يوفق بين أمرائنا، يوحدنا ويجمع كلمتنا .

ومن الأسباب الأخرى لما نحن فيه فقداننا للروابط الوطنية أو القومية، لأن المسلمين في غير جزيرة العرب لفيف أخلاط دخلاء، وبقايا أقوام شتى، لا يجمعهم سوا توجههم للقبلة .

أجاب المحقق المدني : إن فقد الرابطة الدينية والوحدة الخلقية، لا يكفيان سببا للفتور، وأنا أرى أن سبب الطامة التي نحن فيها هو تشويش الدين والدنيا على العامة بفعل العلماء المدلسين وغلاة المتصوفين، الذين استولوا على الدين فضيعوه وضيعوا أهله، لأن الدين يعرف بالعلم والعلم يعرف بالعلماء، وحين استحال على بعض الضعفاء مزاحمة العلماء علما ومظهرا، سلكوا في الدين مسلك الزاهدين، ولجأوا للتصوف،

كما يلجأ فاقد المجد إلى الكبر، وكما يلجأ قليل المال إلى زينة اللباس والأثاث، فصار هؤلاء يأولون القرآن بما لا يحتمله، فيفسرون البسملة مثلا أو الباء منها بسفر كبير مملوء بألفاظ لا معنى لها، أو بحكم لا برهان عليه، وجاءوا الأمة بوراثة أسرار ادعوها، وعلوم لدنيات ابتدعوها، وتسنم مقامات اخترعوها، ووضع أحكام لفقوها، وترتيب قربات زخرفوها .فسحروا بذلك عقول الجهلاء، واختلبوا قلوب الضعفاء كالنساء، وذوي الأهواء، والأمراء الليني القياد، إلى الشرك طبعا، ذلك لأن التعبد باللهو واللعب أهون على النفس والطبع من القيام بتكليفات الشرع، وكانت عبادتهم كعبادة المشركين التي وصفها الله تعالى بقوله ((وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية)) (١٦)، أي صفيرا وتصفيقا. فهؤلاء جعلوا عبادة الله تصفيقا وشهيقا وخلاعة ونعيقا، وادعوا الكرامة على الله والتصرف بالمقادير، واستمالوا العامة إلى الزهد الكاذب والورع الباطل والتقشف، وصعبوا على الجاهلين الدين بطريق العلم ودعوهم للعمل بظاهر الشرع، وجلبوا الناس بالترغيب والترهيب، بالترغيب من الاستفادة بالدخول في جماعاتهم وأشياعهم، والترهيب بتهديد معاكسيهم والظانين بهم بإضرارهم في الأنفس والأولاد والأموال، ضررا يتعجلهم في دنياهم قبل آخرتهم.

وانتشر هؤلاء في كل المدن الإسلامية، خاصة سوقهم المقامة في القسطنطينية منذ أربعة قرون، حتى صارت فيها هذه الأوهام السحرية والخزعبلات كأنها هي دين معظم أهلها لا الإسلام، وسرت هذه الظاهرة إلى الأمراء إلى العلماء الأغبياء إلى العوام .

ونال هؤلاء المدلسون بسحرهم نفوذا عظيما، أفسدوا به كثير من الدين، فجعلوا من المدارس تكايا للبطالين الذين يشهدون لهم زورا بالكرامات المرهبة، وحولوا المساجد مجامع للطبالين الذين ترتج من دوي طبولهم قلوب المتوهمين، وتكفهر أعصابهم، فيتلبسهم نوع من الخبل يظنونه حالة من الخشوع، وبه جعلوا زكاة الأمة ووصاياها رزقا لهم، وبه جعلوا مداخيل أوقاف الملوك والأمراء عطايا لأتباعهم، مما يسمى في البلاد العثمانية (دعاكو وطعامية) .

هذا الإلتباس بين الدين الحقيقي وهذه المظاهر بين علماء الدين الحق وهؤلاء المدلسين، هو سبب ما نحن فيه من فتور .

أجابه المولى الرومي : إن كل الديانات معرضة لأنواع الفساد والتشويش، لكني أرى أن سبب شقاء بني حواء هو أمر واحد لا ثاني له، وهو فساد السلطة السياسية أو تفرد شخص أو أشخاص فيها.

هنا نبه السيد الفراتي الأستاذ الرئيس لقرب نهاية الانصراف، عندها جهر الأستاذ الرئيس بشعاره ((لا نعبد إلا الله)) إعلانا لنهاية الجلسة، وقال إن أخانا المولى الرومي لفارس مغوار، نتمنى أن نسمع منه المزيد من الشرح والتفصيل، وموعدنا غدا إن شاء الله .

*　　　*　　　*

الاجتماع الثالث

الداء أو الفتور العام

الخميس ١٨ / ذي القعدة / ١٣١٦ هج

تمحور هذا الاجتماع حول بحث الداء، وحمل المجتمعون مسؤولية هذا الداء إلى المتعممين الجهلة الذين يزينون للأمراء معاداة الشورى، ويحثونهم على الانفراد بالرأي من دون الناس جميعا، حتى أمسى الأمراء يتلاعبون بمصير الأمة وبمصائر أفرادها، وصارت الحكومات تجبي الأموال من الفقراء وتمنحها للأغنياء الذين يوالونها، ففشا الفقر وكثر الفقراء، مما أدى إلى الجهل وفساد الأخلاق وتشتت الآراء، وفقدت حكمة الجماعة والجمعية واجتماع الحج معانيها، إذ ترك الخطباء التحدث بالأمور العامة وعدوا ذلك لغوا لا طائل وراءه، وهكذا تأصل فيهم فقد الإحساس وانتشر تحريف الدين بحيث غدا الدين يعني الطاعة العمياء والإتكالية، والواجب عليهم والحال هذه أن يدعوا إلى الرشد والإصلاح وترك الخرافات، وحتى يصلوا إلى ذلك لا بد لهم من إصلاح أنفسهم أولا، عملا بقوله تعالى ((إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)) .

فبدأ الاجتماع بقول الأستاذ الرئيس : نحن متشوقون لسماع ما بقي من حديث المولى الرومي، ثم أمر السيد الفراتي بقراءة مناقشات الاجتماع السابق، فقرأه إلى أن انتهى إلى حديث المولى الرومي.

قال المولى الرومي : وعندي أن سبب الداء هو دخول ديننا تحت ولاية العلماء الرسميين، وبعبارة أخرى تحت ولاية الجهلة المتعممين، وهم المقربون من الأمراء على أنهم علماء، وارتباط القضاء والإمضاء بهم، وهؤلاء اتخذوا لأنفسهم قانونا سموه (طريق العلماء)، صار العلم بموجبه منحة تعطى للجهال والأميين وحتى الأطفال، يترقى صاحبها بمراتب العلم والفضل والكمال، بمجرد تقادم السنين، أو حسب ما لديه من واسطة، خاصة إن كان من الأصلاء، فصرنا نرى طفلا في المهد ينعت في منشوره الرسمي من قبل حضرة السلطان بأنه ((أعلم العلماء المحققين))، ويكون فطيما فيوصف بأنه ((أفضل الفضلاء المدققين))، وإذا صار مراهقا يعطى المولوية (١٧)، ويشهد له بأنه ((أقضى قضاة المسلمين، معدن الفضل واليقين، رافع أعلام الشريعة والدين، وارث علوم الأنبياء والمرسلين، إلى أن يوصف بأعلم العلماء المتبحرين، وأفضل الفضلاء المتورعين، ينبوع الفضل واليقين))(١٨)، إلى آخر ما في هذه القائمة من الكذب المشين.

وهم بالمقابل ينعتون السلطان بألقاب مثل ((المولى المقدس، واهب الحياة، ظل الله، خليفة رسول الله، مهبط الإلهامات ومصدر الكرامات، سلطان السلاطين، مالك رقاب العالمين، ولي نعمة الثقلين، ملجأ أهل الخافقين ..)) إلى غيرها من صفات الشرك والكبرياء.

ويكفي هؤلاء العلماء حجة عليهم، تميزهم بهذا اللباس العروسي المحلى بكثير الفضة والذهب، مما هو حرام بالإجماع، ولا يحتمل التأويل .

ثم إن هؤلاء المتعممين لم يكفهم هذا القانون فألحقوا به قانوننا آخر سموه ((توجيه الجهات))، جعلوا فيه التدريس والإرشاد والوعظ والخطابة والإمامة وسائر الخدمات الدينية، سلع تباع وتشترى، توهب وتورث، يبيعها القضاة لمن يريدون ويتكرمون بها على المتملقين، فانحصرت الخدمة الدينية في الجهلاء والمنافقين.

وعندما وضع قانون (تشكيل الولايات)، لم يرض المتعممون إلا أن يعينوا قاض ومفتي في كل بلد، يكونا في مجلس إدارتها، وكثيرا ما يحكموا بأشياء تخالف الشرع، ولما وضع ((قانون العدلية))، تهافت المتعممون لجعل قاضي المسلمين رئيسا للمحاكم النظامية يحكم بما لم ينزل الله مثل الربا، ويبطل حدود الله ويستبدلها بعقوبات

سياسية أو غرامات مالية، والمعاقبة بمجرد الظن وشهادة الواحد وشهادة الفاسق وشهادة العاهرة المجاهرة .

ومن أهم دسائس المتعممين، أنهم ينفثون في صدور الأمراء لزوم الاستمرار في الاستقلال في الرأي (١٩) وإن كان مضرا، ومعاداة الشورى وإن كانت سنة، والمحافظة على الحالة الجارية وإن كانت سيئة، ويلقون في مسامعهم أن مشاركة الأمة في تدبير شؤونها، وإطلاق حرية الانتقاد لها، يخل بنفوذ الأمراء ويخالف السياسة الشرعية .

والأسوأ من ذلك، أن هؤلاء الأمراء يتسلحون بهذه الحجج الواهنة في مواجهة ما يعترضهم من انتقادات الدول الأجنبية التي تقول : إن قواعد الدين الإسلامي لا تلائم الشورى، ولا تقبل النظام والترقيات المدنية، و هؤلاء الأمراء مغلوبون على أمرهم لأنهم مضطرون لمراعاة دين رعاياهم من جهة ومجاراة الفكروالتطور العام من جهة أخرى .

بهذه القوانين استأثر الجهلاء الفاسقون بمزايا العلماء العاملين، واغتصبوا أرزاقهم من بيت المال ومن أوقاف الأسلاف، فقلت الرغبة في تحصيل العلم، وثبطت الهمم، وصارطالب العلم يكتفي باليسير منه، ويسعى للارتزاق، ففسد العلم وقل أهله واختلت التربية الدينية في الأمة، فوقعنا في الفتور وعمت فينا الشرور.

أجاب الرياضي الكردي : إن أسباب الفتور هذه، قد تصلح لبعض الأمم ولا تصلح لغيرها، وأنا أرى أن سبب ما نحن فيه من فتور، هو أن علماءنا اقتصروا في علمهم على العلوم الدينية وبعض الرياضيات، وأهملوا باقي العلوم الرياضية والطبيعية، ففقد أهل هذه العلوم من بين المسلمين، واندثرت كتبها وصارت علوما منفورا منها، ورمي المهتم فيها بالفسق والزندقة (٢٠)، على أن هذه العلوم نمت في الغرب وتطورت، وظهرت لها فوائد عظيمة في كافة الشؤون المادية والأدبية، حتى صارلا غنى عنها لكل تقدم، ولا حياة لذي حياة إلا بنورها، وأصبح المسلمون اقتداء بغيرهم بحاجة إليها في كافة شؤون حياتهم من تربية الطفل إلى سياسة الممالك، ومن استنبات الأرض إلى استمطارالسماء، ومن عمل الإبرة والقوارير إلى عمل المدافع والبوارج، ومن استخدام اليد والحمار إلى استخدام البرق والبخار.

ولولا هذا القصور في الاهتمام بالعلوم الرياضية والطبيعية لما وقع المسلمون في هذا

الفتور، والأهم من هذا أن الدين المملوء بالخرافات والعقل المتنور لا يجتمعان في دماغ واحد، ورغم أن عصرنا الراهن قد أثبت أهمية هذه العلوم، إلا أن المسلمين مبتعدون عنها، ومقتصرين على تدريس اللغة والفقه فقط، إضافة لبعض المنطق إتماما للعقائد، وشيء من الحساب إكمالا للفرائض والمواريث .

ووعاظنا مهتمون بالنوافل والقربات ورواية الإسرائيليات ونوادر الزهاد من صحيح وموضوع، ورواية كرامات الأنجاب و النقباء وعلى ضبط وزن التمايل وأصول الإنشاد، وخطباؤنا يقتصرون على تكرار عبارات في النعت، والدعاء للغزاة والمجاهدين، وتعداد فضائل العبادات .

والنتيجة أن ابتعاد المسلمين عن هذه العلوم جعلهم أحط الأمم، وإذا استمروا على هذه الحال خمسون عاما أخرى، سوف تكون المسافة بينهم وبين جيرانهم كالبعد بين الإنسان والحيوان، بالتالي فإن ابتعادنا عن ناموس الارتقاء هو المسبب لهذا الفتور .

أجابه الكامل الاسكندري : قد يكون هذا سبب من الأسباب، ولكن ليس كل الأسباب، وأنا أرى أن سبب فتورنا هو يأسنا من المنافسة، فقد كنا علماء راشدين وكان جيراننا متخلفين، اطمأنت نفسنا لهذه الحالة فنمنا، وتنبه الآخرون فلحقوا بنا، بقينا نياما فسبقونا، وطال نومنا فبعدت المسافة بيننا، وصرنا أكثر الأمم تخلفا، فصغرت نفوسنا في أعيننا وفترت همتنا وضعف إحساسنا فيئسنا من اللحاق والمنافسة، خرجنا من ميدان المنافسة وعدنا إلى كهف النوم مستسلمين للقضاء، نطلب الفرج بالتمني والدعاء فقط، ناسين أن الآمال بالأعمال، وهذا اليأس هو سبب الفتور.

أجابه العارف التاتاري : ولكن ما سبب هذا النوم الذي غشي المسلمين، ولماذا غشي المسلمين دون غيرهم؟

والرأي عندي أننا فقدنا السراة والهداة ، فلا أمير عام حازم مطالع ليسوق الأمة طوعا أو كرها إلى الرشاد، ولا حكيم معترف له بالمزية والإخلاص لتنقاد إليه الأمراء والناس، ولا تربية قويمة المبادئ ينجم عنها رأي عام لا يتطرق إليه التخاذل والانقسام، ولا جمعيات منتظمة تسعى بالخير وتتابع السير، لذلك حل فينا الفتور .

فقال له الفقيه الأفغاني : إن ما وصفته من أميروحكيم لا يوجدان في الأمة إلا اتفاقا، أما الرأي العام والجمعيات فلا يفقدان إلا بسبب فقد الإحساس، وهذا ما نبحث عن أسبابه، والرأي عندي أن سبب ما نحن فيه هو الفقر، والفقر هو مصدر كل شر ورائد كل نحس، وهو سبب جهلنا وفسادنا وتشتتنا في ديننا، ومنه فقدنا إحساسنا .فعددنا كثير، وبلادنا كبيرة ومتواصلة، أرضنا خصبة وغنية، شرعنا قويم وحضارتنا عريقة، ولا ينقصنا عن الأمم الأخرى سوى القوة المالية التي لا تحصل سوى بالعلم والتقنيات العالية، وهذه بدورها لا تحصل إلا بالمال، فوقعنا في حلقة مفرغة، والخوف أن ندخل في قانون فناء الضعيف بالقوي .

ومن أهم أسباب فقر الأمة ، أن شريعتنا مبنية على أساس أن للفقراء حق في أموال الأغنياء، فيؤخذ من الأغنياء ويوزع على الفقراء، أما الآن فقد انقلبت الأمور، فصار يجبى من الفقراء والمساكين، وتعطى للأغنياء، وتحابى بها المسرفين والسفهاء .

أجابه السعيد الإنكليزي : أعتقد أن معظم المسلمين أغنياء، لا يعوزهم المال للتدرج في العلوم، وفريضة الزكاة والكفارات المالية كفيلة لإكفاء حاجة فقراء المسلمين، لكن تعطيل الزكاة والكفارات سبب بعض هذا الفتور، وأنا أرى أن سبب ما نحن فيه هو فقدان الحس الجماعي بين المسلمين، الذين نسوا أو تناسوا أهمية التجمع والجمعة واجتماع الحج، وخوفا من الحكام ابتعد الخطباء عن التعرض للشؤون العامة، والعلماء بسبب جبنهم ابتعدوا عن أمور الشأن العام، وانشغلوا بقضايا ثانوية لا تهم أحدا، وسرى ذلك إلى العام حتى أصبح كل فرد لا يهتم إلا بنفسه، متناسيا أن الجميع لهم حق عليه وله حق عليهم، وأن الإنسان اجتماعي بطبعه، لا يمكن أن يحيى معزولا ، ومع توالي الأيام فقد الجميع إحساسهم بالمسؤولية، لدرجة أنه لو خربت هذه الكعبة لما تقطب لهم جبين، وذلك عكس الأمم التي سبقتنا على طريق التقدم، الذين يهتمون بالأمور العامة وعقد الندوات والاجتماعات لمناقشة القضايا العامة، ويهتمون بتاريخ الأشخاص، وإيجاد المنتزهات العامة للترفيه، إقامة الاحتفالات الرسمية، الاهتمام بالمسرح، والاهتمام بتاريخهم القومي والوطني، الاهتمام بإنشاء الصحف والمجلات، وغيرها من الأمور الهامة للشأن العام .

أجابه الإمام الصيني : هذه أعراض وليست أسباب، ونحن الآن نركز على الأسباب،

وأعتقد أن سبب ما نحن فيه هو تكبر الأمراء، وميلهم للعلماء المتملقين المنافقين، الذين يحرفون الدين لكي يلائم هوى الأمراء، فماذا يرجى من علماء يقبلون يد الأمراء لتقبل العامة أيديهم، ويحقرون أنفسهم للعظماء ليتعاظموا على الضعفاء، أكبر همهم التحاسد والتباغض وتكفير بعضهم البعض أمام الأمراء والعامة، لذلك فأفضل الجهاد هذه الأيام هو فضح أمر هؤلاء العلماء المنافقين، وتحويل الأنظار إلى العلماء العاملين الذين يجب الاهتمام بتنمية معارفهم الدينية ليكونوا أهلا لموقعهم، وهم ما يسمون بأهل الحل والعقد، الذين لا تنعقد الإمامة شرعا إلا ببيعتهم، وهم يقومون مقام مجلس النواب في الحكومات الدستورية.

وإذا نظرنا إلى تاريخ الدولة الإسلامية نجد أن النبي (ص) كان أكثر المسلمين تمثلا لمبدأ الشورى، وترك شأن الخلافة للأمة، وهكذا كانت سيرة الخليفتين من بعده، وعندما ابتعدت الأمة عن الشورى، وتحكم فيها الاستبداد، وأنا أعتقد أن سبب ما نحن فيه هو استحكام الاستبداد في أمرائنا .

أجاب العالم النجدي : إن وضع الصين مختلف عن أوضاعنا هنا، والرأي عندي أن سبب ما نحن فيه هو ابتعادنا عن أمور ديننا، واهتمامنا بقشوره وإهمالنا لأسسه، ولن يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وبعد أن أسهب العالم النجدي في الحديث لدعم فكرته، رفع السيد الرئيس الاجتماع، وانفض المجلس .

* * *

الاجتماع الرابع

الدين والإسلام والشرك والتصوف

السبت / ٢٠ / ذي القعدة / ١٣١٦ هج

دار هذا الاجتماع حول ضرورة ترك الناس الشرك بالله الذي يتمثل بتعظيم الأمراء، كما يحث على ترك التشدد في الدين .

فقد تابع العالم النجدي حديثه الذي بدأه في الاجتماع السابق قائلا، إن الإنسان

فطر على الشعور بوجود قوة غالبة عاقلة، ترتب هذا الكون وفق قوانين ثابتة، العامة يسمونها الطبيعة، والراشدون المهتدون يؤمنون بأن هذه لابد من قائم بها هو الله (عز وجل)، وأن الله (جل جلاله) أرسل للبشرية أنبياءه ورسله يقيمون على عباده الحجة والبرهان، فآمن المؤمنون، ومن المؤمنين نحن معاشر المسلمين، أتانا محمد (ص) صدقناه بأنه رسول الله للعالمين ومصحح ملة إبراهيم، داعيا لعبادة الله وحده، هاديا إلى ما يكلف الله لعباده، ونحن نؤمن أنه أتم رسالته لم يكتم منها شيئا، وليس علينا أن نزيد عليها أو ننقص منها أو نغير فيها شيئا، بل علينا إتباع محكم القرآن والثابت الواضح من السنة وما أجمع عليه الصحابة، أدركنا الحكمة في ذلك أو لم ندرك، وأن ندع ما تشابه منه، أما في باقي شؤون الحياة فنحن مختارون نتصرف فيها كما نشاء، مع المحافظة على القواعد العامة التي يقتضيها الشرع وتقتضيها الحكمة أو الفضيلة، كعدم الإضرار بالنفس أو الغير، الرأفة على الضعيف، الإنصاف في المعاملات، العدل في الحكم، والوفاء بالعهد... إلخ .

ثم أردف قائلا: أن الإيمان بالله أمر فطري في البشر، وهم لا يحتاجون فيه لرسل، أما حاجتهم لرسل فهي لكي يعلموهم كيفية الإيمان بالله كما يجب من التوحيد والتنزيه، وآفة البشر الشرك بالله، فهم يخصون الله بالأمور الكلية، كالخلق وتقسيم الأرزاق وتقدير الآجال، وكأن لا علاقة له بالأمور الجزئية، بل هي من اختصاص ما دونه من جن وملائكة وأرواح وبشر وحيوانات ...إلخ، هذا النوع من الشرك هو آفة البشر، وما دور الرسل إلا للحيلولة دون وقوع البشر في هذا الشرك .

وقتل الإنسان ما أكفره، صعب الاهتداء إلى التوحيد، سهل الانقياد إلى الشرك، سريع الإعراض عن ذكر الله، يتقرب ويتذلل لمن يظنون نفسهم أنداد لله، يعبدونهم ويعظمونهم ويخضعون لهم ويدعونهم ويرفعون إليهم حاجاتهم، يرجون منهم الخير، ويتوقعون من سخطهم الشر.

وللشرك أنواع ثلاثة :

١- الشرك في الذات: ويتمثل في اعتقاد الحلول .

٢- الشرك في الملك: ويتضمن اعتقاد اختصاص بعض المخلوقين بتدبير بعض

الشؤون الكونية .

٣- الشرك في الصفات : وهو أن نعتقد في مخلوق أنه متصف بشيء من صفات الكمال من المرتبة العليا، والتي لا توجد إلا في الله جل شأنه.

وإذا بحثنا عن معنى الشرك وصفات أهله في القرآن الكريم لنبتعد عنه وعنهم، لوجدنا أن القرآن الكريم قال في حق اليهود والنصارى ((اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله))(٢١)، علما أنه ما من أحد من الرهبان أو الأحبار ادعى الربوبية، أو اعتبر نفسه ندا لله، لكنهم شاركوه تعالى في التشريع المقدس، فقالوا هذا حلال وذاك حرام، وقبل أتباعهم ذلك منهم، فوصفهم الله بأنهم اتخذوا أربابا من دون الله .

وسمى قريش مشركين لأنهم يتوسلون بالأصنام لتقربهم من الله((ما نعبدهم إلا ليقربونا من الله زلفى))(٢٢)

وهذا التوسل والواسطة بين العبد وربه، هو الشرك بعينه، ومشركوا قريش لم يعبدوا الأصنام لذاتها، لكنهم عظموها وذبحوا لها القرابين على أنها تماثيل لأشخاص كان لهم قرب من الله وشفاعة عنده، فاعتقدوا أن بإمكانها النفع والضر.

وقد قال رسول الله (ص) ((من حلف بغير الله فقد أشرك))(٢٣)، وهذا هو حال المسلمين في بلاد الدنيا، عدى جزيرة العرب، استبدلوا الأصنام بالقبور فعظموها، وطافوا حولها، وعظموا من فيها، واستنجدوا بهم ((يا علي ، يا رفاعي، يا دسوقي، يا كيلاني، يا شاذلي، إلى آخر الأسماء من أصحاب الطرق الصوفية))، يقول أحدهم :

عبد القادريا كيلاني　　　يا ذا الفضل والإحسان

صرت في خطب شديد　　　من إحسانك لا تنساني .

وهذا مما لا شك فيه من الشرك الصريح .

ومنهم جماعات لم يرضوا بالشرع المبين، ولا بما اتفق عليه الأولون، فابتدعوا علوما سموها علم الباطن أو علم الحقيقة أو علم التصوف، وأحدثوا من الأحاديث ما ليس بدين وليس بشرع، واخترعوا عبادات لم يأت بها الإسلام، وكأن هناك نقص في الدين

أتوا هم فأكملوه.

وجماعة أخرى جعلت من الدين لهوا ولعبا، فجعلوا منه الغناء والرقص، نقر الدفوف ودق الطبول، ولبس الأخضر والأحمر، واللعب بالنار والسلاح والعقارب والأفاعي، يخدعون بذلك البسطاء ويرهبون الحمقى.

وقوم يعتبرون البلادة سلاحا والخمول خيرا والخبل خشوعا والصرع وصولا والهذيان عرفانا والجنون منتهى المراتب السبع للكمال.

ومنهم أيضا خلفاء كهنة العرب، يدعون علم الغيب بالضرب بالرمل وقراءة النجوم، أو النظر في الماء أو السماء، أو ضرب الودع واستخدام الجن والمردة إلى غير ذلك من صنائع التدليس والإيهام والخزعبلات، وليس عجيبا أن تنتشر هذه الأمور في العامة الذين هم كالأنعام في كل الأمم، بل الغريب هو اقتناع الخاصة والمتعلمين بهذه الأمور، وكل هذه الأمور كما يرى من الشرك الصريح أو الشبيه بالشرك، وكلا الحالين في الحكم سواء، وليس من السهل ردع العامة عن ميلها واعتقادها، كما أخبرنا بذلك النبي (ص)، والتبعة كل التبعة في ذلك تقع على عاتق العلماء الراشدين.

ثم تابع العالم النجدي، ولننتقل الآن من مسألة الشرك بالله إلى بيان أسباب التشدد في الدين، المشكلة أن بعض العلماء حين يبحثون في الكتاب والسنة عن رأي فقهي في مسألة ما، فتعرض لهم الآراء المختلفة والمتفاوتة، فيأخذون بالأشد منها، والأغرب من هذا أن هناك من يعتقد أن كل ما قاله أو فعله الرسول(ص) هو من قبل الشرع وهو تشريع، ومنهم من لا يتحقق من صحة النص وصدق الرواية، فإذا كان الأمر من فضائل الأعمال فهم يأخذون بالأكثر حيطة فيقعون في التشديد، ويظن الناس أن ذلك منهم ورعا وتقوى ومزيد علم واعتناء بالدين، فيميلون إلى تقليده ويرجحون فتواه.

ثم يتابع العالم النجدي بضرب الأمثلة العديدة من القرآن والسنة التي تدعو إلى التخفيف على المسلمين وندبهم إلى نبذ التشدد والمغالاة في الدين، منها ((ولا تغلوا في دينكم))(٢٤)، و((هلك المتنطعون))(٢٥) أي المتشددون في الدين، وغيرها كثير.

وهنا أجابه العلامة المصري الشافعي المذهب، دفاعا عن الصوفية خاصة وعن

المذهب الشافعي بشكل عام، لأن المذهب الشافعي كما يقول بني على الأحوط والأكمل في العبادات والمعاملات، وعلماء الشافعية بعيدين عن الإمامة والسياسة وهم ميالون إلى الزهد والإعجاب بالزاهدين، على عكس بقية المذاهب التي يعنى أصحابها بالحكم والسياسة التي تستلزم الحزم وتغليب سوء الظن والشك.

هنا رفع الأستاذ الرئيس الاجتماع وذلك بعد أن أثنى على آراء ومواقف وبراهين العالم النجدي .

الاجتماع الخامس

الاستشهاد بالكتاب والسنة

الأحد / ٢١/ ذي القعدة / ١٣١٦ هج

في هذا الاجتماع يركز الكواكبي على وجوب الالتزام بالقرآن والسنة، من غير تشدد أو توسع، ودعا إلى وضع كتب مختصرة يتفق عليها، وتحتوي على المنهيات والمعاملات والعبادات، وهو باختصار يبين الحدود الدنيا التي يجب على المسلم التزامها .

فبعد أن تكامل الاجتماع، وقرأ كاتب الجمعية محضر الاجتماع الماضي حسب العادة، قال الأستاذ الرئيس : سنبحث بعد يومين في وضع قانون دائم للجمعية، وأقترح تشكيل لجنة من ذوي الخبرة في تلك الجمعيات ليضعوا لنا قانونا نتداوله بيننا، وأنا أكلف السيد الفراتي للقيام بكتابتها ومعه السيد الإنكليزي والعلامة المصري، والصاحب الهندي والمدقق التركي الذي يرأسهم لأنه أكبرهم سنا، ومن لديه رأي آخر فليتفضل.

فقال السيد الإنكليزي : إننا مسلمي ليفربول حديثي العهد بالإسلام، معظمنا انتقل إلى الإسلام من البروتستانتية وليس من الكاثوليكية، ونميل بطبعنا لإتباع الكتاب والسنة، ولا نثق بقول غير معصوم، وقد تركنا دين آبائنا لنتبع دين محمد (ص)، لا لنتبع الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي، ولنا جمعية منتظمة لها فرعان في أمريكا وجنوب أفريقيا، ونسعى سعيا حثيثا في الدعوة لدين الإسلام، والأقوام الذين ندعوهم، معظمهم متمدنون، أي أن عقولهم متنورة بالعلوم والمعارف، ونحن نركز الدعوة في فئتين : الأولى البروتستان، والثانية الزنادقة .

أما البروتستان، فقد انقلبوا عن الكاثوليكية حديثا، وسبب انقلابهم اعتمادهم على الإنجيل والكتب المقدسة متونا، ويهملون الشروح والتفسيرات والمزيدات التي ليس لها أصل صريح في الإنجيل، وهم يزيدون على المائة مليون من البشر، مفطورون على التدين، قليلي العناد في الاعتقاد، مستعدون للنقاش والانقياد للحق شرط أن يتوافق مع العقل، وخاصة إذا اتفق مع أسباب هجرتهم للكاثوليكية، مثل : إنكارهم الرياسة الدينية، والتوسل بالقديسين وطلب الشفاعة منهم، واحترام الصور والتماثيل، وبيع الغفران، والقول بأن للبطارقة قوة قدسية وقوة تشريعية، وأن للبابا صفة العصمة من الخطأ في الدين ... إلخ، وهؤلاء البروتستان يشبهون طائفة من اليهود تدعى القرائين، وهم الآخذون بأصل التوراة والمزامير، النابذون للتلمود، أي لتفسيرات ومزيدات الأحبار والحاخامين .

أما الزنادقة فهم المارقون من النصرانية لعدم ملاءمتها للعقل، وهم يزيدون عن المائة مليون إنسان، معظمهم مستعدون لقبول أي ديانة تكون معقولة، حرة، سمحاء، تريحهم من نصب الكفر في الدنيا، فضلا عن عذاب الآخرة، وبالتدقيق نجدهم كلما ابتعدوا عن النصرانية نفورا من شركها وخرافاتها وتشديدها، يقتربون طبعا من التوحيد والإسلام وحكمته وسماحته .

لذلك فإن جمعيتنا تولي اهتماما كبيرا لمسألة الاهتداء بالكتاب والسنة، وإظهار حكمة وسماحة الإسلام للعالم المتمدن، لذا أرجو من السيد الرئيس أن يسمح لي بتفهم هذه المسألة، وذلك بمحاورة الإخوة .

أجابه السيد الرئيس : دونك الإخوة فخاطبهم .

فقال السعيد الإنكليزي مخاطبا العالم النجدي : في خطابك يا مولاي عرفت المسلم، وألزمته العمل بالكتاب والسنة، فما هو الكتاب وما هي السنة ؟

فقال العالم النجدي : الكتاب، هو هذا القرآن الذي وصل إلينا بطريق لا يحتمل الشبهة، لاجتماع كلمة الأمة حوله واتفاقها عليه، تناقلوه جيلا بعد جيل، حفظوه في الصدور، وضبطوه في السطور، مع الحرص على كيفية أدائه لفظا، وضبط إملائه كتابة، مع الاعتناء في تحقيق أسباب نزوله، وأين و متى، وحفظ اللغة العربية المضرية

القرشية التي نزل بها، وإبقائه محفوظا من التغييروالتحريف .

أما السنة، فهي ما قاله الرسول (ص) أو فعله أو أقره، ولم يكن صدر منه ذلك على سبيل الاختصاص أو الحكاية أو العادة، وقد اعتنى الصحابة والتابعين وتابعيهم بنقلها إلينا متحرين الدقة والتثبت الذي حاز ثقة الأمة وقبولها، فوصلتنا مكتوبة في الكتب الستة (٢٦) .

قال السعيد الإنكليزي : لا شك أن المسلمين من أكثر الأمم اعتناء بحفظ قرآنهم، وضبط تاريخ نبيهم وسنته، وكذلك اعتناءهم باللغة العربية، لغة فهم الخطاب، ولكن كان يجب أن ينعكس هذا على الشريعة، فلا يطالها ما طال غيرها من الاختلاف، فما منشأ هذا التشتت الذي نراه في الأحكام ؟!

أجابه العالم النجدي : إن الاختلافات الموجودة في الشريعة ليست في الأصول، لأن الأصول وبعض الفروع متفق عليها، لأن لها في القرآن والسنة دلالات صريحة قطعية الثبوت قطعية الدلالة، أو أنها ثابتة بإجماع الأمة، أما الاختلافات فهي في فروع الأصول، وفي بعض الأحكام التي ليس لها في القرآن والسنة دلالات صريحة، فهي ترجع إلى دلائل إما قطعية الثبوت ظنية الدلالة، أو ظنية الثبوت ظنية الدلالة، وأكثر هذه الاختلافات هي في مسائل المعاملات، جاحدها لا يكفر باتفاق الأمة، والمتخالفون لا يفسق بعضهم بعضا .

قال السعيد الإنكليزي : أشكرك على ما قدمت، لكنك لم تأت على ذكر الناسخ والمنسوخ، الذي أظنه من أكثر أسباب الاختلاف في الشريعة، وما وصفته من أصول الاجتهاد وقوانين استنباط الأحكام، نجم عنه اختلاف في الأمة، لا يتفق مع قوله تعالى ((أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه))(٢٧) فهل من وسيلة لرفع هذا التفتت والتفرق ؟

أجابه العالم النجدي : إن نواسخ الأحكام قليلة ومعلومة، والخلاف فيها أقل، وجاءت لحكمة الشارع وليس لدي سبيل لإزالة هذا التفرق، عسى أن يفيدك بعض الإخوة في ذلك .

فقال العلامة المصري : لا يمكن إزالة هذا الاختلاف، لكن يمكن التخفيف من حدته

ومن آثاره، لأن معظم هذه الاختلافات كما ذكر أخونا العالم النجدي، هي في الفروع دون الأصول، وأنا أقترح أن يقوم علماء كل مذهب من المذاهب، بوضع كتب لمذهبهم :

١ – كتبا في العبادات: مقسمة إلى فصول وأبواب تذكر ((الفرائض والواجبات، الشرائط والأركان، السنن التي ينبغي مراعاتها معظم الأوقات، وسنن الزوائد التي رعايتها أولى من تركها)).

٢ – كتبا للمنهيات : تتضمن ((المكفرات والكبائر، والصغائر والمكروهات)).

٣ – وكتب في المعاملات : تقسم إلى طبقات من الأحكام الإجمالية والاجتهادية أو الإستحسانية .

وهذا يسهل على العامي أن يعرف ما هو مكلف به في دينه، فيعمل به حسب مراتبه، وبالتالي تظهر سماحة الدين الحنيف، ويطمئن قلب المسلمين .

قال المحدث اليمني : نحن معاشر أهل اليمن لم نزل على مذهب السلف في الدين، بعيدين عن التفنن فيه، والمسلمون عندنا على ثلاثة مراتب، العلماء والقراء والعامة .

الطبقة الأولى : العلماء : وهم كل من يتصف بصفات خمس :

١ – أن يكون عارفا عالما باللغة العربية المضرية القرشية، معرفة كافية لفهم الخطاب محيطا بالمفردات ومجازاتها، وقواعد الصرف وشواذه، النحو وتفصيلاته، والبيان وخلافاته، والبديع وتكلفاته .

٢ – قارئا كتاب الله تعالى، قراءة الفاهم لمعاني مفرداته وتراكيبه، مضطلعا على أسباب النزول، ومواقع الكلام المدونة في كتب السنة والتفسير، ومعلوم أن آيات الأحكام لا يتجاوز عددها المائة والخمسين آية.

٣ – أن يكون ضليعا في السنة النبوية المدونة على عهد التابعين وتابعيهم، ومعلوم أيضا أن أحاديث الأحكام لا تتجاوز الألف وخمسمئة حديث أبدا .

٤ – أن يكون واسع الاضطلاع على سيرة النبي (ص) وأصحابه وأحوالهم .

٥ – أن يكون صاحب عقل فطري سليم لم يفسده بالمنطق والجدل، وفلسفة اليونان، وعلم الكلام، ونزعات المعتزلة، وغرائب الصوفية، وتشديدات الخوارج، وتخريجات المتأخرين، وحشو الموسوسين، وتزويقات المرائين، وتحريفات المدلسين .

أهل هذه الطبقة يستهدون بأنفسهم، لا يقلدون إلا بعد الوقوف على دليل من يقلدون، وإن وجدوا في المسألة قرآنا لا يحيدون عنه، وإن كان القرآن محتملا الوجوه، فالسنة قاضية عليه مفسرة، وإن لم يكن بالقرآن دليل أخذوا بالسنة الصحيحة لا يعدونها إلى اجتهاد، وإلا أخذوا بإجماع علماء الصحابة، ثم بقول جماعة من الصحابة والتابعين، وإن وجدوا في المسألة قولان، رجحوا أحدهما على أساس العقل وليس على أي أساس آخر، فهم لا يقلدون أحدا تقليدا مطلقا كأنه نبي مرسل .

الطبقة الثانية : القراء، هم الذين يقرؤون كتاب الله قراءة فهم بالإجمال مع اضطلاع كاف على السنة النبوية، وهم يستهدون في أصول الدين بأنفسهم، لأنها مبنية على نص صريح من قرآن أو سنة أو إجماع عام مفسر، أما في الفروع فيتبعون أحد العلماء الموثوق بهم، ولا يرتبطون بمجتهد دون آخر، دون إقامة الدليل .

الطبقة الثالثة : العامة، وهؤلاء يهديهم العلماء، مع بيان الدليل قصد الإقناع .

بهذه الطريقة تضيق دائرة الجرأة على الإفتاء بغيرعلم، ويسد بذلك باب التشديد في الدين، والتشويش على القاصرين، والعالم عندنا لا يستطيع الإجابة عن كل ما يسأل، ولا يخجل من أن يقول لا أدري، وهذه كانت طريقة وسيرة سلفنا الصالح. فهذا الإمام مالك (رض) يقول: ((ما من أحد إلا وهو مأخوذ من كلامه ومردود عليه إلا رسول الله (ص)))، ونقل المؤرخون أن المنصور لما حج واجتمع بمالك طلب منه الذهاب معه ليحمل الناس على ((الموطأ))، كما حمل عثمان الناس على المصحف، فقال مالك لا سبيل إلى ذلك لأن الصحابة قد افترقوا بعد وفاة الرسول، يريد بذلك أن السنة ليست مجموعة بموطئه، الذي جمع ما رواه أهل المدينة .

وأبو حنيفة يقول : ((لا ينبغي لمن لا يعرف دليلي أن يأخذ بكلامي))، وكان إذا أفتى يقول : ((هذا رأي النعمان بن ثابت، يعني نفسه، وهو أحسن ما قدرنا عليه، فمن جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب)) .

وروى البيهقي (٢٨) عن الشافعي أنه (رض) كان يقول : ((إذا صح الحديث فهو مذهبي))، وفي رواية أخرى ((إذا رأيتم كلامي يخالف الحديث فاعملوا بالحديث واضربوا بكلامي الحائط))، وأنه قال يوما للمزني (٢٩) : ((إبراهيم لا تقلدني فيما أقول وأنظر في ذلك لنفسك فإنه دين))، وكان يقول : ((لا حجة في قول أحد دون رسول الله (ص))) .

ويروى عن أحمد بن حنبل (رض) أنه رأى بعضهم يكتب كلامه فأنكر عليه وقال له : ((تكتب رأيا لعلي أرجع عنه ؟!))، وكان يقول : ((ليس لأحد مع الله ورسوله كلام)) وقال لرجل : ((لا تقلدني ولا تقلدن مالكا ولا الأوزاعي (٣٠) ولا الحنفي ولا غيرهم، وخذ الأحكام من حيث أخذوا، من الكتاب والسنة .

ونقل الثقات عن سفيان الثوري (٣١) أنه لما مرض، مرض الموت دعا بكتبه فغرقها جميعا . وروي عن أبي يوسف وزفر (٣٢)، أنهما كانا يقولان لا يحل لأحد أن يفتي بقولنا ما لم يعلم من أين قلنا .

وقيل لبعض أصحاب أبي حنيفة : إنك تكثر الاختلاف إلى أبي حنيفة، فقال : لأنه أوتي من الفهم ما لم نؤت، فأدرك ما لم ندرك، ولا يسعنا أن نفتي بقوله ما لم نفهم دليله ونقنع .

وعذرا أيها السادة للإطالة، وأنا أنوه هنا بفضل الطريقة التي عمل فيها سلفنا الصالح، لا بفضلهم، فهم أرشدونا إلى الاستهداء وطرقه ولم يرشدونا إلى الاقتداء بهم، وفي النهاية ((لا يكلف الله نفسا إلا وسعها))(٣٣) .

هنا قال الأستاذ الرئيس : الحمد لله الذي وفقنا لهذا الاجتماع الذي أفدنا منه كثيرا، وهذا النهار قد انتهى، وآذن لنا الوقت بالانصراف .

*　　*　　*

الاجتماع السادس

التصوف والتقليد وطرق رفع الاختلاف

الاثنين / ٢٢ / ذي القعدة / ١٣١٦ هج

في هذا الاجتماع بين المؤتمرون أن الفتنة التي أصابت الأمة كانت في الجدل حول الخلافات بين الأئمة، فاتسعت دائرة الأحكام في الشرع، وكثرت المناظرات وصراعات المذاهب، وتفرق المسلمون شيعا وأحزابا حين تشاجروا في الخلافة والملك، فاستسهل الناس التقليد من غير تبصر، وعلى علماء الهداية أن يقاوموا فكر التعصب لمذهب من المذاهب من دون الآخر ليجمعوا الأمة من جديد .

ففي ضحى هذا اليوم اجتمع الأعضاء، وتلي محضر الجلسة السابقة حسب العادة، فبدأ الأستاذ الرئيس مخاطبا الشيخ السندي : إنك يا مولانا لم تشاركنا الحديث حتى الآن، فنرجو منك أن تتكرم على إخوانك بنبذة من معارفك تنور فيها أفكارنا .

فقال الشيخ السندي، بعد أن أثنى على حسن حديثهم وعمق معرفتهم : إنني أيها السادة من خلفاء الطريقة النقشبندية (٣٤)، وهي أقرب الطرق إلى الإخلاص وأقلها انحرافا عن ظاهر الشرع، وهي مؤسسة على الذكر القلبي وقراءة ورد خواجكان، ومراقبة المرشد، والاستمداد من الروحانيات (٣٥)، وإني لم أكن أفكر أن الذكر وقراءة الورد هي بدعة وزيادة في الدين، وأن المراقبة والاستفاضة والاستمداد من أرواح الأنبياء والصالحين، فيها مظنة الشرك، إلى أن حضرت هذه الاجتماعات المباركة، فسمعت وقنعت وأقلعت والحمد لله، وإني لناصح إن شاء الله كل أتباع الطريقة بالحكمة والموعظة الحسنة أن يقلعوا عما هم فيه، وأن بإمكانهم الذكر كيف شاؤوا وأين شاؤوا، لا حاجة لهم لوقت معين أو هيئة معينة، فرادى أو مجتمعين، وأن يتركوا المراقبة ويستعيضوا عنها بالدعاء، وقد كنت أعتقد أن السبب وراء إقبال المسلمين صالحهم و فاسقهم إلى إتباع إحدى الطرق الصوفية مرده إلى مجرد إخلاص المرشدين، أما الآن فأعتقد إن السبب يكمن في أن فقهاء الشافعية والحنفية عندنا قد ضيقوا على المسلمين في عباداتهم وفي معاملاتهم حتى صار المسلم لا يكاد يمكنه أن يقوم بعباداته ومعاملاته ما لم يكن فقيها، وأصبح العامة يعتقدون أن الدين الصحيح لا يأتيه إلا ألو العزم، وبهذا التضييق صار المسلم

لا يرى فرجا له إلا بالالتجاء إلى صوفية الزمان الذين يهونون عليه الدين كل التهوين، فبنظرة من المرشد الكامل يصير الشقي وليا، وبنفخة في وجه المريد أو تفلة في فمه تطيعه الأفعى ويحترمه العقرب، وتدخل تحت أمره قوانين الطبيعة . وهم المقررون أن الولاية لا ينافيها ارتكاب الكبائر كلها عدا الكذب، والاعتراض يوجب الحرمان، وحسن الظن بالفساق والفجار أولى من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى غير ذلك من الأقوال المهونة للدين، حتى أصبح الدين لهوا ولعبا تستأنس له نفوس الجاهلين .

والناس لو عرفوا حقيقة الصوفية لفروا منهم فرارهم من الأسد، لأنه ليس لديهم سوى التوسل بالأسباب الشاقة لتطهير النفوس من أمراض الشهوات، وتصفية القلوب من شر حب الدنيا، وحمل الطبائع بوسائل القهر والتمرين على الاستئناس بالله وبعبادته، وذلك طلبا للراحة والعيش الهني في الدنيا والآخرة .

هنا قال الأستاذ الرئيس : لقد أحسن أخونا الشيخ السندي توصيفه، ويمكننا أن نضيف لما قال كمقدمة لبحث التصوف، أنه كان التنسك في المسلمين شيمة لأكثر الصحابة والتابعين، ثم إن التوسع في الدنيا قلل عدد المتنسكين، فصار لأهله حرمة مخصوصة بين الناس، وصار بعض المتفرغين يقصدون نيل هذه الحرمة بالتلبس بالتنسك وإلزام النفس بالتمرن عليه، وبما أنه كان من لوازم الحصول على تلك الحرمة إظهار التقشف اتخذ هؤلاء الصوف دثارا واسم الفقر شعارا فغلب عليهم اسم الصوفية واسم الفقراء، ثم إن بعض العلماء الذين يعتزون بالتنسك، أحبوا التميز بالرياسة أيضا، فصاروا يدعون الناس إلى التنسك ويرشدونهم إلى طرائق التمرن عليه، ومن هنا جاء اسم الإرشاد واسم الطريق، وهؤلاء لما رأوا الفقهاء يتوسعون في الشرع وتفنن المتكلمين في العقائد، هم كذلك اقتبسوا من فلسفة فيثاغورس وتلاميذه في الإلهيات، وانتزعوا من لاهوتيات الكتابيين والوثنيين جملا وألبسوها لباسا إسلاميا فجعلوه علما خاصا أطلقوا عليه علم التصوف أو علم الحقيقة أو علم الباطن، واستغلوا جهل الناس فادعوا لأنفسهم مقامات كمقام النبوة بل الألوهية، باسم الولاية والقطبانية أو الغوثية، بما نسبوه لأنفسهم من القوة القدسية والتصرف في الملكوت، وألفوا كتبا في التصوف محشوة بحكايات مكذوبة، وتقريرات مخترعة، وقضايا وتركيبات لا مفهوم لها حتى في مخيلة قائليها .

ثم إن الأستاذ الرئيس قال للخطيب القازاني، أن الإخوة ينتظرون منه أن يفيدهم بما يلهمه الله ومما يناسب موضوع مباحث الجمعية .

فقال الخطيب القازاني : إن الإخوة لم يتركوا قولا لقائل، ولا أجد ما أتكلم فيه، ولكن سأقص عليكم مساجلة جرت بين مفتي قازان وإفرنجي روسي من العلماء المستشرقين، العارفين في اللغة العربية، مولع بتتبع العلوم الشرقية عامة والإسلامية خاصة، هداه الله إلى الدين المبين، حول مسألة الاستهداء .

المستشرق : أسلمت حديثا، وأبلغ من معرفة القرآن والسنة مبلغا كافيا، وأريد إتباع ما ورد في القرآن وما ثبت وروده بالسنة، ليس له علاقة بزيد أوبعمرو وأقوالهم المتضاربة والمتناقضة، لأن حكم العقل في الدليلين المتعارضين التساقط، فهل في الإسلام ما يمنع ذلك ؟

المفتي : إن أكثرية الأمة متفقة، ومنذ قرون، على اعتماد ما حرره أحد المجتهدين الأربعة أصحاب المذاهب، وإجماع الأكثرية دليل على الصحة فلا يجوز الشذوذ .

المستشرق : لوكان الصواب يثبت بالكثرة والقدم، وإن خالف المعقول لاقتضى ذلك صوابية الوثنية ورجحان النصرانية، وهذا يعاكس قول النبي (ص) ((تفترق أمتي على ثلاثة وسبعين فرقة، كلها في النارعدا واحدة هي ما كان عليه هووأصحابه))، وقد حدث ذلك وكل فرقة تدعي أنها الفرقة الناجية، ولا شك أن الاثنين وسبعين فرقة أكثرمن أي واحدة، فأين يبقى حكم الأكثرية ؟

المفتي : لقد سبقنا من أهل التدقيق والتحقيق آلاف الفضلاء، وكلهم اعتمدوا لزوم إتباع أحد المذاهب حتى بدون مطالبة أهلها بدلائلهم، لأن مداركنا قاصرة على أن توازن الدلائل وتميز الصحيح والراجح، كالطبيب لا يلزم تجريب كل الأدوية ليأخذ بها، بل يأخذ علمه بها عما دونه علماء الطب .

المستشرق : نعم الطبيب يأخذ بما اتفق عليه الأولون، وليس بما اختلفوا فيه على طرفي نقيض بين نافع وسام، في هذه الحالة يدع القولين جانبا، ويأخذ هو بالتجريب لوحده، مع مراعاة الحيطة والتدقيق، والناظر إلى هؤلاء الأئمة الأقدمين، يرى :

١ – تخالفهم في كل الأحكام إلا فيما قل وندر.

٢ – ترددهم في الأحكام وتقلبهم في الآراء، كحكم أحدهم في مسألة وعدوله عنه إلى آخر، وهناك من يقول أن للشافعي مذهبان .

٣ – اختلاف أتباعهم في الرواية عنهم .

فالأقرب للمعقولية أن يهتدي المتحري لدينه بنفسه لنفسه .

المفتي : نحن لا نختم بأن الصواب مقطوع به في جانب أحد المذاهب، لكن المقلد يعتقد بصحة مذهبه، ويعتقد الخطأ فيما ترك مع احتمال صوابه .

المستشرق : هذا يعني تعدد الحق عند الله أو ترجيحه، وتتحاشون المقارنة بين الأئمة، واعترافكم باحتمال خطأ الجميع يقضي بجواز تركها، فهل هذا معقول ؟ ! فلماذا لا تجيزوا أن يستهدي الإنسان بنفسه، فإن تحقق عنده شيء عن يقين أو غلبة الظن فيأخذ به، وإلا كان مختارا، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها .

المفتي : إننا لبعد العهد لم يبق مجالا للتحقق، لذا فنحن ملزمون بإتباع أحد المتقدمين، حتى ولو كان تحقيقه يحتمل الخطأ .

المستشرق : ولماذا تكلفون النفس ما لم يكلفها الله ؟ دعوا الإنسان يهتدي بنفسه، فإن أصاب كان مأجورا، وإن أخطأ كان معذورا، وهذا أسلم من أن يأسر نفسه للخطأ المحتمل من غيره.

أجابه المفتي : لكن هذا الغير أعرف منا بالصواب واحتمال خطأه أقل .

المستشرق : هذا فيما اتفقوا عليه، أما في الخلافات فالعقل يقف عند الترجيح بلا مرجح، ودون الاعتماد على الأدلة .

المفتي : ولكن إذا لم نأخذ من شرعنا إلا ما نتحقق منه بأنفسنا، من دليل في الكتاب والسنة أو الإجماع، حينها تضيق علينا أحكام الشرع، ولا تعد كافية لحل مشكلاتنا في العبادات ولا تفي بحاجاتنا في المعاملات، وإذا عمل كل فرد برأيه يصبح الأمر فوضى، ويضيع النظام .

المستشرق : ولكن أين هذا النظام وليس لديكم مسألة في العبادات والمعاملات إلا وهي مختلف عليها بين المذاهب، إن لم يكن ضمن المذهب الواحد، و إذا قلنا بتفويض الأمر للمبتلي نفسه أو لحكم القاضي، قلتم بأن هذا الأمر من أمور الدين وليس لنا أن نتصرف فيه، وتردوه إلى الله ورسوله زورا وبهتانا.

ولو كان الأمر نظام وضعي، لما كان من الحكمة أن يلتزم أهل زماننا آراء من سلفوا من عشرة قرون، ولا أن يلتزم أهل الغرب بقانون أهل الشرق، وبرأيي أن هذا التضييق هو سبب ما أنتم فيه من عدم احترام الشرع، وإنكم لتكلفون أنفسكم ما لم يكلفكم به الله، ولو كان في الزيادة خير لاختارها الله لكم، ولكن يعلم الله أن الخير في القدر الذي هداكم إليه، وترك لكم الخيار على وجه الإباحة في باقي شؤونكم، لتوفقوها حسب مقتضيات الزمان وتغير الأحوال .

واعلم أيها المفتي أن الحالة التي أنتم عليها من التشديد والتشويش في أمر الدين هي أكبر أسباب انحطاط المسلمين بعد القرون الأولى، وأناشدك بالله أيها المفتي وبحبك لدينك، أن تترك هذه الأوهام التقليدية القائمة في فكرك، وتعينني على تأليف كتاب يصور حكمة الإسلام وسماحته، عسانا ننال به هداية عشرات الملايين من البشر إلى الإسلام، ونحفظ به الملايين من المسلمين من أن يهجروا دينهم بسبب اختلاطه بالخرافات .

أجابه المفتي : هذا رأي صائب ولنعم ما فكرت فيه، لكن ذلك العمل يحتاج إلى مجموعة من العلماء المتخصصين غير المتوفرين في هذه البلاد ولا سبيل أمامنا إلا الدعاء إلى الله أن يلهم العلماء في الأمصار الأخرى لمثل هذا العمل الجليل .

قال المجتهد التبريزي : أرى أن الإسلام أصابته فتنتان عظيمتان، ولو لم يكن أساسه متينا فوق ما يتصوره العقل لما ثبت هذا الدين إلى الآن .

الفتنة الأولى : حين تشاجروا في الخلافة، وانقسموا على أنفسهم، يقتل بعضهم بعضا، وتفرقوا في الدين لتفرقهم في السياسة .

الفتنة الثانية : هي أن الخلفاء العباسيين مالوا إلى تعميق النظر في العقائد، فخدمهم

من خدمهم من علماء العجم تقربا إليهم في علم الكلام، وسرت العدوى إلى المناظرة في الفقه وبيان الأولى من المذاهب، فأقبلوا على التدقيق والجدل في الخلافات بين أبي حنيفة والشافعي، وأثاروا بينهما فتنة عمياء، وحربا صماء، وتركوا بقية المذاهب فاندرست، ولم يبق منها سوى مذهب زيد وأحمد في جزيرة العرب، ومذهب مالك في المغرب، ومذهب جعفر في بلاد الخزر وفارس، فأكثروا التأليف والتصنيف في هذه المذاهب، كل مؤلف يحب أن يبدي ما عنده ليشتهر فضله، وينال حظه من دنياه، زاعما أن غرضه استنباط دقائق الشرع، وتقرير علل المذاهب، فتزاحموا وتجادلوا وناقض بعضهم بعضا، وكان من العلماء بعض الصلحاء المغفلين شاركوهم في الفتنة وهم لا يشعرون، كما قال الله تعالى: ((وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون))(٣٦)، وقوله تعالى :((قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا))(٣٧).

وهكذا اتسعت دائرة الأحكام في الشرع، فصار الخلف عاجزين عن التقاط الفروع، فضلا عن الرجوع إلى الأصول، فاطمأنت الأمة للتقليد، وأقبل العلماء على التعمق في الدين، فأتوا بغريب التفسير، وتفننوا بحكايات قاضي الجن لأنهم غير مطالبين بدليل، وحكا المحدثون نوادر الأخبار والآثار ولو موضوعة، لأنهم غير مسؤولين عن سندهم، واستنبط الفقهاء الأحكام بالشبهة، وهذه الفتنة ما زالت مستمرة.

وحين أخلد هؤلاء المتأخرين إلى التقليد الصرف، صاروا يحسنون الظن في كل ما يجدونه مدونا بين دفتي كتاب، لأنهم رأوا التسليم أهون من التبصر، والتقليد أستر للجهل، وصار أهل كل إقليم أو بلد يتعصبون لمؤلفات شيوخهم الأقدمين، ويتخذون الخلافيات مدارا لتطبيق الأحكام على الهوى، يزعمون أن التسليم أسلم، وأنهم أسراء النقل وإن خالف ظاهر النص، ويتوهمون أن اختلاف الأئمة رحمة للأمة .

نعم إن اختلاف الأئمة رحمة إذا أحسن استعماله، ويكون نقمة إذا صار سببا للتفرقة الدينية والتباغض، خاصة وأن كل فرقة من الفرق تعتقد أنها وحدها أهل السنة والجماعة، وأن سواهم مبتدعون وزائفون، فهل من عاقل والحالة هذه يقنع بأن هذا التفرق والانشقاق رحمة لا نقمة ؟!

وقد نتج عن هذا التفرق بين المسلمين والتشدد عليهم في دينهم ومصالحهم تعصب ديني يخالف قوله تعالى: ((أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)) (٣٨) .

بعدها يضرب المجتهد التبريزي بعض الأمثلة التي يأتي بها المتفقهون للتحايل على الشرع وتعطيل أحكامه،مثل((إن الربا حرام ولكن إذا أضيف للقرض ثمن مبيع خسيس بنفيس، جاز استباحة مقصد الربا))، ((أو أن إيتاء الزكاة فرض، ولكن إذا أخرج رب المال ماله قبل الحول ثم استعاده، سقطت عنه الزكاة)) .

وفي النهاية يدعو التبريزي إلى أن نلتمس للضرورات أحكام اجتهادية، يأمر بها الإمام إن وجد وإلا فالسلطان .

هنا شكر الأستاذ الرئيس المجتهد التبريزي على ما تقدم به، مع اعتراضه على بعض النقاط التي وردت في حديثه، ومن ثم رفع الاجتماع ، لحلول وقت صلاة الظهر.

*　　　*　　　*

الاجتماع السابع

مجمل أسباب الفتور

الأربعاء / ٢٤ / ذي القعدة / ١٣١٦ هج

في هذا الاجتماع، لخص السيد الفراتي ما عرض من أسباب انحطاط المسلمين، فقسمها إلى فروع وأصول وهي على ثلاثة أنواع هي : أسباب دينية، وأسباب سياسية، وأسباب أخلاقية، وانتهى إلى ضرورة نبذ الاختلاف وتشويش الأفكاروإسكات المدلسين، ونبذ التقليد والتعصب للمذاهب، وإلى أهمية طلب الحرية ونزع الاستبداد، وإلى محو الجهل وتقوية التعليم، والابتعاد عن التملق والمحاباة، وأضاف إلى ذلك أسبابا أخرى تكمن في السياسة والإدارة العثمانيتين .

وقد أحصى واحدا وعشرين سببا لفساد الإدارة العثمانية تتركز في توحيد القوانين على رغم اختلاف عادات البلاد التابعة لها، وإتباع وسائل تخالف الشرع كما تخالف إرادة المواطنين، والتمسك بمركزية الإدارة، والتسيب في إدارة المال، بحيث تحول إلى

خزانة السلطان وأعوانه، وتنصيب موظفين غير أكفاء، وممارسة العنف ضد من يخالفها، واستبعاد العرب عن وظائف الدولة الرئيسية .

ففي صباح اليوم المذكور اجتمعت الجمعية، وقرئ ضبط الجلسة السابقة حسب المعتاد، بعدها طلب الأستاذ الرئيس من السيد الفراتي أن يبدي رأيه الخاص في أسباب فتور الأمة، لأنه في الجلسات السابقة لم يكن سوى كاتبا ومستمعا فحسب، وكلف بكتابة محضر هذه الجلسة الفاضل الشامي والبليغ الاسكندري، قبل المكلفان مهمتهما مرحبين، وقام السيد الفراتي من مكان الكتابة ليخلي لهما المكان .

قال السيد الفراتي : من المداولات التي قامت بها الجمعية في جلساتها السابقة، نرى أن أسباب الفتور، كثيرة ومتشعبة وليست بالبساطة التي تمكن مقاومتها، وهذه الأسباب منها ما هو أساسي((أصول))، ومنها ما هو ثانوي ((فروع))، وجميعها ترجع إلى أحد ثلاثة أنواع : **أسباب دينية وأسباب سياسية وأسباب أخلاقية .**

وبدأ السيد الفراتي يقدم للحاضرين ملخصا لهذه الأسباب مشيرا إلى الأصول ب(أ) وإلى الفروع ب(ف) . (١) – أهم الأسباب الدينية :

١ – تأثير عقيدة الجبر في أفكار الأمة .

٢ – تأثير الزهد في الابتعاد عن السعي والعمل .

٣ – الجدل في العقائد الدينية والتفرق في الدين .

٤ – الابتعاد عن سماحة الدين والتشدد والغلو والتعصب في الدين .

٥ – عدم تلازم القول والعمل في الدين .

٦ – الخرافات والبدع وتقديس القبور وكثرة الخرافات والشعوذات في الدين .

٧ – الاعتقاد أن في الدين أمور سرية لا يفهمها أحد، وأن الدين يتنافى مع العلوم العقلية .

(٢)- أهم الأسباب السياسية :

١- السياسة المطلقة من السيطرة والمسؤولية ، بمعنى الحكم الاستبدادي المطلق والإصرار عليه.

٢- تمزق الأمة إلى طوائف وأحزاب .

٣-غياب حرية القول والفعل وفقدان الأمن والأمل .

٤-فقد العدل وعدم التساوي في الحقوق والواجبات بين طبقات الأمة .

٥-اعتماد الأمراء على المدلسين والمتملقين من العلماء، والتنكيل بالعلماء الحقيقيين، حرمانا وإبعادا .

٦-اعتبار العلم عطية يتصدق بها الأمراء على خاصتهم .

٧-قلب موضوع أخذ الأموال من الأغنياء وإعطاءها للفقراء (٣٩) .

٨-الحجر على الرأي العام وتفريق الأمة .

٩-ترف الأمراء وانغماسهم بالشهوات .

(٣)- أما أهم الأسباب الأخلاقية :

١ – الجهل والخمول، وترك العمل بسبب ضعف الأمل، والابتعاد عن العلوم العالية.

٢ – اليأس من اللحاق بركب التطور .

٣ – فقد قوة الجمعيات والابتعاد عن العلوم العالية .

٤ – فقد القوة المالية الاشتراكية بسبب التهاون في الزكاة .

٥ – عدم المطالبة بالحقوق العامة، جبنا وخوفا .

٦ – التخلق بالتملق تزلفا وصغارا .

٧ – اللجوء إلى الوظيفة لكسب العيش، والابتعاد عن الصناعة .(٤٠)

وهناك العديد من الأسباب الدينية والسياسية والأخلاقية الأخرى التي تطرق إليها الكواكبي يمكن الرجوع إليها في الأعمال الكاملة للكواكبي .

ثم أضاف السيد الفراتي، هذا ملخص لما ورد من أسباب الفتور على ألسنة الإخوان، ويتضح مما ورد أن الخلل في إدارة الحكومات الإسلامية من أهم أسباب الفتور، لذلك سوف أضيف لما سبق أهم أسباب الخلل في السياسة والإدارة العثمانية، على اعتبار أن الدولة العثمانية هي الأكبر والأكثر تأثيرا، بين دول العالم الإسلامي في وقتنا الراهن، ومعظم هذه الأسباب حدث في الستين سنة الأخيرة، وخاصة آخر عشرين سنة منها، حيث ضاع ثلثا الدولة وخرب الثلث الباقي، لأنه ليس من هم للسلطان سوى الحفاظ على نفسه، والإصرار على استبداده، ويمكن تلخيص الأسباب السياسية والإدارية العثمانيتين بما يلي :

١ – توحيد القوانين، رغم اختلاف طبائع أطراف المملكة، واختلاف الأهالي في الأجناس والعادات .

٢ – التمسك بالإدارة المركزية، رغم تنائي أطراف الدولة عن العاصمة، وعدم قدرة الأمراء على الوقوف على أحوال الرعية في تلك المناطق .

٣ – عدم محاسبة الولاة على أفعالهم .

٤ – تعيين عمال وموظفي المناطق من غير أبناء المنطقة، حتى تأمن الدولة إمكانية الاتفاق عليها .

٥ – إعطاء المناصب الإدارية والسياسية وحتى الدينية لأناس مكروهين منفور من أفعالهم، حتى تأمن الدولة غائلة اتفاقهم مع الرعية .

٦ – زيادة عدد الموظفين والعاملين، بهدف إعانة العشيرة وزيادة المحاسيب والمتملقين .

٧ – دعم مواكبة التطور بسبب عدم الاهتمام بالمستقبل .

٩ – عدم مراقبة الداخل والوارد لبيت المال، بحيث أصبحت الدولة مديونة كل هذا الدين .

١٠ - عدم استشارة الرعية في الإدارة، ومداراة المضللين على فساد المسؤولين ومعايبهم حتى لا ينشروا ذلك بين العامة .

١١ – إدارة السياسة الخارجية بالتزلف والإرضاء والمحاباة بالحقوق، والرشوة بالامتيازات والنقود .

١٢ – عدم الانسجام بين الرعية والرعاة، وبالتالي غاب الراعي المعبر عن رعيته، وإصرار الترك خاصة على الانفصال عن رعيتهم والتعالي عليهم والنظر إلى رعيتهم نظرة دونية وسيئة وخاصة العرب منهم، بالتالي قابلهم العرب بقول : ((**ثلاث خلقن للجور والفساد هي القمل والترك والجراد**)) .

١٣ – إهمال الدولة وغفلتها عن ترتيب شؤون الحياة وعن إتقان الأعمال وعن تعليم النساء، وعن تدبير القوة والاستعداد .

١٤ – غياب روح الهمة ، واعتزال الحياة والتواكل .

ثم يعقب السيد الفراتي، أن الأتراك لم يخدموا الأمة الإسلامية، إلا ببناء بعض المساجد لكي تذكر على منابرها أسماء سلاطينهم .

هنا شكر الأستاذ الرئيس السيد الفراتي لما تقدم به، وأعلن عن انتهاء الوقت، ورفع الجلسة للغد .

* * *

الاجتماع الثامن

غرارة (٤١) المسلمين وأنواعها

الخميس / ٢٥ / ذي القعدة / ١٣١٦ هج

في هذا الاجتماع يرجع السيد الفراتي ركون الأمة إلى كسل الأمة، وتعلقها بالتمجد والتعالي، وترك النساء جاهلات وهن أمهات الأمراء، وبذلك تفسد الأم والأمة الناشئة، ويقلد الأمراء أخلاق الغرب، وينظرون إلى الأعاجم كسيد متفوق يجب تقليده في المأكل

والملبس والمشرب . وبين السيد الفراتي أنه لا بد من قيام جرائد مخصوصة تلوم الشيوخ على تثبيط العزائم، وتهيب بالناشئة ليحرصوا على دينهم وحريتهم، وتدفعهم إلى الجهاد من أجل أن ينالوا حياة راضية في ظل وطن يحبونه وقوم يؤازرونهم بعيدا عن الانشقاق الديني أو المذهبي، وبعيدا عن الأحقاد.

فقد قرئ محضر الجلسة السابقة كالعادة، وتابع السيد الفراتي حديثه قائلا، إن من أهم أسباب تخلف المسلمين غرارتهم، أي جهلهم بأمور الحياة، والغرارة هي من أهم أسباب فتور الأمة، وذلك لعدم وجود وغياب من يوعيهم ويرشدهم، وهي مهمة القائمين على خدمة الدين في البلاد المتدينة، أما في الأقوام الذين ليس لديهم من يقوم على خدمة الدين، فإن من يقوم بتعليم الناس شؤون حياتهم هي المدرسة والتعليم، والأخذ من كتب الأخلاق والتدبير المنزلي، والاقتصاد والتاريخ والمسرح والقصة والرواية.

والواعون والناجون من الغرارة لا يجرؤون على العمل بما يعلمون لأسباب شتى أهمها، جهل النساء الذي يؤدي إلى فساد الطفولة والشباب، وعدم تمرن هؤلاء الواعون على الألفة والمحبة، وعدم مساعدة الظروف المحيطة بهم للاستفادة مما تعلموه.

وحالة الغفلة التي نعيش فيها لا تحتاج إلى برهان، لأن الجميع يعرفها ويشعر فيها، وما قولنا ((المسلم مصاب، وإن الله إذا أحب عبدا ابتلاه، وإن أكثر أهل الجنة البله، وحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه وإن غير المسلمين مستدرجون، وإنهم كلاب الدنيا، وإنهم أعطوا ظاهرا من الحياة الدنيا، وإنهم في غفلة من الموت ولا يدرون أن الحياة تنذر بالرحيل))، إلا إقرارمنا بتلك الغفلة وهذه الغرارة.

ومن الغرارة القول بأن بعض الشيء يغني عن كله وأن لا نرى ضرورة للإتقان في الأمور، والحق أن إتقان الأمور ضروري لنجاحها. ومن الغرارة أن نتوهم أن شؤون الحياة سهلة وبسيطة، فنظن أن العلم بالشيء بشكل ظاهري ومجمل دون التمرن عليه يكفي للعمل به.

ومن الغرارة الظن في أن الكياسة تتحقق في ((أدري واقدر))، أي الادعاء بفهم كل شيء والقدرة على فعل أي شيء، والحقيقة أن الكياسة تكمن في أن يتقن الإنسان عملا ما أو حرفة ما، ويقول عما سواها ((لا أدري ولا أقدر)) .

ومن الغرارة أيضا، فوضى الأمور وترك حياتنا بلا ترتيب، ومن الضروري أن نرتب كل شيء في حياتنا، مثل :

١ – أن نرتب أوقاتنا حسب شغلنا، ونرتب شغلنا حسب أوقاتنا، بحيث أن العمل الذي ليس له وقت يكفيه إما أن ندعه كليا، أو نتركه لغيرنا يقوم به .

٢ – ترتيب النفقات حسب الدخل .

٣ – ترتيب أمور العائلة، بحيث لا نحتاج إلى مزيد من الجهد في أواخر حياتنا، ونربي أولادنا بحيث يعتمدوا على أنفسهم حينما يبلغوا سن الرشد .

٤ – ترتيب الأمور الدينية والحاجات النفسية والجسدية، حسبما يطيق الإنسان، فلا يحمل نفسه ما لا تستطيع تحمله .

٥ – أن يرتب طموحاته حسب إمكاناته .

ومن أهم أسباب الفتور أيضا ترك النسوة جاهلات، عكس ما كان عليه السلف الصالح، بدعوى كاذبة وهي أن جهل النساء أحفظ لعفتهن، وكأن العلم يدعو إلى الفجور، ولا يخفى على احد ضرر جهل النساء وسوء تأثيره في أخلاق وعلى تربية البنين والبنات .

ثم يتابع السيد الفراتي، وأنا أرى أن معظم هذا الفتور نجده في الطبقة العليا من الأمة، فهم يتخاذلون عن كل عمل، ويحجمون عن كل إقدام، ويعتقدون أن الكمال في الأجانب، كالصبية الذين يعتقدون أن الكمال في معلميهم وآبائهم، فيندفعون لتقليد الأجانب وهم يحسبون أن ذلك رقيا وظرافة وتمدنا، وهم يألفون حياتهم هذه ويشق عليهم مفارقتها، كما يألف الجسم المرض فلا تلذ له العافية، فهم ومنذ نعومة أظفارهم تعلموا الأدب مع الكبير، يقبلون يده أو ذيله أو رجله، وألفوا الاحترام فلا يدوسون الكبير ولو داس رقابهم، وألفوا الثبات، ثبات الأوتاد تحت المطارق، وألفوا الانقياد ولو إلى المهالك، وألفوا أن تكون وظيفتهم في الحياة دون النبات، لكن النبات يتطاول وهم يتقاصرون، والنبات يطلب السماء وهم يطلبون الأرض كأنهم مشتاقون إلى الموت . ولطول ألفتهم لهذه الخصال انقلبت في ذهنهم الحقائق، فصاروا يسمون التصاغر

أدبا، والتذلل لطفا، والتملق فصاحة، واللكنة رزانة، وترك الحقوق سماحة، وقبول الإهانة تواضعا، والرضا بالظلم طاعة، كما يسمون دعوى الاستحقاق غرورا، والخروج عن الشأن الذاتي فضولا، ومد النظر إلى الغد أملا، والإقدام تهورا، والحمية حماقة، والشهامة شراسة، وحرية القول وقاحة، وحب الوطن جنونا .

وإن كان هناك من أمل فهو بهؤلاء الناشئة، شباب اليوم ورجال المستقبل، الذين يدركون أنهم ولدوا أحرارا، فيأبون الذل والهوان، يفضلون الموت بكرامة عن العيش بذل، كل منهم سلطان بنفسه، لا سلطة عليه سوى سلطة دينه وأخلاقه وقيمه، هو وأبناء قومه سواء، يشاركهم الشقاء والهناء، بارلوطنه لا يبخل عليه بجزء طفيف من فكره ووقته وماله، لأنه يدرك أنه خلق من تربة هذا الوطن، هؤلاء يعشقون الإنسانية ويعلمون أن إنسانية الإنسان لا تكتمل إلا بعلمه، والجهل هو صنو البهيمية، يعتقدون أن أفضل الناس أنفعهم للناس، وهم يدركون أن القنوط آفة الأمل والتردد آفة العمل، والقضاء والقدر ما هما إلا السعي والعمل، وهم يوقنون أن كل ما على الأرض من أثر ما هو إلا من صنع البشر، أما الناشئة المتفرنجون فلا خير فيهم لأنفسهم، حتى يكون بهم خير لأمتهم ووطنهم، فلا خلاق لهم ، وهم يتمسكون بالدين رياء .

ويختم السيد الفراتي قائلا : والخور والفتور الذي نبحث فيه، هو علة معدية تنتقل من الكبار إلى الصغار، ومن الطبقة العليا إلى العامة، وليت الكبار يرضون بما كتبه الله عليهم من الذلة والمسكنة والخمول، وسقوط الهمة، والدناءة والاستسلام، فيتركوا النشء الجديد وشأنه، لا يستهزئون بهم ولا يعطلون أعمالهم، ولا يسفهون آراءهم، ولا يثبطون هممهم .

هنا شكر الأستاذ الرئيس للسيد الفراتي، ما قام به من تلخيص لما جاء في جلسات الجمعية السابقة، ولما تقدم به من آراء، ثم وزع على أعضاء الجمعية مسودة قانون الجمعية، التي وضعتها اللجنة المختصة بذلك، ومن ثم رفعت الجلسة .

*　　　*　　　*

الاجتماع التاسع

مناقشة قانون الجمعية

ويتبعه الاجتماع العاشر والحادي عشر

السبت / ٢٧ / ذي القعدة / ١٣١٦ هج

في هذه الاجتماعات الثلاثة، قرئ قانون الجمعية، وأبديت ملاحظات الأعضاء عليه قبل إقراره .

ففي صباح هذا اليوم المذكور أعلاه ، انعقدت الجمعية، وقرأ السيد الفراتي ضبط مناقشات الجلسة السابقة حسب الأصول المرعية.

ومن ثم قال الأستاذ الرئيس : سوف نقرأ قانون الجمعية الذي وضعته اللجنة المختصة والماثل بين أيديكم، وهو قانون مؤقت إلى أن تتشكل الجمعية الدائمة إن شاء الله وتزاول وظائفها، حينها سوف تقوم الجمعية بإعادة النظر في هذا القانون على ضوء ما يستجد من أمور، ومن ثم سوف تعرضه على الجمعية العامة، فإذا أقرته يصبح ذلك قانون دائم، وسوف نقرأ مواد القانون فقرة، فقرة ، فإذا كان لبعض الأخوة من ملاحظة فليبدها، وبعد المناقشة إما أن تقبل أو ترد أو تعدل بالأكثرية .

ثم أمر الأستاذ الرئيس بقراءة مواد القانون فقرة بعد أخرى، وجرت بعض المناقشات حول بعض الفقرات، تولى المدقق التركي رئيس اللجنة شرح الإيضاحات اللازمة، فقبلت أكثر الفقرات وتم تعديل بعضها .

واستغرقت مناقشات القانون جلسة ذلك اليوم، وجلسة الاجتماع العاشر التي عقدت يوم الأحد [٢٨/ ذي القعدة / من نفس الشهر] صباحا، وجلسة الاجتماع الحادي عشر التي عقدت مساء نفس اليوم [الأحد / ٢٨ / ذي القعدة / ١٣١٦ هج] .

*   *   *

الاجتماع الثاني عشر

قانون الجمعية

الاثنين / ٢٩ / ذي القعدة / ١٣١٦ هج

وفيه تم إقرارقانون ((جمعية تعليم الموحدين)) وتأليف الجمعية التي ربطت آمالها بالعرب لجمع الكلمتين الدينية والشرقية، ووضعت شروط الانتساب إليها، ومراكزها، وأموالها، ووظائفها.

ففي صباح اليوم المذكور انتظمت الجمعية حسب معتادها، ثم أمر السيد الرئيس بقراءة القانون الذي تقرر في الاجتماعات الثلاثة السابقة، وأهم ما يلفت النظر في هذا القانون المسمى ((قانون جمعية تعليم الموحدين))، المقدمة التي يقرفيها جميع أعضاء الجمعية، ما يلي :

١ – أن المسلمين في حالة تخلف، ويجب تدارك هذا التخلف وإلا تدهور حال الأمة أكثر.

٢ – سبب هذا التخلف هو تهاون الحكام ثم العلماء ثم الأمراء .

٣ – وجرثومة هذا الداء هو الجهل المطلق .

٤ – أما الدواء فهو تنوير الفكر بالتعليم، وإيجاد رغبة في التطور عند الناشئة .

٥ – أما وسيلة المعالجة فهي عقد الجمعيات التعليمية القانونية .

والجمعية ترى أن الكفاءة لإزالة الفتور موجودة في العرب بشكل خاص .

ومن أهم الشروط التي وضعها المجتمعون للعضوية في الجمعية هي :

(١) – سلامة الحواس، والسن بين [٣٠ – ٦٠ سنة] .

(٢) – أن يكون مسلما من أي مذهب كان .

(٣) – العدالة، أي صاحب سمعة حسنة وسلوك قويم .

(٤) – الكتابة بإتقان، في لغة ما ولو كانت عامية .

(٥) – النشاط، أي أن يكون ذو همة ونجدة وحمية .

أما بالنسبة للأعضاء العاملين والمستشارين فيشترط في عضويتهم، إضافة للشروط السابقة الشروط التالية:

أ – القدرة على التكلم والكتابة بالعربية .

ب – أن يكون لديه وقت الفراغ الكافي لممارسة دوره ومهامه .

وإذا ما أضيف للجمعية أعضاء فخريين، فيجب أن يتحلوا بالصفات التالية إضافة لما سبق :

١ – القدرة على الكتابة في أحد اللغات الأربعة التالية العربية، أو التركية، أو الفارسية، أو الأوردية .

٢ – مراسلة الجمعية بإحدى هذه اللغات، بمقالة أو رسالة ، يتم اقتراح موضوعها من قبل الجمعية .

٣ – الإذعان لانتقادات وتنقيحات الجمعية .

هذا ويتم اختيار أعضاء الجمعية العامة، والمترشحين للهيئة العامة، والمستشارين بطريقة الاقتراع السري.

والهيئتان العاملة والمستشارة يدققون صفات الذين يراد أن يكونوا من الأعضاء الفخريين أو المحتسبين، ثم بالانتخاب السري والأكثرية المطلقة يقبلون أو يردون، ولهاتين الهيئتين حق رفع العضوية عمن يعلم وقوع حالة منه تستوجب ذلك، ويتم ذلك بشكل سري، وتصدق بأكثرية الثلثين .

ومن أهم مبادئ الجمعية :

- أن لا تتدخل في الشؤون السياسية .

- أن لا تكون مرتبطة أو تابعة لأي حكومة، لكنها يمكن أن تقبل المعونة والمساندة من السلاطين والأمراء المستقلين .

- أن لا تنتسب الجمعية إلى مذهب معين أو شيعة خاصة من مذاهب وشيع الإسلام .

- تلتزم الجمعية بالسلوك الديني السلفي المعتدل، ونبذ كل زيادة وبدعة في الدين ، وعدم الجدال في الدين إلا بالتي هي أحسن .

ومما جاء في مالية الجمعية :

- أن الموارد المالية للجمعية تعتمد على مصدرين : الأول ، ربح المطبوعات التي تقوم فيها الجمعية، والثاني، التبرعات التي تأتي للجمعية .

- أن يكون أمين المال من أغنياء التجار، ويوضع المال في يده بطريقة شبه مضمونة، وأن يعطي وصولات مرقمة متسلسلة، لكل قرش يقبضه أو يصرفه .

هذا ويمكن للهيئتين العاملة والمستشارة تعديل قانون الجمعية بالاتفاق أو بأغلبية الثلثين، مع إيضاح الأسباب التي توجب هذا التعديل .

ومن المهام التي وضعت للجمعية :

١ – تعميم القراءة والكتابة .

٢ – الترغيب في العلوم العامة والفنون النافعة .

٣ – إقامة مدارس متخصصة بنوع واحد من العلوم .

٤ – محو الأمية ودورات تقوية .

٥ – إقامة برامج للتعليم المستمر.

٦ – تعليم الراغبين في الاختصاص .

٧ – الرجوع إلى أصول الشرع.

٨ – تكليف كل فرقة من الفرق الإسلامية بمهمة معينة يخدمون بها أبناء الأمة،

فتكلف الفرقة القادرية مثلا بإعاشة وتعليم الأيتام، وتكلف فرقة أخرى بمواساة المساكين وأبناء لسبيل و جماعة بتمريض الفقراء والبائسين، وأخرى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... إلخ .

أما وسيلة الجمعية في نشر فكرها وتحقيق مقاصدها هي النصيحة والموعظة الحسنة، والابتعاد عن العنف والإجباروالكفاح المسلح، مسلكها في ذلك تذليل العقبات واحدة تلو أخرى، حصنها الدين الحنيف، وسلاحها العلم والتعليم، جيشها الشباب الفقراء، وقوادها حكماء العلماء والأمراء، رايتها القدوة الحسنة، غنيمتها بث الحياة في الموحدين، وغايتها خدمة المدنية والإنسانية، وثمرة أعضائها وأنصارها لذة الفكر والفخر ونيل الأجر من الله .

ثم عقدت الجمعية اجتماع الوداع في رابع أيام عيد الأضحى المبارك، وأهم ما جاء في هذا الاجتماع، أن الجمعية وبعد البحث والتدقيق، رأت أن لجزيرة العرب ولأهلها فقط، من الخصائص والميزات ما يجعلهم وحدهم القادرين على حفظ الحياة الدينية، وانتظار ذلك من غيرهم يعتبر نوع من العبث، وهذا لا يمنع من أن الأقوام الأخرى، يتمتع كل منها بمزايا معينة يتفوق فيها على الآخرين، ثم يعدد تلك المزايا ويشير إلى القوم المناسبين لكل منها، ثم بدأ يعدد مزايا جزيرة العرب، ومزايا عرب الجزيرة التي تؤيد وجهة نظره بأن العرب وجزيرتهم هم الأقدر على حفظ الدين من غيرهم، وهنا انتهت الاجتماعات وختمت المناقشات، وانفض الجميع على أمل اللقاء .

* * *

بعد تلك الاجتماعات بشهرين، التقى أحد المؤتمرين بأمير هندي ناقشه في شأن الجمعية، وأرسلت نتيجة المباحثات إلى السيد الفراتي، فدونها، وقد انتهت إلى ضرورة وجود خليفة عربي يستلم زمام الرابطة الدينية، ولا يكون حاكما. وتدار البلاد إدارة ذاتية بواسطة حاكم مدني عربي عليه ألا يتدخل في شؤون الدين مطلقا، وإنما هو خاضع لمجلس الشورى في بلاده حتى لا تتعارض القوانين الوضعية مع مبادئ الشرع في خطوطه العامة، وحتى يحافظ على ممارسته الشورية العادلة. لأن السلطة من دون رقابة علماء الأمة ، تفسد الأمة والسلطان معا، ولا يجوز أن تجتمع الخلافة والملك في شخص واحد

حتى لا يفسد السلطان الدين، بتحريفه وفق مقتضيات المصلحة الطارئة للحكم، وحتى لا يحكم باسم الدين ((**لأن الدين شيء، والملك شيء آخر**)، وإنما على الملك أن يراعي شؤون دولته بما لا يتعارض وأحكام دينه، وإذا دققنا النظر في التاريخ، نجد أن ((**إدارة الدين وإدارة الملك، لم تتحدا في الإسلام تماما إلا في عهد الخلفاء الراشدين**))،بناء عليه، لا يجوز الاتكال على الملوك العثمانيين في أمر الخلافة علاوة على السلطنة . وهذه نبذة عما دار بين الصاحب الهندي والأمير من حوار وتبادل أفكار، نوجزها في هذا الملحق.

ملحـــق

تحت هذا العنوان يتصور الكواكبي أنه بعد شهرين من تفرق الجمعية، جرى لقاء بين الصاحب الهندي وأحد الأمراء بعد أن أهداه مقررات الجمعية ليضطلع عليها ويعلق عليها برأيه، ودار بينهما حوار، أهم ما جاء في هذا الحوار، أن الجمعية أعطت السياسة الدينية كل الاهتمام، وأهملت السياسة الإدارية. فقال الأمير: بما أن علة الفتور هو الخلل الديني لذلك أعطاه المجتمعون جل اهتمامهم، لأنه إذا زالت العلة زال المعلول، ومع الرغم من كل هذا فإن السيد الفراتي في فصل الأسباب الإدارية، لم يترك شيئا من الأسباب الإدارية إلا وأشار إليه .

الصاحب الهندي : أليس من الإجحاف تعليق إعزاز الدين بالعرب، دون دولة آل عثمان وملوكهم العظام .

قال الأمير: إن طموح الجمعية منحصر في النهضة الدينية فقط، وهي تأمل أن يأتي الانتظام السياسي تبعا للدين، ولا شك أنه لا يقوم بالهدي الديني ويغار على الدين أمة مثل العرب .

قال الصاحب : ولكن في آل عثمان رجال عظام قدموا للدين خدمات جليلة، كالسلطان محمد الفاتح، والسلطان ياوز سليم، والسلطان سليمان، والسلطان محمود، والسلطان الحالي المعظم، فهم أولى وأجدر بالخلافة من غيرهم .

قال الأمير: أرجو أن لا تنظر للمسألة نظرة إنسان عامي، بل انظر لها نظرة السياسي الحكيم الذي يأخذ بعين الاعتبار الماضي والمستقبل . وانظر إلى التاريخ لترى أن الدين

والملك لم يجتمعا إلا في عهد الخلفاء الراشدين، وعهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهم، وبشكل نسبي أيام الأمويين والعباسيين، ثم افترق الملك عن الخلافة .

أما السلاطين الذين تتحدث عنهم، فسوف أذكر لك بعضا من أعمال اقترفوها، حفاظا على ملكهم وسلطتهم، وهي بمجملها ضد الدين ومخالفة لشرعه .

هذا هو السلطان محمد الفاتح (٤٢)، أفضل سلاطين بني عثمان قد قدم الملك على الدين، فاتفق سرا مع فرديناند (٤٣) ملك الأراغون (٤٤) الأسباني، ثم مع زوجته إيزابيلا (٤٥)، على تمكينهما من إزالة حكم بني الأحمر، آخر الدول العربية في الأندلس، ورضي بالقتل العام والإكراه على التنصر بالإحراق، وضياع خمسة عشر مليونا من المسلمين، وذلك بإعانتهما بإشغاله أساطيل أفريقيا عن نجدة المسلمين، مقابل ما قامت له به روما من خذلان الإمبراطورية الشرقية عند مهاجمته مكدونيا ثم القسطنطينية .

وهذا السلطان سليم (٤٦)، غدر بآل العباس واستأصلهم، حتى أنه قتل الأمهات من أجل الأجنة، وبينما كان هو يقتل العرب في الشرق كان الأسبان يحرقون بقيتهم في الأندلس .

وهذا السلطان سليمان، ضايق إيران حتى ألجأهم إلى الرفض المكفر (٤٧)، ولم يقبل العثمانيون دعوة نادر شاه (٤٨) لنبذ التفرقة بين المسلمين بمجرد تصديق مذهب الإمام جعفر، كما لم يقبلوا من أشرف خان الأفغاني اقتسام فارس كي لا يجاورهم ملك سني، وقد سعوا في انقراض خمس عشرة دولة وحكومة إسلامية، منها أنهم أغروا وأعانوا الروس على التتار المسلمين، وهولاندة على الجاوة (٤٩) والهنود، وتعاقبوا على تدويخ اليمن، فأهلكوا إلى الآن عشرات الملايين من المسلمين يقتلون بعضهم بعضا، لا يحترمون فيما بينهم دينا ولا أخوة ولا مروءة ولا إنسانية، حتى أن العسكر العثماني باغت المسلمين مرة في صنعاء والزبيد (٥٠)، وهم في صلاة العيد .

وهذا السلطان محمود اقتبس من الإفرنج كسوتهم، وألزم رجال دولته وحاشيته بلبسها حتى عمت أو كادت، ولم يشأ الأتراك أن ينيروا منها الأكمام رعاية للدين لأنها مانعة من الوضوء أو معسرة له، وهذا السلطان عبد المجيد رأى من مؤيدات إدارة ملكه إباحة الربا والخمور وإبطال الحدود، ورأى مصلحة في قهر الأشراف وإذلال السادات،

بإلغاء نفوذ النقابات، ففعل .

وفي هذا كفاية للدلالة على أن الملك عند هؤلاء السلاطين يتقدم على الدين، أما صفة خادم الحرمين أو لقب الخلافة الذي ينعتون به أنفسهم، فهذا لا يفيد الدين وأهله شيئا .

أما هؤلاء الغشاشين الذين يغرون السلطان بما يؤلفونه هم وأعوانهم من كتب ورسائل، ينسبونها تارة لأنفسهم وتارة لغيرهم من المنافقين والمتملقين، فيجعلون العثمانيين يتصلون نسبا بعثمان بن عفان (ر)، ويرفعون نسبهم حينا آخر ليتصل بقريش، ويعطونهم حق الخلافة مرة بالتنازل من العباسيين، وأخرى بالاستحقاق والوراثة، وآونة بالعهد، وأخرى بالبيعة العامة، وحينا بخدمة الحرمين الشريفين، وأحيانا بحفظ المخلفات النبوية .

وهؤلاء الغشاشين لا يبغون حقيقة سوى تبرير ما ينسبونه لأنفسهم ولآبائهم وأجدادهم من سيادة وولاية وقطبانية، ويحشون مؤلفاتهم أنسابا انتحلوها لأنفسهم، مقرونة بنسب حضرة السلطان، ويروون حكايات كرامات لأجدادهم ملفقة مخترعة لا يقرها أي من المسلمين .

والمعروف أن لقب الخلافة والإمامة الكبرى أو إمارة المؤمنين في آل عثمان حدثت في عهد السلطان محمود، حيث صار بعض وزرائه يخاطبونه بهذه الصفات، إمعانا في الإجلال وتفننا في التعظيم، ثم توسع استعمال هذه الألقاب في عهد ابنيه وحفيديه، إلى ما بلغه اليوم من الغلو في الغش والتدليس.

ثم قال الأمير: أنه من وحي ما قاله السيد الفراتي ، أقترح ما يلي :

- أن الخليفة يجب أن يكون عربي قرشي .

- أن تشكل هيئة للشورى مؤلفة من مندوبين من جميع السلطنات والإمارات، وظيفتها محصورة في شؤون السياسة العامة الدينية فقط .

- مهمة هيئة الشورى، وضع قانون للدولة، واختيار الخليفة الذي تعاد بيعته كل

ثلاث سنوات، وتسقط بيعته إذا خالف أي شرط من شروط البيعة ، والخليفة لا يتدخل في الشؤون السياسية والإدارية في السلطنات والإمارات قطعا، ولا يكون تحت أمرته قوة عسكرية مطلقا .

أما وظائف الشورى فلا تخرج عن تمحيص أمهات المسائل الدينية، ذات العلاقة مع سياسة الأمة، مثل :

- فتح باب النظر والاجتهاد، تمحيصا للشريعة، وتيسيرا للدين .

- فتح باب حسن الطاعة للحكومات العادلة، والاستفادة من إرشاداتها، وإن كانت غير مسلمة، وسد أبواب الانقياد المطلق، ولو لمثل عمر بن الخطاب (ر) .

- فتح باب أخذ العلوم والفنون النافعة ولو عن المجوس، وسد باب إضاعة الأوقات بالعبث، ونحو ذلك من أمهات المنجيات من المهالك .

ثم قال الأمير: بهذا الشكل تنحل مشكلة الخلافة، ويسهل بذلك تشكيل إتحاد إسلامي، تضامني، تعاوني، مستفيدا من تجربة الألمان والأمريكان، مع مراعاة الخصوصية، وبذلك تأمن الحكومات الإسلامية الموجودة على حياتها السياسية من الغوائل الداخلية والخارجية، فتتفرغ للترقي بالمعارف والعمران والثروة والقوة، مما لابد منه للنجاة من الممات .

قال الصاحب الهندي : أخبَرني، أيها الأمير، أحد أعضاء الجمعية أنه لما رأى السيد الفراتي، يميل للتنقيب عن سياسة العثمانيين، واستمالة الجمعية عليهم لا لهم، قال له معاتبا، ألا ينبغي ستر أحوال العثمانيين والدفاع عنهم باعتبارهم أعظم دولة إسلامية موجودة ؟

فأجابه السيد الفراتي : بأن ذلك يكون صحيحا لو لم ينطوي على خداع للمسلمين، لأن هذه الدولة لم تنفع الإسلام بشيء وهي في عز شبابها، لكنها أضرت بالإسلام والمسلمين، وذلك بمحو الخلافة العباسية المجمع عليها، وتخريب ما بناه العرب، وإرهاق الأمة بفتوحات شرقي أوروبا .

ثم قال : أليس الترك قد تركوا الأمة أربعة قرون بلا خليفة، وتركوا الدين تعبث فيه الأهواء بلا مرجع، وتركوا المسلمين صما بكما عميا بلا مرشد ؟

أليس الترك قد تركوا الأندلس مبادلة، وتركوا الهند مساهلة، وتركوا الممالك الجسيمة الآسيوية للروسيين، وتركوا قارة أفريقيا الإسلامية للطامعين، وتركوا المداخلة في الصين كأنهم المبعدون؟

ألم يحن الوقت ليعودوا إلى رشدهم وضميرهم ويتقوا الله في الإسلام والمسلمين ؟

هذا هو أم القرى الذي بحث فيه الكواكبي عن الداء، وحاول تبيين وضع الشعوب الإسلامية عموما، والعرب خصوصا، ومما هم عليه من ضعف وفساد، وحاول أن يجد فيه حلولا مناسبة للخروج من الأزمة، لكنه بعد البحث الطويل، أدرك أن الاختصاص في العلة يؤدي إلى الاختصاص في الحل، مما قد يكون أكثر فائدة . وهكذا حاول أن يتعرف إلى العدو ((= **الاستبداد**))، ليتمكن بعد ذلك من مقاومته وإقامة البديل، وهذا ما فعله في كتابه الثاني ((**طبائع الاستبداد**)) .

وهكذا نجد أن ((**أم القرى**)) واحد من الكتب المذهلة، إن حذفنا منه تاريخ تأليفه، فلن نشك لحظة واحدة في أنه قد أنجز توا، خصوصا أن صاحبه قد وقعه باسم السيد الفراتي .

هوامش أم القرى

* ضبط مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الإسلامية المنعقد في مكة المكرمة، سنة ١٣١٦ هج – لمؤلفه السيد الفراتي . (عنوان الكتاب – كما نشرته مجلة المنار المصرية عام ١٣٢٠ هجرية).

١ - السيد الفراتي : اسم مستعار اتخذه الكواكبي لنفسه .

٢ – لأن الروسي يعد أجنبيا لا يمكن للحكم التركي أن يتعدى عليه .

٣ – رواه بخاري ومسلم والترمذي والنسائي .

٤ – أي منذ [٣١٦ هج – ٩٢٨ م]، حيث تمكن غير العرب من حكم الدولة العباسية في أواخر عهدها.

٥ – إشارة إلى صعوبة اكتساب الأخلاق قياسا إلى تلقي العلوم .

٦ – الصابئة : الذين تقتضي تعاليمهم الاغتسال في المياه الجارية، لذلك فهم يقيمون قرب الأنهار، والصابئة في الأصل قوم يعبدون الكواكب .

٧ – دجلة : نهر ينبع من تركيا، شرق جبال طوروس، ثم يجري في العراق مارا بالموصل وبغداد، ثم يلتقي مع الفرات ليشكلا شط العرب الذي يصب في خليج البصرة .

٨ – العقيدة الجبرية : يعتقد من يؤمنون فيها أن الإنسان مسير، وأن الله هو الذي يخلق الأفعال كما يخلق الجمادات، من القائلين فيها الجهم بن صفوان توفي عام [١٢٨هج = ٧٤٥م]، وتسمى أيضا الجهمية .

٩ – القدرية :اتجاه يرى أن الإنسان خالق لأفعاله، وهو حر في اختياره، من القائلين به غيلان الدمشقي، ومبدأ القدرية أحد أصول المعتزلة .

١٠ – إن المولى الرومي هو من أهل القسطنطينية الذين حرم عليهم سياسة التلفظ بكلمات، حرية، ووطن، وجمعية، ومراد، ورشاد، وخلافة، وخلع، ومبعوث، ومعتوه، ومختل، إلى نحو ذلك من الألفاظ التي تمس سياسة الوهم .

١١ – حسان بن ثابت الأنصاري. توفي [سنة ٦٧٤ م]، شاعر مخضرم، ولد ومات في المدينة المنورة، دافع عن الإسلام، وهجا قريش، أعجب به النبي (ص) فاتخذه شاعرا له، عمي في آخر أيامه .

١٢ – محتسبين : موظفون لمراقبة البضائع في الأسواق، من حيث جودتها وأسعارها وطرق عرضها وحفظها، وهم يسمون في عصرنا مراقبي التموين .

١٣ – هو محمد علي بن طباطبا، المعروف بابن الطقطقي، المتوفى [سنة ٧٠٩ هج = ١٣٠٩ م]، واسم كتابه كاملا ((**الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**)) .

١٤ – هولاكو (١٢١٧ – ١٢٢٥ م)، فاتح مغولي ومؤسس دولة المغول الإليخانية في إيران، حفيد جنكيزخان، قضى على الخلافة العباسية في بغداد عام (١٢٥٨ م)، واحتل سوريا، هاجم المصريون جيشه في الشام وأبادوه سنة (١٢٦٠ م) .

١٥ – جيوزيبي غاريبالدي (١٨٠٧ – ١٨٨٢ م)، جندي وطني إيطالي ، من أبطال حركة البعث، ولد في نيس وهرب بعد اشتراكه في مؤامرة جمهورية فاشلة عام (١٨٣٥م)، شارك في الحروب الأهلية في البرازيل وأورغواي، نزل عن آرائه الجمهورية، وأيد سياسة كافور وفيكتور عمانوئيل الثاني، وفي عام (١٨٦٠ م)، قاد ألف متطوع عرفوا ب((أصحاب القمصان الحمر))، وانتخب نائبا عام (١٨٧٤ م)، ولكن حياته السياسية ليست هامة، وظل بطلا شعبيا للإيطاليين .

١٦ – سورة الأنفال – الآية ٣٥ .

١٧ - طريقة صوفية تنسب إلى جلال الدين الرومي، كان أصحابها يقيمون حلقات الذكر، بالأناشيد والرقص، على توقيعات آلات الطرب، والمقصود هنا .. مرتبة .

١٨ - صفات كان يحصل عليها المتملقون في ظل الدولة العثمانية .

١٩ - أي الانفراد فيما تجب المشورة فيه .

٢٠ - زنديق : معرب عن الفارسية، أطلقه الفرس قديما على الخارج على دين الدولة ببدع معينة، أهمها: القول بأزلية العالم، استعمله المسلمون أولا للدلالة على مذهب المانوية، القائلين بالأصلين، النور والظلمة، وغيرهم من الثنوية، ثم اتسع معناه فشمل الدهريين والملحدين وسائر أصحاب المعتقدات الضالة، بل أطلق على المتشككين، وكل متحرر من أحكام الدين فكرا وعملا .

٢١- سورة التوبة – الآية (٣١).

٢٢ - سورة الزمر – الآية (٣) .

٢٣ - رواه الترمذي، وحسنه ابن حيان في صحيحه .

٢٤ - سورة النساء – الآية (١٧٠)

٢٥ - رواه أحمد ومسلم وأبو داوود عن ابن مسعود .

٢٦ - الكتب الجامعة للحديث النبوي الشريف، وهي : صحيح البخاري، صحيح مسلم، سنن أبي داوود، جامع الترمذي، سنن ابن ماجة، وسنن النسائي .

٢٧ - سورة الشورى – الآية (١٣) .

٢٨ - الحاكم البيهقي : أحمد بن علي أبو جعفر البيهقي (٤٧٠ – ٥٤٥ هج = ١٠٧٧ – ١١٥٠ م)، لغوي ولد ومات في نيسابور، له : المحيط بلغات القرآن وتاج المصادروغيرها.

٢٩– المزني : أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى (١٧٥ – ٢٧٤ هج = ٧٩١ – ٨٧٨ م)، تلميذ الشافعي وناشر مذهبه، توفي في مصر، له المختصر وفيه خلاصة الفقه الشافعي مع بعض الزيادات .

٣٠ – الأوزاعي : عبد الرحمن الأوزاعي [٨٨ – ١٥٧ هج = ٧٠٧ – ٧٧٤ م]، ولد في بعلبك وتوفي في بيروت، من أئمة الفقه الإسلامي، له كتاب السنن وكتاب المسائل .

٣١ – سفيان الثوري : أبو عبد الله (ت ١٦١ هج – ٧٧٨ م)، محدث ومن أئمة

المجتهدين، ولد في الكوفة وتوفي في البصرة، أثارت اجتهاداته كثيرا من الجدل في عصره، له الجامع الكبير، والفرائض، وغيرهما .

٣٢ – زفر: هو محمد بن الحسن الشيباني، المعروف بزفر بن الهزيل ((١٣٢ – ١٨٩ هج = ٧٤٩ – ٨٠٤ م]، كان يلازم الإمام أبي حنيفة ويأخذ عنه .

٣٣ – سورة البقرة – الآية (٢٨٦) .

٣٤ - طريقة صوفية منتشرة في الصين وتركستان والهند وتركيا، مؤسسها، بهاء الدين محمد بن أحمد الفاروقي (ت : ٧٩١ هج = ١٣٨٩ م)، وهو صوفي أصله من بخارى، له الأوراد البهائية، وسلك الأنوار، وهدية السالكين .

٣٥ – شعائر وقراءات يمارسها أتباع النقشبندية .

٣٦ - سورة البقرة – الآيتان (١١ و١٢)

٣٧ - سورة الكهف – الآيتان (١٠٣ و١٠٤)

٣٨ - سورة الشورى – الآية (١٣) .

٣٩ - لأنه في الأساس يجب أخذ زكاة أموال الأغنياء وصدقاتهم لتوزع على الفقراء لتحسين أحوالهم، أما ما آلت إليه الأمور هو إرهاق الفقراء بالضرائب والإتاوات لتزداد بها تخمة الأغنياء وأموالهم المكدسة .

٤٠ – يمكن لمن أراد المزيد أن يعود إلى باقي أسباب الفتور التي لخصها الكواكبي في كتابه أم القرى.

٤١ - الغرارة : هي الغفلة وهي نقيض الوعي والانتباه .

٤٢ - محمد الفاتح : محمد الثاني (الفاتح) (١٤٢٩ -١٤٨١ م) حكم بين عامي (١٤٥١ – ١٤٨١ م)، ابن مراد وخليفته، أتم فتح الإمبراطورية البيزنطية باستيلائه على القسطنطينية عام (١٤٥٣ م)، ثم استولى على اليونان والبوسنة، كان نصيرا للشعر والعلوم واللغة، ويعد المؤسس الحقيقي للإمبراطورية العثمانية .

٤٣ - فرديناند الإسبانيولي (ملك الأراغون): فرديناند الخامس أو فرديناند الكاثوليكي(١٤٥٢-١٥١٦) ملك قشتالة وليون (١٤٧٤ – ١٥٠٤ م) وملك أراغون باسم فرديناند الثاني (١٤٧٩ – ١٥١٦ م) وملك صقيلية ونابلي (١٤٦٨- ١٥١٦)، في عام (١٤٦٩) تزوج ملكة قشتالة، وفي عام (١٤٧٤) تولى وإيزابلا ملك قشتالة بالاشتراك، وهكذا توحدت إسبانيا وطرد اليهود والمسلمين، وأقيمت محاكم التفتيش .

٤٤ - الأراغون : مملكة قديمة شمال شرق أسبانيا .

٤٥ - إيزابيلا : هي إيزابيلا الأولى أو إيزابيلا الكاثوليكية (١٤٥١- ١٥٠٤)، كانت ملكة على قشتالة وليون وزوجة فرديناند الثاني ملك الأراغون .

٤٦ – السلطان سليم : هو سليم الأول (٨٧٢ – ٩٢٧هج = ١٤٦٧ – ١٥٢٠ م)، سلطان تركيا بين عامي (١٥١٢ – ١٥٢١ م)، خلع أباه يزيد، وقتل إخوته، وبدأ حكمه بقتل [٤٠ ألف من الشيعة]، انتصر على السلطان المملوكي قانصوه الغوري في معركة مرج دابق عام (١٥١٦)، أعدم بقايا نسل العباسيين .

٤٧ – هو رفض الاعتراف بالخلفاء الثلاثة الأول، وهي فرقة شيعية لقبت بالرافضة، تقدس آل البيت .

٤٨ - نادر شاه : (١٦٨٨ – ١٧٤٧ م)، شاه إيران (١٧٣٦ – ١٧٤٧)، مؤسس أسرة أفغار، انتصر على الأفغانيين والترك في عهد الأسرة الصفوية، جعل نفسه شاه فارس، غزا الهند، ثم انقلب إلى القسوة والاستبداد، حتى أنه أمر بأن تفقأ عينا أحد أولاده .

٤٩ - جاوة : جزيرة في شرق المحيط الهندي، وهي اليوم ضمن الجمهورية الإندونيسية.

٥٠ - زبيد : من أهم مدن تهامة باليمن .

طبائع الاستبداد
ومصارع الاستعباد

وهي كلمات حق وصيحة في واد، إن ذهبت اليوم مع الريح، لقد تذهب غدا بالأوتاد محررها هو الرحالة . هكذا عنون الكواكبي كتابه الثاني، الذي كتب رؤوس مقالاته في حلب، وكان يعدلها باستمرار، وهو يتألف من تمهيد ومقدمة وتسع مقالات تحت عناوين ((ما هو الاستبداد، الاستبداد والدين، الاستبداد والعلم، الاستبداد والمجد، الاستبداد والمال، الاستبداد والأخلاق، الاستبداد والتربية، الاستبداد والترقي، الاستبداد والتخلص منه)) .

فالكتاب هو مجموعة مقالات، الرابط بينها هو الاستبداد الذي يشكل محور الكتاب، حيث يحاول المؤلف أن يبين أسباب الاستبداد وأعراضه وعلاقاته وآثاره وبدائله . فبعد صفحة الغلاف يبدأ الكواكبي كتابه بفاتحة للكتاب تبدأ بسم الله الرحمن الرحيم وحمده والصلاة على أنبيائه، ثم يعرف الكواكبي بنفسه، وبكتابه، وبالظروف التي كتب فيها كتابه، والهدف من وراء الكتاب، فيقول أنا عربي مسلم، مضطر للتستر، إشارة إلى استعماله اسما مستعارا (الرحالة ك)، أملا بأن يعرف الحق في ذاته لا بالرجال، وللتخفي عن عين المستبد الغاشم الذي يبطش بكل مفكر حر وفكر مستنير، وفي سنة [١٣١٨ هج] هجرت دياري قاصدا مصر، لاغتنام مناخ الحرية فيها، الذي كان يعم الأرجاء المصرية على عهد الخديوي عباس الثاني (١)، فوجدت أن الجميع يخوض في المسألة

الأساسية، وهي المسألة الاجتماعية التي تؤرق الشرق عامة والمسلمين خاصة، ولكل منهم رأيه في سبب الانحطاط ، وفي طريقة علاجه، أما أنا فقد توصلت لرأي مفاده ((**أن أصل هذا الداء هو الاستبداد السياسي، ودواؤه دفعه بالشورى الدستورية**))، وذلك بعد دراسة وتمحيص لمدة ثلاثين عاما، عن الأسباب المحتملة لداء التخلف والانحطاط الذي تعاني منه الأمة وعن طرق معالجتها، وما أن أكتشف سببا حتى أجد أنه فرع لأصل وهو نتيجة لا وسيلة، فالقائل مثلا : أن سبب الداء هو التهاون في الدين، يحار حين يسأل نفسه لماذا تهاون الناس في الدين ؟ والقائل : إن الداء اختلاف الآراء، يقف مبهوتا عند تعليل سبب الاختلاف، وإن قال أن سببه الجهل، يختلط عليه الأمر حين يجد الاختلاف بين العلماء أقوى وأشد، وهكذا حتى يجد نفسه في حلقة مفرغة، فيعود إلى القول : هذا ما يريده الله في خلقه، متناسيا منطق العقل والدين أن الله حكيم عادل ورحيم.

ولكي أبرهن بأن أصل هذا الداء هو الاستبداد السياسي، قمت في زيارتي الأولى لمصر بنشر عدة مقالات في جرائدها عن الاستبداد تحت عناوين : ما هو الاستبداد، وما تأثيره على الدين، على العلم، على التربية، على الأخلاق، على المجد، على المال.. إلى غير ذلك.

وفي الزيارة الثانية لمصر ونزولا عند رغبة بعض الشباب قمت بتوسيع بعض الأبحاث الخاصة بالاجتماعيات، كالتربية والأخلاق، وأضفت إليها طرق التخلص من الاستبداد ونشرت كل ذلك في كتاب بعنوان ((**طبائع الاستبداد و مصارع الاستعباد**))، وجعلته هدية مني للناشئة العربية المباركة التي تعقد عليها آمال الأمة .

وفي زيارتي الثالثة وحين وجدت أن طبعة الكتاب قد نفدت، أعدت النظر بالكتاب وأضفت إليه بعضا من الزيادة مما درسته ومما اقتبسته وطبقته، وأنا لا أقصد في هذا الكتاب مستبدا بعينه، ولا أمة أو حكومة معينة، لكن الهدف هو بيان طبائع الاستبداد وما يفعل، وتشخيص مصارع الاستعباد وما يقضيه ويمضيه على ذويه، وهناك هدف آخر من الكتاب هو التنبيه لمورد الداء الدفين، عسى أن يعرف الذين قضوا نحبهم، أنهم هم السبب فيما حل بهم، فلا يعتبوا على غيرهم وعلى أقدارهم، وإنما عليهم أن يعتبوا على جهلهم وفقد هممهم وتواكلهم.

وينهي الكواكبي هذه الافتتاحية بقوله الرائع : ((**هذا جهدي، وعلى الناقد الفاضل**

أن يأتي قومه بأفضل منه، فما أنا إلا فاتح باب صغير من أسوار الاستبداد، عسى الزمان يوسعه، والله ولي المهتدين)) .

١٣٢٠ هج – ١٩٠٢ م

*　　*　　*

مقدمة

في هذه المقدمة يذكر المؤلف بعض مصادره العربية والإسلامية والأوروبية، التي تناولت هذه المسألة، ثم ينتقل إلى تعريف علم السياسة بأنه **((إدارة الشؤون المشتركة بمقتضى الحكمة))**،أما الاستبداد فهو **((التصرف في الشؤون المشتركة بمقتضى الهوى))**،وواضح تماما الفرق بين العبارتين، ففي مقابل ((الإدارة))، هناك ((التصرف))، وفي مقابل ((الحكمة))، هناك ((الهوى)) . فالإدارة فعل يتم بموجب قوانين محددة، وبالشكل الذي يتوافق مع العقل، لتسيير الأمور العامة وفق مصلحة الأمة، أما التصرف فهو فعل مزاجي يتم انطلاقا من شهوات المستبد ورغباته، بعيدا عن أي منطق أو تفكير يصب في مصلحة المجتمع، وبذلك يضع الكواكبي ((التصرف والهوى)) خارج دائرة السياسة، فبحثه إذا سياسي، وآفة السياسة : الاستبداد .

فيقول الكواكبي : السياسة علم واسع قلما نجد إنسان يحيط فيه، لكن ما من إنسان إلا ويحتك به، ألف في هذا العلم الكثيرون، من الشرق والغرب، من العرب والأجانب، من جمهورية أفلاطون إلى خراج أبي يوسف، تارة على لسان الحيوان، وممزوجا بالأدب والتاريخ أحيانا أخرى .

ويعرف علم السياسة بأنه ((إدارة الشؤون المشتركة بمقتضى الحكمة))، بالتالي لا بد وأن يكون أول أبحاثه، هو الاستبداد الذي يعني ((التصرف في الشؤون المشتركة بمقتضى الهوى)) وعلى المتكلم عن الاستبداد أن يجيب على العديد من الأسئلة مثل: ما

هو الاستبداد ؟ ما سببه ؟ ما أعراضه ؟ ما سيره ؟ ما إنذاره ؟ وما دواؤه ؟

وخلف هذه الأسئلة هناك تفصيلات كثيرة، مثل: ما هي طبائع الاستبداد ؟ لماذا يكون المستبد شديد الخوف؟ لماذا يستولي الجبن على رعية المستبد ؟ ما تأثير الاستبداد على الدين ؟ على العلم ؟ على المجد ؟ على المال ؟ على الأخلاق ؟ على الترقي ؟ على التربية؟ على العمران ؟ من هم أعوان المستبد ؟ هل يمكن تحمل الاستبداد ؟ كيف يكون التخلص من الاستبداد ؟ بماذا ينبغي استبدال الاستبداد ؟

وهذا الموضوع يختلف مفهومه باختلاف زاوية النظر إليه، فكل واحد منا ينظر إليه من زاوية تختلف باختلاف نشأته وانتمائه :

فالمادي يقول : الداء القوة والدواء المقاومة .

ويقول السياسي : الداء استعباد البرية، والدواء استرداد الحرية .

ويقول الحكيم : الداء القدرة على الاعتساف، والدواء الاقتدار على الاستنصاف .

ويقول الحقوقي : الداء تغلب السلطة على الشريعة، والدواء تغليب الشريعة على السلطة (٢) .

ويقول الرباني : الداء مشاركة الله في الجبروت، والدواء توحيد الله حقا .

هذه أقوال أهل النظر، أما أقوال أهل العزم :

يقول الأبي : الداء مد الرقاب للسلاسل، والدواء الشموخ عن الذل .

ويقول المتين : الداء وجود الرؤساء بلا زمام، والدواء ربطهم بالقيود الثقال (٣) .

ويقول الحر: الداء التعالي على الناس باطلا، والدواء تذليل المتكبرين .

ويقول المفادي (٤) : الداء حب الحياة والدواء حب الموت .

*　　　*　　　*

ما هو الاستبداد

يبدأ المقال الأول بتحديد معنى الاستبداد، لغة واصطلاحا.

فالاستبداد لغة : هو غرور المرء برأيه، والأنفة عن قبول النصيحة، أو الاستقلال في الرأي وفي الحقوق المشتركة .

أما الاستبداد اصطلاحا فهو: تصرف فرد أو جمع في حقوق قوم بالمشيئة وبلا خوف تبعة .

وهناك مرادفات لمعنى الاستبداد مثل : استعباد، واعتساف، وتسلط، وتحكم، وعكسها: مساواة، حس مشترك، وتكافؤ، وسلطة عامة .

ويطلق على المستبد صفات مثل : جبار، طاغية، حاكم بأمره، وحاكم مطلق ، وعكس حكومة مستبدة تكون، حكومة عادلة، وحكومة مسؤولة، ومقيدة ودستورية... إلخ. والرعية المستبد بهم، يطلق عليهم : أسرى، مستصغرين، بؤساء ... إلخ، وعلى عكسهم الأحرار والأباة والأحياء والأعزاء.

ويقول أيضا أن الاستبداد هو ((صفة للحكومة المطلقة العنان، فعلا أو حكما، التي تتصرف في شؤون الرعية كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب محققين))، فحيث يغيب القانون، تتحول العلاقة إلى تابع ومتبوع، وقامع و مقموع، ومفقر وفقير، وذلك

بسبب انعدام العقاب الذي يردع الحكام عن جورهم.

والحكومات المستبدة نوعان : إما أن تكون حكومة **مطلقة** وهي الحكومة غير المكلفة بتطبيق قانون ما، وليست مجبرة على السير على منهج معين، ولا تعنى بإرادة الأمة ، وإما أن تكون حكومة **مقيدة** وهي صفة للحكومة المقيدة بنوع مما سبق من القيود، لكنها تملك بنفوذها إبطال قوة القيد بما تهوى، وهذه حال الحكومات الدستورية أو الجمهورية.

ثم يبين أشكال الحكومة المستبدة، فمنها : ١- حكومة الفرد المطلق الذي تولى بالغلبة أو بالوراثة، و ٢ - حكومة الفرد المنتخب إذا كان غير مسؤول، أو الجماعة ((الحزب الواحد)) المنتخبة غير المسؤولة ، لأن الاشتراك في الرأي لا يمنع الاستبداد، لكن الاستبداد في هذه الحالة يغير شكله، وقد يكون هذا الشكل من الاستبداد أسوأ من استبداد الفرد المطلق،و٣ - الحكومة الدستورية التي لا يوجد فيها تكامل بين السلطات، التشريعية والتنفيذية والمراقبة، أي مجلس الشعب والوزارة والقضاء . فشكل السلطة لا ينفي عنها صفة الاستبداد ما لم يحتو على مضمون مراقبة الأمة لجعل ذلك الشكل ذي مضمون فعلي قابل للتنفيذ، وذلك لا يتم إلا إذا كان المنفذون مسؤولين أمام المشرعين، والمشرعون مسؤولون أمام الأمة (٥).

ويرى أن أشد مراتب الاستبداد هي حكومة الفرد المطلق، الوارث للعرش، القائد للجيش، الحائز على سلطة دينية، وكلما زادت سلطات الحاكم زاد الاستبداد، وكلما قل وصف من هذه الأوصاف خف الاستبداد، ويقول الكواكبي أيضا أن الاستبداد يخف كلما قل عدد المواطنين، وقل ارتباط المواطنين بالأملاك الثابتة، وقل التفاوت في الثروة، وكلما ترقى الشعب في المعارف .

وقد ثبت تاريخيا أنه ما من حكومة عادلة، تأمن على نفسها من المساءلة والمحاسبة، بسبب غفلة الأمة أو إغفالها، إلا وانزلقت باتجاه الاستبداد والتمسك به، وسلاحها في ذلك جهل الأمة والجنود المنظمة ((الجيش))، وهما أكبر مصائب الأمم وأهم عيوب الإنسانية، حتى يمكن القول أن مخترع الجندية هو الشيطان الذي عاقب الله به بني آدم، لأن هذه الجندية تفسد أخلاق الأمة، لأنها تعلمها الشراسة والطاعة العمياء

والاتكال، وتميت النشاط وفكرة الاستقلال، وتكلف الأمة الإنفاق الذي لا يطاق، وكل ذلك منصرف لتأييد الاستبداد المشؤوم، استبداد الحكومات القائد لتلك القوة من جهة، واستبداد الأمم بعضها على بعض من جهة أخرى.

ثم يوضح الكواكبي مفهومه للاستبداد، فيقول : ((ويراد بالاستبداد عند إطلاقه على استبداد الحكومات)) لأنه أسوأ أنواع الاستبداد وأكثرها سلبية، وهو ما يستحق تسميته بالاستبداد، أما تحكم الأب في أسرته والأستاذ في صفه والزوج في زوجته وبعض رؤساء الأديان في طوائفهم ومدراء الشركات في شركاتهم، فكل هذا يوصف بالاستبداد مجازا، وذلك لأن الحكومة الاستبدادية تسيطر على شؤون الحياة جميعها، ولا تعتمد في حكمها على قاعدة دستورية، سواء في الوصول إلى الحكم، أو في تداول السلطة، وهي لا تقر إلا بما تشرعه هي، وترى أن وجودها بذاته هو القاعدة الدستورية الشرعية الوحيدة للحكم، لهذا يطالب الكواكبي بوجود قانون تسير عليه الحكومة تحت إشراف الشعب .

وبشكل عام يرى الكواكبي أن الحكومة لا بد من أن تستبد ما دامت غير مراقبة، وما دامت قادرة على تأصيل استبدادها، من خلال جهل الأمة، وامتلاكها الجنود المنظمة، لذلك فإن أية حكومة، مهما يكن ظاهرها العدل، تنقلب إلى مستبدة متى غفل الشعب عن مراقبتها، كما أشرنا سابقا.

هذا وقد عرف العديد من الحكماء الاستبداد ودواءه بجمل بليغة، مثل :

- المستبد يتحكم في شؤون الناس بإرادته لا بإرادتهم، ويحكم بهواه لا بشريعتهم، ويعلم أنه غاصب معتدي فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس، يسدها عن النطق بالحق والتداعي لمطالبته .

- المستبد عدو الحق، عدو الحرية وقاتلهما، والحق أبو البشر والحرية أمهم، والعوام صبية أيتام نيام لا يعلمون شيئا، والعلماء هم إخوتهم الراشدون، إن أيقظوهم هبوا، وإن دعوهم لبوا، وإلا فليتصل نومهم بالموت .

- المستبد يتجاوز الحد ما لم ير حاجزا من حديد، فلو رأى الظالم على جنب المظلوم

سيفا لما أقدم على الظلم، كما يقال : الاستعداد للحرب يمنع الحرب .

- المستبد إنسان مستعد بطبعه للشر، لكن لديه القابلية للتحول إلى الخير، فعلى الرعية أن تعرف ما هو الخير وما هو الشر، لتدفع الحاكم إلى الخير رغم طبعه، وقد يكفي لذلك مجرد الطلب، خاصة إذا عرف الحاكم أن وراء القول فعلا .

- المستبد يود أن تكون رعيته كالغنم درا وطاعة، وكالكلاب تذللا وتملقا، وعلى الرعية أن تكون كالخيل، إن خُدمت خَدمت وإن ضُربت شرست، وعلى الرعية أن تعرف مقامها، هل خُلقت خادمة لحاكمها، تطيعه إن عدل أو جار ؟ ! وخُلق هو ليحكمها كيف شاء بعدل أو اعتساف، أم هي جاءت به ليخدمها لا ليستخدمها ؟!

- ومن أسوأ أنواع الاستبداد، استبداد الجهل على العلم .

- الاستبداد يد الله القوية الخفية، يصفع بها رقاب الآبقين من جنة عبوديته إلى جهنم عبودية المستبدين . وقد ورد في الخبر ((الظالم سيف الله ينتقم به ثم ينتقم منه))، وقيل أيضا ((من أعان ظالما على ظلمه سلطه الله عليه)) .

- الاستبداد هو نار غضب الله في الدنيا، والجحيم نار غضبه في الآخرة .

- والاستبداد أعظم بلاء يتعجل الله به الانتقام من عباده الخاملين، ولا يرفعه عنهم حتى يتوبوا توبة الأنفة .

- والحقيقة أن المستبدون يتولاهم مستبد، والأحرار يتولاهم الأحرار، وهذا هو معنى ((كما تكونوا يولى عليكم)) .

- وأخيرا، الأجدر بالأسير في أرض أن يتحول عنها إلى حيث يملك حريته، لأن الكلب الطليق خير حياة من أسد مربوط .

*　　　*　　　*

الاستبداد والدين

يقول الكواكبي في هذه المقالة أن معظم مؤرخي الأديان يتفقون على أن الاستبداد السياسي متولد من الاستبداد الديني، والبعض يقول إن لم يكونا متوالدان فلا شك أنهما أخوان أبوهما التغلب وأمهما الرياسة، أو هما صنوان قويان يتعاونان معا على تذليل الناس، أحدهما يعمل في مملكة الأجسام والآخر يعمل في مملكة القلوب، ويستدلون على ذلك بما شاهدوا من استعانة المستبدين عند المسلمين بالدين، منذ قرون .

فالتعاليم الدينية بشكل عام والكتب السماوية بشكل خاص تدعوا البشر إلى خشية قوة عظيمة هائلة لا تدرك العقول كنهها، تهدد الإنسان بكل مصيبة في الحياة وبعد الممات، تهديدا ترتعد منه الفرائص فتخور القوى، وتذهل منه العقول فتستسلم للخبل والخمول، ثم تفتح هذه التعاليم أبوابا للنجاة من هذه المخاوف نجاة وراءها نعيم مقيم، ولكن على تلك الأبواب حجاب، هم رجال الدين، لا يسمحوا لأحد بالدخول من أبواب النجاة هذه، ما لم يعظم رجال الدين هؤلاء ويتذلل لهم ويقدم لهم الأموال والهدايا باسم النذور تارة وباسم ثمن صكوك الغفران تارة أخرى . وهؤلاء المهيمنون على الأديان يرهبون الناس من غضب الله، وينذرونهم بحلول مصائبه وعذابه عليهم، ثم يرشدونهم إلى أن لا خلاص لهم ولا مناص إلا بالالتجاء إلى سكان القبور الذين لهم دالة بل سطوة على الله فيحمونهم من غضبه.

والسياسيون يبنون استبدادهم على هذا الأساس، فهم يرهبون الناس ويذلوهم

بالقهر والقوة وسلب الأموال حتى يجعلوهم خاضعين لهم عاملين لأجلهم، يتمتعون بهم كأنهم نوع من الأنعام التي يشربون ألبانها ويأكلون لحومها ويركبون ظهورها ويتفاخرون بها .

هذا التمازج بين الإستبدادين السياسي والديني يدفع بالسواد الأعظم من الناس إلى أن يلتبس عليهم الفرق بين الإله المعبود بحق وبين المستبد المطاع بقهر، عندها لا يرون لأنفسهم الحق في مراقبة المستبد لغياب التناسب بين عظمته ودناءتهم، والعوام يجدون معبودهم وجبارهم يشتركان في العديد من الصفات، فلا فرق لديهم بين الفعال المطلق والحاكم بأمره ، بين من لا يسأل عما يفعل وغير المسؤول، وبين المنعم وولي النعم، وبين جل شأنه وجليل الشأن، فيعظمون الجبابرة تعظيمهم لله، بل قد يعظمون الجبابرة أكثر لأنهم يعلمون أن الله حليم كريم، وأن عذابه آجل غائب، أما المستبد الجبار فليس في قلبه ذرة من حلم أو رحمة وانتقامه عاجل حاضر، لأن العوام كما هو معلوم عقولهم في عيونهم، ولا يتجاوز فعلهم المحسوس والمشاهد .

وهذا ما دفع ببعض المستبدين في الأمم الغابرة لأن يدعوا الألوهية، وما من مستبد إلا ويخلع على نفسه بعض صفات القدسية، التي يشارك بها الله أو تعطيه مقاما عاليا يصل إلى مرتبة الإله، ويتخذون لأنفسهم بطانة من رجال الدين يعينونهم على ظلم الناس باسم الله، ومن أهم ما يعينون به المستبد على استبداده وظلمه هو تمزيق الأمة إلى مذاهب وشيع متعادية تتناحر فيما بينها، فتتمزق عرى وحدة الأمة وتضيع إمكاناتها، فتخلوا بذلك الأجواء للمستبد ويمارس استبداده دون رادع ودون حسيب، وهذه هي سياسة إنكلترا في مستعمراتها، حيث استفادت من انقسام الناس إلى أديان ومذاهب شتى فعملت على تعميق الانقسام بين الأهالي ليفنوا بأسهم فيما بينهم، وانتصر بعض السلاطين المسلمين لغلاة الصوفية وبنوا لهم التكايا، بهدف الاستعانة بممسوخ الدين وببعض أهله المغفلين على ظلم الناس المساكين .

وأكثر ما يلائم المستبد أن تتلقى الناس أوامره بإذعان، دون جدال، لذلك فهم غالبا ما يبنون أوامرهم على قواعد الدين.

وبين الاستبداد السياسي والديني علاقة تلازم متى وجد أحدهما في أمة جر إليه الآخر

ومتى زال منها زال رفيقه أيضا،فالدين والسياسة يسيران متكاتفين، وإصلاح الدين هو أسهل وأقرب الطرق للإصلاح السياسي. ويضرب الكواكبي العديد من الأمثلة التي تدلل على صحة فكرته، من كافة الأديان، إلى أن ينتهي إلى الإسلام، الذي يقول عنه أنه أتى مؤسسا على الحكمة والعزم،ضابطا لقواعد الحرية السياسية، وجعلها وسطا بين الديمقراطية والأرستقراطية، ونزع كل سلطة دينية أو تغلبية تتحكم في النفوس أو في الأجسام، ووضع شريعة صالحة لكل زمان ومكان، فجاء للبشر بحكومة كحكومة الخلفاء الراشدين، التي تساوي بين الحاكم وفقراء الأمة، في نعيم الحياة وفي شظفها، وبنوا بين المسلمين روابط أخوة ومحبة، لكل منهم وظيفته تجاه أبناء الأمة، ولكل منهم شخصيته المستقلة عن الآخرين، وبقيت الحال على هذه الحال أيام الهدي المحمدي وأيام أبي بكر وعمر، ثم أخذ يتناقص، وصارت الأمة تطلبه وتبكيه من عهد عثمان إلى الآن، وسيدوم بكاؤها إلى يوم الدين إذا لم تنتبه لاستبداله بطراز سياسي شوري ((الديمقراطية))، ذلك النمط من الحكم الذي اهتدت إليه أمم الغرب قبلنا، فاستفادت من الإسلام أكثر مما استفاد منه المسلمون. والقرآن الكريم مليء بالتعاليم التي ترفض الاستبداد، وتدعو إلى العدل والتساوي، والأمثلة على ذلك كثيرة، مثل : ((إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون)) (٦)، ((وشاورهم في الأمر)) (٧)، ((وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)) (٨) .

أما الذين يدعون إلى طاعة ((أولي الأمر)) من علماء الاستبداد، يتجاهلون كلمة ((منكم))، أي من المؤمنين، والأغرب من هذا هو تفسير العدل بأنه ما قاله الفقهاء، حتى أصبحت الكلمة تعني عكس معناها، والمعنى اللغوي للعدل هو المساواة كما هو معلوم.

ومن الغريب أيضا، تحويل معنى الآية ((ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)) (٩)، بقولهم إن هذا فرض كفاية لا فرض عين، والغاية من وراء ذلك هو السكوت عن استبداد المسلمين بعضهم ببعض، وليس بهدف إيجاد مجموعة باسم مجلس النواب أو غيره من التسميات التي اهتدت إليها الأمم من قبلنا، تضبط أمور الحاكم وتحاسبه على أفعاله، وتسيطر على الإدارة العامة السياسية والمالية والتشريعية وتحاسبها، وكان هذا طريقهم للتخلص من الظلم والاستبداد .

ولا يعلم من أين أتى فقهاء الاستبداد بتقديس الحكام عن المحاسبة والمساءلة ، حتى

أوجبوا لهم الحمد إذا عدلوا، وأوجبوا الصبرعليهم إذا ظلموا، حتى أن الصوفية يقولون أنه لا يكون الأمير الأعظم إلا وليا من أولياء الله، ولا يأتي أمرا إلا بإلهام من الله .

وهكذا يتضح أن الإسلام يقوم على الحرية، يأمربالعدل والمساواة والقسط والإخاء، وحضنا على الإحسان والتحابب، والحكم في الإسلام يقوم على الشورى الأرستقراطية، أي شورى أهل الحل والعقد في الأمة، بعقولهم لا بسيوفهم، وإدارة الأمة في الإسلام تقوم على التشريع المشترك أي الديمقراطي،وفي الإسلام لا يوجد تسلط ديني في غير مسائل إقامة شعائر الدين، ومنها القواعد العامة التشريعية التي لا تبلغ مئة قاعدة وحكم، كلها من أجل وأحسن ما اهتدى إليه المشرعون من قبل ومن بعد .

هذا هو الدين الذي يدعوا لرفع الظلم ومقاومة الاستبداد، الذي سيطر عليه المستبدون ومشرعيهم، فجعلوه وسيلة لتمزيق الأمة وتفريقها شيعا، وجعلوه آلة لتحقيق غاياتهم السياسية حتى أنهم جعلوه دينا محرجا يتوهم الناس فيه أن كل ما دونه المتفننون بين دفتي كتاب ينسب لاسم إسلامي هو من الدين، بالتالي لا يمكن أن يقوم بواجبات هذا الدين إلا من ليس له علاقة بالحياة الدنيا، وأصبح عمر الإنسان لا يكفي لفهم ما تشعبوا عليه من آراء مختلفة، كل منهم بقي على موقفه وهو يعتقد أنه ألزم الآخر الحجة والبرهان، والحقيقة أنهم سكتوا عن بعضهم كلا وتعبا.

بهذا التشديد الذي أدخله حكام الأمة على الدين، أصبح الكل يلوم نفسه ويعتقد فيها التقصير، وحين لا يستطيع الإنسان محاسبة نفسه، فكيف له أن يلوم الحكام ويحاسبهم على فعلهم وتقصيرهم، فأهملت المراقبة وأهمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فاتسع لأمراء الإسلام مجال الاستبداد، فتجاوزوا فيه كل حد، وتحقق بذلك قول النبي (ص) : ((لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليستعملن الله عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب)) (١٠) .

وهنا يعدد الكواكبي جميع البدع والهرطقات التي أخذها المتأسلمون عن اليهودية والنصرانية والمجوسية والبوذية وكل الأديان والمعارف الأخرى، وأدخلوها إلى الإسلام لتصبح وكأنها جزء منه، ليصل إلى نتيجة في النهاية مفادها أن الاستبداد في المسلمين قد شوه تاريخ آل البيت رضوان الله عليهم، الأمر الذي تولد عنه ظهور الفرق التي تشيعت

لهم كالإمامية والإسماعيلية والزيدية والحاكمية وغيرهم.

والخلاصة عنده أن البدع التي شوشت الإيمان وشوهت الأديان تكاد كلها تتسلسل بعضها من بعض، وتتولد جميعها من غرض واحد هو الغاية والمراد، ألا وهو الاستعباد .

الاستبداد والعلم

ما أشبه المستبد بالوصي الخائن، يتصرف في أموال الأيتام وأنفسهم كما يهوى، ماداموا ضعافا قاصرين، فليس من صالحه أن يبلغ الأيتام رشدهم، كذلك ليس من صالح المستبد أن تتنور رعيته بالعلم، وهو يدرك أن لا استعباد ولا اعتساف إلا إذا بقيت الرعية حمقاء تتخبط في ظلام الجهل وتيه العماء.

والعلم قبس من نور الله، كشافا للبصر مولدا للطاقة والقوة، والعلم مثل نور الله، وضاحا للخير فضاحا للشر، والعلم نور والظلم ظلام، ومن طبيعة النور إزالة الظلام، والمتأمل جيدا يرى أن سلطة الرئيس تتناسب عكسا مع علم ووعي المرؤوس .

والمستبد لا يخشى علوم اللغة إلا إذا كان خلف هذه اللغة حكمة حماس تعقد الألوية، أو سحر بيان يحل عقد الجيوش، ولا يخاف المستبد من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد، المختصة ما بين الإنسان وربه، لاعتقاده أنها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة، وإنما يتلهى فيها مهووسوا العلم، حتى إذا ملئت بها أدمغتهم، وأخذهم الغرور، وأصبحوا لا يرون علما غير علمهم، أمن المستبد على نفسه كما يؤمن شر السكران إذا خمر، وإذا نبغ منهم البعض وصاروا أصحاب حظوة بين الناس، فهو لا يعدو وسيلة يشتري فيها هؤلاء الناس بثمن بخس يرميه لهم من فتات مائدة الاستبداد . وهو لا يخاف من العلوم الصناعية لأن أهلها صغار النفوس، صغار الهمم، يشتريهم المستبد بقليل من المال والجاه، وكذلك لا يخاف من الماديين ولا من الرياضيين .

لكن ترتعد فرائص المستبد من علوم الحياة، مثل الحكمة النظرية، والفلسفة العقلية، وحقوق الأمم، وطبائع الاجتماع، والسياسة المدنية، والتاريخ المفصل، والخطابة الأدبية، وهي العلوم التي تكبر النفوس، وتوسع العقول، وتعرف الإنسان ما هي حقوقه وكم هو مغبون فيها .وأخوف ما يخاف المستبد من المندفعين من هؤلاء العلماء لتعليم العامة وتوعيتهم بالكتابة والخطابة، وهم الذين يطلق عليهم صفة الصالحين والمصلحين ، والخلاصة أن المستبد يخاف من مثل هؤلاء العلماء لا من العلماء الذين يحشون رؤوسهم بمحفوظات كثيرة كأنها مكتبات مقفلة .

والمستبد لا يكره العلم لنتائجه فحسب، بل يكرهه لذاته، لأن للعلم سلطانا يفوق كل سلطان، فيستصغر المستبد نفسه أمام أي عالم فلا يحب أن يرى وجهه، وإذا ما اضطر لأمثال المهندس والطبيب، فهو يختار منهم الغبي المتصاغر المتملق، ومن هنا قال ابن خلدون : ((فاز المتملقون))، وهذه هي طبيعة كل المتكبرين بل طبيعة أغلب الناس، فهم يثنون على كل من يكون مسكينا خاملا لا يرجى لخير ولا لشر.

ينتج مما سبق أن بين الاستبداد والعلم حربا دائمة، حيث يسعى العلماء لتنوير العقول ويجتهد المستبد في إطفاء نورها، والطرفان المستبد والعالم يتجاذبان العوام الذين، إذا جهلوا خافوا وإذا خافوا استسلموا، وهم أيضا إذا علموا قالوا ومتى قالوا فعلوا، والعوام قوة المستبد وقوته، بهم عليهم يصول ويطول، يغصب أموالهم فيحمدونه على إبقاء حياتهم، ويهينهم فيثنون على رفعته، يغري بعضهم على بعض فيفتخرون بسياسته، وإذا أسرف في أموالهم يقولون كريما، وإذا قتل منهم ولم يمثل يعتبرونه رحيما، ويسوقهم إلى خطر الموت فيطيعونه حذر التوبيخ، وإذا نقم عليه منهم بعض الأباة قاتلهم كأنهم بغاة .

والحاصل أن العوام يذبحون أنفسهم بأيديهم، بسبب الخوف الناجم عن الجهل والغباء، فإذا ارتفع الجهل وتنور العقل زال الخوف وأصبح الناس لا ينقادون طبعا لغير منافعهم، وهنا ليس أمام المستبد إما أن يستقيل أو يعتدل في سلوكه .

وخوف المستبد من نقمة رعيته أكثر من خوفهم من بأسه، لأن خوفه ينشأ عن علمه بما يستحقه منهم، وخوفهم ناشئ عن جهل، وخوفه على فقد حياته وسلطانه، وأما خوفهم فهو على لقيمات.

وكلما زاد المستبد ظلما واعتسافا زاد خوفه من رعيته ويزداد خوفه من حاشيته لأن أكثر ما يبطش بالمستبدين حواشيهم، وحتى قد يصل به الأمر لأن يخاف من هواجسه وخيالاته، وهذا قد يؤدي به إما إلى الموت البكر أو إلى الجنون .

الجهل هو أكثر الأشياء ضررا على الإنسان، وأكثر آثار الجهل ضررا هو الخوف، والإنسان يقترب من الكمال قدر ابتعاده عن الخوف، ولا وسيلة لتخفيف الخوف أو إزالته إلا بمعرفة حقيقة الشيء المخيف، وهكذا إذا زاد علم أفراد الرعية بأن المستبد امرؤ عاجز مثلهم، زال خوفهم منه وتقاضوه حقوقهم.

يقول أهل النظر إن خير ما يستدل به على استبداد الحكومات هو غلوها في المظاهر وعلامات الأبهة، كفخامة القصور وضخامة الاحتفالات وكبر التشريفات، لأن هذه الأساليب في التمويه يلجأ إليها المستبد ليخفي صغره خلفها، كما يلجأ قليل العز للتكبر، وقليل العلم للتصوف، وقليل الصدق لليمين، وقليل المال لزينة اللباس .

والخلاصة ، إن العلم والاستبداد ضدان متصارعان، والمستبد يسعى جهده في إطفاء نور العلم وحصر الرعية في حالة الجهل، والعلماء الحكماء الذين ينبتون أحيانا رغما عن رغبة المستبد، فغالبا ما يلاحقهم رجال المستبد وينكلون بهم، والسعيد منهم من يتمكن من الهجرة خارج دياره.

والإسلام هو أول دين يحض على العلم، والآيات التي تدل على ذلك كثيرة، ويكفي الإشارة إلى أن أول أمر رباني نزل على النبي محمد (ص) هو الأمر بالقراءة، وأول منة منها الله (عز وجل) على المسلم هي أن علمه بالقلم ما لم يعلم، أي أن أول أمر من الله للمسلمين هو تعلم القراءة والكتابة.

وأخوف ما يخافه المستبد الغربي من العلم أن يعرف الناس حقيقة أن الحرية أفضل من الحياة، وأن يعرفوا النفس وعزها، والشرف وعظمته، والحقوق وكيف تحفظ، والظلم وكيف يرفع، والإنسانية وما هي وظائفها، والرحمة وما هي لذاتها.

أما المستبد الشرقي، يرتجف قلبه من العلم، كأن العلم نار وجسمه من بارود، حتى أنه يخاف من علم الناس بمعنى ((لا إله إلا الله))، التي تعني أنه لا شيء يستحق الخضوع

سوى الله، ولا يستحق العبادة ، التي تعني الخضوع، سوى الصانع الأعظم.

والنتيجة أنه ما انتشر نور العلم في أمة قط، إلا وتكسرت فيها قيود الأسر، وساء فيها مصير المستبدين سواء كانوا مستبدين باسم السياسة أو باسم الدين .

*　　　*　　　*

الاستبداد والمجد

الاستبداد عدو لكل القيم الإنسانية النبيلة، فهو يصارع المجد ويحاول إفساده ليقيم بدلا عنه ما يسمى بالتمجد.

والمجد هو إحراز المرء مقام حب واحترام في القلوب، وهو مطلب طبيعي وشريف لكل إنسان، لا يترفع عنه نبي أو زاهد، وللمجد لذة روحية في النفس تفوق لذة العبادة عند المتفانين في الله، ولذة العلم عند الحكماء، وتفوق لذة الغنى عند الأغنياء، ولذا تزاحم منزلة المجد في النفوس منزلة الحياة، وقد أشكل على الباحثين أي الحرصين أقوى، حرص الحياة أم حرص المجد، وتبين لهم أن المجد مفضل على الحياة عند الملوك والقواد وظيفة، وعند النجباء والأحرار حمية، وأما الأسراء الأذلاء بطبعهم والجبناء والنساء فهم يفضلون الحياة على المجد، فالحرة تموت ولا تأكل بعرضها والماجدة تموت ولا تأكل بثدييها.

والماجد لا ينال مجده إلا مما يبذله في سبيل الجماعة، والبذل إما أن يكون بذل مال ومجد صاحبه يسمى مجد الكرم وهو أضعف أنواع المجد، أو بذل العلم ويسمى مجد الفضيلة، أو بذل النفس بالتعرض للمشاق والأخطار في سبيل نصرة الحق وحفظ النظام ويسمى مجد النبالة وهو، في نظر الكواكبي، أعلى أنواع المجد.

وقد خلق الله للمجد رجالا يستعذبون الموت في سبيله، والمجد ميسر لكل الناس في

ظل العدل، وأما في ظل الاستبداد فينحصر تحصيله بمقاومة الظلم حسب الإمكان.

ويقابل المجد من حيث مبناه، **التمجد** وهو يعني الحصول على الحظوة والمركز المرموق بالتقرب من المستبد والتملق إليه، فهو لا يحصل إلا في ظل حكومات الاستبداد، لأن الحكومات الحرة التي تمثل عواطف الأمة وتعبر عن آرائها وتطلعاتها، تساوي بين الناس ولا تفاضل بينهم إلا لفضل حقيقي، وذلك تشجيعا على التفاني في سبيل خدمة الجماعة، ولا تميز أحدا بوسام أو بلقب إلا ما كان مكافأة على علم أو خدمة جليلة، لأنه بمثل هذا يرفع الله الناس فوق بعضهم درجات، في القلوب لا في الحقوق .

والمتمجدون، عادة، أعداء للعدل أنصار للجور، لذا يسعى المستبد لإيجاد الكثيرين منهم حوله، ليتمكن بواسطتهم من أن يغرر الأمة على إضرار نفسها تحت اسم منفعتها، فيسوق الأمة لحرب اقتضتها جبروته وعدوانه على جيرانه، فيوهمها أنه يريد نصرة الدين، ويسرف الملايين من أموال الأمة على ملذاته ودعم استبداده باسم حفظ شرف الأمة والحفاظ على أبهة المملكة، ويستخدم الأمة في التنكيل بأعداء ظلمه باسم أنهم أعداء الأمة، أو يتصرف في حقوق المملكة والأمة كما يشاء له هواه باسم أن ذلك من مقتضى الحكمة والسياسة . **والخلاصة** أن المستبد يتخذ المتمجدين سماسرة للتغرير بالأمة باسم خدمة الدين، أو حب الوطن، أو توسيع المملكة، أو تحصيل منافع عامة للدولة أو دفاعا عن استقلالها.

والمستبد لا يستغني عن أن يستمجد بعض ضعاف القلوب الذين هم كبقر الجنة لا ينطحون ولا يمرحون، لا يستعملهم في شيء من مهماته، إلا حتى يخدع العامة في أنه لا يتعمد استخدام الأراذل والأسافل فقط في هذه المهام، لذلك يقال إن دولة الاستبداد هي دولة بله وأوغاد .

والمستبد قد يضع في بعض المناصب والمراتب بعض العقلاء الأذكياء ظنا منه بأنه يمكنه تطويعهم وتشكيلهم بالشكل الذي يريد، فيكونوا له أعوانا خبثاء ينفعونه بدهائهم، وإذا لم يستطع إفسادهم يلجأ إلى إبعادهم والتنكيل بهم، لذا لا يستقر عند المستبد إلا الجاهل العاجز الذي يعبده من دون الله، أو الخبيث الخائن الذي يرضيه ويغضب الله .

هذه الفئة من العقلاء الأمناء الذين يذوقون طعم مجد الكرامة، ويجهدون لخدمة الأمة ثم يعزلون لأن بين أضلعهم قبس من إيمان، وفي أعينهم بارقة من الإنسانية، تكون عادة هي الفئة الأكثر عداء للاستبداد، وأفرادها هم الذين ينادون بالإصلاح، هذا الانقلاب في مواقف هؤلاء قد أعيا المستبدين، فهم لا يستغنون عن التجربة ولا يأمنون هذه المغبة، لذلك فالمستبدون غالبا ما يعتمدون، في خدمة استبدادهم على الوارثين من آبائهم وأجدادهم الأخلاق التي ترضي المستبدين، من هنا يمكن القول أن التمجد يأتي بالأصالة والأنساب.

والأصالة تعني الصفات التي يرثها الأبناء عن الآباء بالوراثة أو بالتربية، وهي ثلاثة أنواع : بيوت علم وفضيلة، وبيوت مال وكرم، وبيوت ظلم وإمارة، وهذا الأخير هو مطمح نظر المستبد في الاستعانة وموضع ثقته.

والمستبد يستعمل مع الأصلاء سياسة الشد والإرخاء، والمنع والإعطاء، والالتفات والإغضاء، كي لا يبطروا، وسياسة الإغراق في الفساد وإثارة الشحناء فيما بينهم كي لا يتفقوا عليه، وتارة يعاقبهم عقابا شديدا باسم العدالة إرضاء للعوام .

والحال إن المستبد يذل الأصلاء بكل وسيلة حتى يجعلهم مترامين دائما بين رجليه، كي يتخذهم لجاما لتذليل الرعية، ويستعمل نفس هذه السياسة مع العلماء ورؤساء الأديان، الذين متى شم من أحدهم رائحة الغرور بعقله أو علمه، ينكل به أو يستبدله بالأحمق الجاهل، وبهذه السياسة يخلو الجو للمستبد ليفعل ما يشاء وكيف شاء .

والمستبد ما أن يجلس على عرشه ويضع تاجه الموروث على رأسه، إلا ويرى نفسه أنه كان إنسانا فصار إلها، لكنه في حقيقة ذاته يدرك حجم عجزه وأنه لولا أعوانه لما وصل لما هو فيه، وذلك بسحرهم وشعوذتهم، وامتهانهم لدينهم ووجدانهم، وخيانتهم لوطنهم وإخوتهم .

والحكومة المستبدة تكون مستبدة في كل فروعها، من المستبد الأعظم إلى الشرطي إلى الفراش وكناس الشوارع، وكل واحد منهم يكون من أسافل أهل طبقته، لأن الأسافل لا تهمهم الكرامة وحسن السمعة، بل يهمهم رضا سيدهم، وبذلك يأمنهم المستبد ويأمنونه، وهذه الطبقة من الأسافل تزداد وتنقص بازدياد الاستبداد ونقصه، وأسفلهم طباعا

وخصالا أعلاهم منزلة عند المستبد، وما نسمعه من تذمر بعض وزراء المستبد من أفعال سيدهم وشكواهم من أعماله وجهرهم بلومه، وإظهارهم أنه لو كان متاحا لهم لفعلوا كذا وكذا في سبيل الأمة، فهذا كلام هراء لأن المستبد لا يختار وزراءه إلا على شاكلته عسفا وسفالة واستبدادا، وتلوم هؤلاء الوزراء يكون إما لخداع الأمة أو أن المستبد قدم عليهم من هم أدنى منهم، وبخسهم حقهم رغم تضحياتهم الجليلة من أجله، وبالنتيجة يبقى وزير المستبد وزير المستبد، لا وزير الأمة كما في الحكومات الدستورية، وبناء عليه فعلى العقلاء ألا ينخدعوا بمثل هذه التصريحات وبمثل هذه التلومات، وعليهم ألا يثقوا بهؤلاء الوزراء حتى وإن صلوا وسبحوا، لأن ذلك يتنافى مع سلوكهم وسيرتهم .

وفي قمة الاستبداد وظلمه، وفي ذروة أنين الأمة من هذا البلاء يأتي المتعاظمون باسم الدين، يحاولون إقناع البؤساء بقولهم، أن بؤسهم هذا قضاء من السماء لا راد له فالواجب تلقيه بالصبر والرضا والالتجاء إلى الدعاء، فاربطوا ألسنتكم عن اللغو والفضول، واربطوا قلوبكم بأهل السكينة والخمول، وإياكم التدبير فإن الله غيور، وليكن دعاءكم : ((اللهم انصر سلطاننا، وآمنا في أوطاننا، واكشف عنا البلاء، أنت حسبنا ونعم الوكيل)) .

ويغرر بالأمة آخرون من المتكبرين بأنهم هم الأطباء الرحماء المهتمون بمداواة المرض، وفي الحقيقة فإن هؤلاء ينتظرون الفرصة ليتسلموا مقاليد الأمور كمستبدين جدد، لأنهم كالمستبد تماما، لا يستعملون إلا أراذل الناس، ولا يميلون لغير المتملقين والمنافقين من أهل الدين، وقد يتنازل بعضهم عن رشاوي وسرقات صغيرة، لكن نفسه لا تعف عن الكبيرة منها، وإلا فمن أين لهم هذه الثروات الكبيرة الباهظة، التي يسرفون في بذخها، ولا يصرفون شيئا منها في مقاومة الاستبداد، بل يقومون بإعطاء بعض الصدقات الخفيفة أو بناء بعض المساجد سمعة ورياء، وكأنهم يريدون سرقة قلوب الناس بعد سرقة أموالهم، أو أنهم يرشون الله .

والحاصل أن هؤلاء الأكابر يحرصون على أن يبقى الاستبداد مطلقا، لتبقى أيديهم مطلقة في أموال الناس، لكن كل ذلك لا يمنع من وجود بعض الاستثناء بوجود بعض الشرفاء، لكنهم يبقون شواذا يوجدون صدفة وليسوا القاعدة التي يعتمد عليها.

والنتيجة أن المستبد فرد عاجز لا حول له ولا قوة إلا بالمتمجدين، والأمة، أية أمة، ليس لها من يحك جلدها غير ظفرها، ولا يقودها إلا عقلاؤها .

الاستبداد والمال

لو أراد الاستبداد أن يضع لنفسه نسبا لقال : ((أنا الشر وأبي الظلم وأمي الإساءة وأخي الغدر وأختي المسكنة، وعمي الضر وخالي الذل، وابني الفقر وابنتي البطالة، وعشيرتي الجهالة ووطني الخراب، أما ديني وشرفي وحياتي فالمال.. المال .. المال)) .

والمال هو كل ما ينتفع به، وهو نوعان : **الحلال الطيب**، وهو ما كان عوض أعيان أو أجرة أعمال أو بدل وقت أو مقابل ضمان . **والحرام الخبيث**، وهو ثمن شرف أو المغصوب أو المسروق، أو المأخوذ إلجاء أو المحتال فيه .

وقد كان الإنسان القديم يأكل بعضه بعضا، وجاء الاستبداد ليكمل المشوار، فالمستبد يأسر جماعته، ويذبحهم فصدا بمبضع الظلم ويمتص دماء حياتهم بغصب أموالهم، ويقصرون أعمارهم باستخدامهم سخرة في أعمالهم أو بغصب ثمرات أتعابهم، فلا فرق بين الأولين والآخرين في نهب الأعمار وإزهاق الأرواح إلا في الشكل .

وللحقيقة فإنه من الناحية المالية، فإن نصف البشر يعيشون عالة على النصف الآخر (١١)، فالمرأة عالة على الرجل حين اقتسمت معه العمل قسمة ضيزى (١٢)، فأخذت هين العمل وتركت له العمل الصعب والشاق، وكلما ترقى المجتمع في سلم المدنية والتحضر كانت المرأة أكثر عالة على الرجل، فلئن كانت المرأة الريفية تتقاسم الرجل أعماله وثمراته، فالمرأة المدنية التي لا تود الخروج من الفراش تسلب الرجل ثلاثة أرباع دخله ليتمتع بجمالها وأنوثتها.

ثم إن الرجال تقاسموا مشاق الحياة قسمة ظالمة أيضا، فإن أهل السياسة والدين ومن تبعهم لا يشكلون من المجتمع أكثر من [٥ ٪]، وهم يملكون أكثر من نصف أموال الأمة يتمتعون فيها بالبذخ والإسراف، ولا يفكرون بالملايين الذين يرزحون تحت نير الفقر المتقع، وللحقيقة لا يوجد سبب واضح لهذا التفاوت الطبقي الكبير سوى الاستبداد. كما أن هناك أصناف من الناس لا يعملون إلا قليلا، ويعيشون بالحيلة، كالسماسرة والمشعوذين باسم الأدب والدين، وهم لا يتجاوزون أكثر من [١٥ ٪] من المجتمع.

وإذا كانت العدالة تقضي ألا يتساوى الغبي والذكي، والكسول والنشيط، والخمول والمجتهد، فمن الإنسانية أيضا أن لا يكون التفاوت بينهما صارخا، بل يقتضي أن يأخذ الراقي بيد السافل فيقربه من منزلته ويقاربه في معيشته ويعينه على الاستقلال في حياته، وليس على الفقير أن يطلب معاونة الغني، بل يرجوه أن لا يظلمه، ولا يلتمس منه الرحمة إنما يلتمس منه العدالة، وإذا كان لا يأمل منه الإنصاف فعليه أن يسأله ألا يميته في ميدان مزاحمة الحياة.

لقد خلق الله الإنسان فطغى وبغى، نسي ربه وعبد المال والجمال وجعلهما منيته ومبتغاه، كأنه خلق خادما لبطنه وعضوه فقط، لا شأن له في الحياة سوى الغذاء ولا هم له سوى الجنس، وبما أن المال هو الوسيلة الموصلة للجمال، لذا كاد أن ينحصر جل هم الإنسان بجمع المال، ولهذا يكنى المال بمعبود الأمم وبسر الوجود .

والغاية من المال غايتان، لا ثالث لهما، **تحصيل لذة أو دفع ألم**، وللحصول على المال هناك ثلاثة وسائل :

١ – استحضار المواد الأصلية ((**الزراعة**)) .

٢ – تهيئة المواد للانتفاع فيها ((**الصناعة**)) .

٣ – توزيع هذه المواد على الناس ((**التجارة**)) .

وكل وسيلة خارجة عن هذه الأصول وفروعها، هي وسائل ظالمة لا خير فيها.

وادخار المال طبيعة في الحيوانات الدنيا كالنمل والنحل، وصفة من صفات الإنسان

الذي يقوم بادخار المال لقضاء حاجاته الشخصية في لحظات العسر والضيق، أو للإسهام في قضاء حاجات المجتمع حين تقضي الحاجة وتستدعي ضرورات العيش المشترك، وضرورات العيش المشترك التي أسسها الإنجيل، بتخصيصه عشر الأموال للمساكين، وهي الفكرة التي أكد عليها الإسلام وسادت فيه لأكثر من قرن، فلم يعد يجد المسلمون حينها من يدفعون لهم الصدقات والكفارات، حينها كانت الحكومة الإسلامية أرستقراطية المبنى، ديمقراطية الإدارة، وضعت للبشر قانونا مفاده : ((إن المال هو قيمة الأعمال، ولا يجتمع في أيدي الأغنياء إلا بأنواع من الغلبة والخداع)) .

فالعدالة المطلقة تقتضي أن يؤخذ من أموال الأغنياء ويرد على الفقراء بحيث يحصل التعديل ولا يموت النشاط للعمل، وذلك بقصد التساوي أو التقارب في الحقوق والحالة المعاشية بين البشر، ولإزالة الاستبداد المالي يجب أن تكون الأراضي والأملاك الثابتة والصناعات الكبيرة، مشتركة الشيوع بين عامة الأمة، والأعمال والثمرات تكون موزعة بوجوه متقاربة بين الجميع، وعلى الحكومة أن تضع القوانين الضامنة لذلك وتقوم بتنفيذها. هذه الأصول قررها دين الإسلام ، وذلك حين فرض :

١ – الزكاة وأنواع العشور، وتقسيم مواردها على أنواع المصارف العامة، وأنواع المحتاجين، حتى المدنيين .

٢ - عدم التواكل في الارتزاق، وأن على الإنسان أن يسعى لرزقه بنفسه، وإلا فإنه سيموت جوعا .

٣ – قررت الإسلامية ترك الأراضي الزراعية ملكا لعامة الأمة، يستنبتها ويستمتع بخيراتها العاملون فيها بأنفسهم فقط، وليس عليهم غير العشر أو الخراج الذي لا يجوز أن يتجاوز الخمس لبيت المال .

٤ – أناط الإسلام تنفيذ هذه القوانين بالحكومة .

وادخار المال يكون مشروعا إذا تحقق فيه ثلاثة شروط، وإلا يعتبر من أقبح الخصال:

أ – أن يكون الحصول على المال بوجه مشروع حلال .

ب – أن لا يكون في ادخار المال تضييق على حاجيات الغير، كاحتكار الضروريات، أو مزاحمة الصناع والعمال الضعفاء، أو التغلب على المباحات مثل امتلاك الأراضي التي جعلها خالقها ملكا لكل مخلوقاته، وهي أمهم التي ترضعهم من لبنها، وتغذيهم بثمراتها، وتؤويهم في حضنها .

ج – أن لا يزيد المال المدخر عن الحاجة كثيرا، لأن الإفراط في الثروة مهلكة للأخلاق الحميدة في الإنسان، ومن هنا فإن جميع الشرائع السماوية وكافة القوانين الأخلاقية حرمت الربا لأن فيه كسبا بدون مقابل، فيه ربح وليس فيه خسارة، به تربو الثروات فيختل التساوي أو التقارب بين الناس، فيحولهم إلى أسياد وعبيد، ويتيح للأمم الغنية استغلال الأمم الفقيرة، وجميعها مقاصد فاسدة في نظر الحكمة والعدالة، وهذا يقتضي تحريم الربا تحريما مغلظا.

وفساد الأخلاق يزيد في الميل إلى تجميع الأموال نتيجة الحاجة إلى إسراف المال، وهذا عسير جدا في ظل الحكومات العادلة، وقد لا يتوفر إلا عن طريق المراباة مع الدول الخارجية أو عن طريق الاحتكار، وبالعكس يزداد تجميع الأموال في ظل الحكومات المستبدة، حيث يسهل فيها تحصيل الثروة بالسرقة من بيت المال، والتعدي على الأموال العامة، وغصب ما في أيدي الضعفاء، ورأس مال ذلك أن يترك الإنسان دينه ووجدانه جانبا وينحط في أخلاقه ليتلاءم مع المستبد، فيظهر له أنه يلائمه في الأخلاق وأنه على شاكلته، ويبرهن له على ذلك بالتملق وشهادة الزور وخدمة الشهوات والتجسس على الآخرين، ثم قد يضطلع هذا المنتسب على بعض الخفايا التي يخاف المستبد من ظهورها، فيكسب المنتسب رسوخ القدم في حظوة المستبد ويصير هو بابا لغيره، وهكذا يحصل على الثروة الطائلة إن ساعدته الظروف على الثبات طويلا، وهذا الباب هو أعظم أبواب الثروة يليها الاتجار بالدين ثم الملاهي ثم الربا الفاحش وهي بئس المكاسب .

والاستبداد يجعل المال في أيدي الناس عرضة لسلب المستبد وأعوانه وعماله، غصبا أو بحجج باطلة، وعرضة أيضا لسلب المعتدين من اللصوص والمحتالين الذين يرتعون بأمان في ظل الاستبداد، لذلك فحفظ المال في ظل الإدارة المستبدة أصعب من الحصول عليه، لأن ظهور أثره على صاحبه مجلبة لأنواع البلاء عليه ولذلك يضطر الناس في زمن الاستبداد لإخفاء نعمة الله والتظاهر بالفقر والفاقة، وبالتالي يصبح أسعد الناس الصعلوك الذي لا يعرف الحكام ولا يعرفونه.

والأغنياء هم أعداء الاستبداد فكرا وأوتاده عملا، يذلهم فيئنون ويستدرهم فيحنون، ولذا يرسخ الذل في الأمم التي يكثر أغنياؤها.و أما الفقراء فهم يخافون المستبد خوف النعجة من الذئاب، ويتحبب إليهم ببعض الأعمال التي ظاهرها الرأفة، بقصد أن يغصبهم قلوبهم التي لا يملكون غيرها، ويخافونه خوف دناءة ونذالة، فهم لا يجسرون على التفكير لأنهم يتوهمون أن في رأسهم جواسيس عليهم، وقد يبلغ فساد الأخلاق في الفقراء أن يسرهم فعلا رضاء المستبد عنهم بأي وجه كان رضاؤه.

يقال في مدح المال، إن أكبر ما يحل المشكلات الزمان والمال، والقوة كانت للعصبية ثم صارت للعلم ثم صارت للمال، ولا يتأتى العز إلا بالمال، ولهذا ورد في الأثر: ((اليد العليا خير من اليد السفلى))، وقيل أيضا : ((الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر))، وقديما لم تكن هناك أية أهمية للثروة العمومية (مالية الدولة) ، أما الآن وقد أصبح الصراع بين الأمم محض صراع علم ومال، فأصبح للثروة العمومية أهمية كبرى لأنها أصبحت شرطا من شروط استقلال الأمة، والأمم في ظل الاستبداد لا يكون لها أي نصيب من الثروة العمومية، فتغدو منزلتها بين الأمم كأنعام تتناقلها الأيدي من يد إلى أخرى، هذا وقد قرر الأخلاقيون أن الإنسان لا يكون حرا تماما ما لم تكن له صنعة مستقل فيها، أي غير مرؤوس لأحد، وقالوا أيضا : ((خير المال ما يكفي صاحبه ذل القلة وطغيان الكثرة)). ولهذا يقال أن الغني هو من قلت حاجته وهو من استغنى عن الناس .

وخلاصة القول أن الاستبداد داء أشد وطأة من الوباء، أكثر هولا من الحريق، أعظم تخريبا من السيل، أذل للنفوس من السؤال، والاستبداد عهد أشقى الناس فيه العقلاء والأغنياء وأسعدهم بمحياه الجهلاء والفقراء، بل أسعدهم أولئك الذين يتعجلهم الموت فيحسدهم الأحياء.

* * *

الاستبداد والأخلاق

الاستبداد يفسد أخلاق الإنسان فيجعله يكفر بنعم مولاه، يحقد على قومه لأنهم عون الاستبداد عليه، يفقد حب وطنه لأنه غير آمن فيه، ضعيف الحب لعائلته لأنه غير مطمئن لدوام العلاقة معها، مختل الثقة بأصدقائه .

والاستبداد يسلب الناس راحتهم الفكرية، ويمرض عقولهم بحيث لا يفرقون بين الخير والشر، فتبهر أبصارهم مظاهر الأبهة التي يرونها على المستبد، وتزيغ فكرهم ألفاظ التفخيم في وصفه، ويعتقدون أن الدواء في الداء، فينصاعون بين يدي الاستبداد انصياع الغنم بين أيدي الذئاب، فتجري على قدميها جاهدة إلى مقر حتفها، كتلك الهوام التي تترامى على النار وتقاوم من يريد حجزها عن الهلاك .

في الأصل الناس وضعوا الحكومات لخدمتهم، وجاء الاستبداد فقلب المعادلة وجعل الرعية خادمة للرعاة، فقبلوا وقنعوا، ورضوا ورضخوا، وصور لهم أن طالب الحق فاجر وتاركه مطيع، والمشتكي المتظلم مفسد، والنبيه المدقق ملحد، والخامل المسكين صالح أمين، فجاروه على اعتبار أن النفاق سياسة، والتحيل كياسة، والدناءة لطف، والنذالة دماثة.

والغريب هو إعلاء المؤرخين من شأن الطغاة الفاتحين، ممن أكثروا في قتل الناس وأسرفوا في تخريب العمران، وكذلك الإعلاء من شأن من تعاون معهم، ويقولون أن

للاستبداد بعض الفوائد غير موجودة في الأنظمة الحرة، يقولون مثلا : الاستبداد يلين الطباع ويلطفها، والحق أن ذلك يحصل عن فقد شهامة لا عن فقد شراسة. والاستبداد يعلم الصغار طاعة الكبار، لكن هذا عن جبن وخوف لا عن اختيار وإذعان. والاستبداد يقلل الفسق والفجور، والحق أنه عن فقر وعجز، لا عن عفة أو دين. ويقولون أنه يقلل التعديات والجرائم، والحقيقة أنه يمنع ظهورها ويخفيها، فيقل تعدادها لا عددها.

والأخلاق، ثمار بذورها الوراثة، وتربتها التربية، وسقياها العلم، والقائمون عليها هم رجال الحكومة، لذلك تفعل السياسة في أخلاق البشر ما تفعله العناية في إنماء الشجر، والحقيقة أن الأخلاق لا تكون أخلاقا ما لم تكن فطرية تقتضيها وظيفة الإنسان نحو نفسه ونحو عائلته ونحو قومه ونحو الإنسانية بشكل عام، والإرادة هي أم الأخلاق، وأسير الاستبداد لا إرادة له لأنه أسير لإرادة غيره، لذا يعذر الأسير على فساد أخلاقه، لأن فاقد الخيار غير مؤاخذ عقلا وشرعا، وأسير الاستبداد لا خلاق له، فقد يصبح غنيا فيضحي شجاعا كريما، وقد يمسي فقيرا فيبيت جبانا خسيسا، وأقل ما يؤثر الاستبداد في أخلاق الناس أنه يدفعهم لإلفة الرياء والنفاق، ويجعل الأشرار آمنين على أنفسهم من كل تبعة، إذ لا يجرؤ أحد على انتقادهم أو افتضاحهم، خوفا من تبعة الشهادة عليهم، فشاع بينهم الكلام الباطل، مثل، إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب، وقول، البلاء موكول بالكلام.

وأقوى ضابط للأخلاق النهي عن المنكر بالنصيحة والتوبيخ، أي بحرص الأفراد على حراسة نظام المجتمع، من هنا فإن الأمم الحرة أطلقت حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات مستثنية القذف فقط، والخصال عند الإنسان تنقسم إلى ثلاثة أنواع :

١ – الخصال الطبيعية : وهي نوعين، الحسنة، كالصدق والأمانة والهمة والمدافعة والرحمة، والقبيحة، كالرياء والاعتداء والجبن والقسوة .

٢ – الخصال الكمالية: التي جاءت بها الشرائع كتحسين الإيثار والعفو، وتقبيح الزنا والطمع .

٣ – الخصال الاعتيادية ((المكتسبة)) : وهو ما يكتسبه الإنسان بالوراثة أو بالتربية أو بالألفة، فيستحسن أو يستقبح على حسب ميوله، ما لم يضطر للتحول عنها.

هذه الأنواع الثلاثة تشتبك وتتفاعل ويؤثر بعضها في بعض، فتستمر الواحدة منها إذا تكررت وألفها الإنسان، وتزول إذا لم يألفها الإنسان، فالقاتل مثلا لا يستنكر عادة فعله الشنيع في المرة الثانية كما استقبحه في المرة الأولى، ومع تكرار فعل القتل يصل لمرحلة التلذذ بالقتل وكأنه حق طبيعي له، كما هي حالة الجبارين وأغلب السياسيين الذين لا ترتج في أفئدتهم عاطفة رحمة عند قتلهم أفرادا أو أمما لتحقيق غاياتهم السياسية.

وأسير الاستبداد يرث شر الخصال، ويتربى على أشرها، فتصاحبه مدى العمر، ويكفيه تلبسه بالرياء اضطرارا حتى يألفه ويصبح سمة له، يفقد على أثرها ثقته بنفسه، ويتصور أن جميع الآخرين يتخلقون بنفس أخلاقه، ولهم نفس خصاله، لذا يقال في هذا المعنى : ((إذا ساءت فعال المرء ساءت ظنونه))(١٣)، فالمرائي يظن أن كل الناس مراؤون، و الحرامي يعتقد أن كل الناس لصوص، والأمين يظن أن جميع الناس أمناء.

والاشتراك [**الحياة المشتركة**] هو أعظم سر في الكائنات، به قيام كل حياة، وفيه سر تضاعف القوة، وفيه سر الاستمرار في الأعمال التي لا تفي بها أعمار الأفراد، بمعنى ((بالحياة المشتركة وبالتعاون بين البشر يمكن إنجاز جميع الأعمال التي لا يستطيع أن ينجزها فرد بمفرده))، وهو سر نجاح كل الأمم المتقدمة، به أكملوا ناموس حياتهم القومية، وبه ضبطوا نظام حكوماتهم. ورب قائل يقول، إن سر الاشتراك وأهمية الحياة المشتركة لا يخفى على أحد، ولكن لماذا لم يؤخذ به في الشرق ؟

وللإجابة عن هذا التساؤل نقول : إن سبب التفرق والانحلال وغياب الروح الجماعية والحياة المشتركة بين أبناء الأمة الواحدة هو **الاستبداد** ولا شيء غيره، وهناك من يقول أن الشرق مريض وسببه الجهل، والجهل بلاء سببه قلة المدارس، وقلة المدارس عار وسببه عدم التعاون على إنشائها من قبل الأفراد أو من قبل ذوي الشأن، ولو تتبعنا تحري الحقيقة لوجدنا أن هناك سلسلة أسباب حلقتها الأولى الاستبداد ، وهناك آخرون يقولون : الشرق مريض وسببه فقد التمسك بالدين، ويقف عند هذا الحد، مع العلم أنه لو تتبع الأسباب لوجد أن سبب التهاون بالدين هو الاستبداد .

وثالث يقول : إن سبب تخلف الشرق هو فساد الأخلاق، وغيره يرى أن السبب هو فقد التربية، وآخرون يرون أن السبب هو الكسل، والحقيقة أن المرجع الأول في كل هذا

هو الاستبداد، الذي يمنع حتى أولئك الباحثين عن التصريح باسمه المهيب.

وفساد الأخلاق يدخل الأمم في حالة ميؤوس منها، وهو يبدأ بالمستبد وأعوانه ويستشري إلى كافة طبقات المجتمع، حتى تصبح الأمة في حالة يبكيها محبها، ويشمت فيها أعداؤها، ويصبح داؤها عصي على الدواء. وقد سلك الأنبياء عليهم السلام في إنقاذ الأمم من فساد الأخلاق، مسلكا ابتدأوا فيه بتحرير العقول من تعظيم غير الله والإذعان لسواه، وذلك بتقوية حسن الإيمان الذي فطر عليه وجدان الإنسان، ثم جهدوا في تنوير العقول بمبادئ الحكمة، وتعريف الإنسان كيف يملك إرادته، أي حريته في أفكاره، واختياره في أعماله، وبذلك هدموا حصون الاستبداد وسدوا منابع الفساد. وبعد إطلاق زمام العقول، صاروا ينظرون إلى الإنسان على أنه مكلف بقانون الإنسانية، ومطالب بحسن الأخلاق، وذلك عن طريق التهذيب والتعليم.

أما المتأخرون من قادة العقول في الغرب، فقد دفعوا بأممهم للخروج من حظيرة الدين وآدابه النفسية إلى فضاء الإطلاق وتربية الطبيعة، زاعمين أن الفطرة في الإنسان أهدى به سبيلا، وحاجته إلى النظام تغنيه عن إعانة الأديان، التي هي كالمخدرات، سموم تعطل الحس بالهموم، ثم تذهب بالحياة فيكون ضررها أكبر من نفعها، ساعدهم في ذلك تفشي نور العلم في أممهم، وذلك عن طريق العرب بعد الإسلام، الذين أطلقوا حرية العلم، وأباحوا تناوله لكل متعلم، فانتقل إلى أوروبا حرا على رغم رجال الدين، فتنورت به عقول الأمم على درجات، فنشأ من ذلك حركة فكرية قوية، حركة معرفة الخير والحرص على نواله، وحركة معرفة الشر والأنفة من الصبر عليه، حركة السير إلى الأمام رغم كل معارض.

اغتنم زعماء الحرية في الغرب قوة هذه الحركة، وأضافوا إليها قوة أدبية أخرى، فاستبدلوا ثقل وقار الدين بزهو عروس الحرية، فمثلوا الحرية بفتاة عروس تخلب النفوس، واستبدلوا الاشتراك في طاعة المستبدين بالاشتراك في الشؤون العمومية، وهو ذلك الاشتراك الذي يتولد عنه حب الوطن.

والغربي : بطبعه مادي الحياة، قوي النفس، حريص على الاستئثار والانتقام، يرى أن العضو الضعيف جدير بالموت ((بمعنى البقاء للأقوى))، ويرى كل فضيلة بالقوة،

وكل القوة في المال، فهو يحب العلم ولكن لأجل المال، ويحب المجد ولكن لأجل المال أيضا. وآخرون منهم يرون العقل في الإطلاق، والحياة في خلع الحياء، والشرف في الترف، والكياسة في الكسب، والعز في الغلبة، واللذة في المائدة والفراش.

أما الشرقي : فهو عاطفي، يغلب عليه ضعف القلب وسلطان الحب، والإصغاء للوجدان، والميل للرحمة حتى في غير موضعها، واللطف حتى مع الخصم، يرى العز في الفتوة والمروءة، والغنى في القناعة والفضيلة، والراحة في الأنس والسكينة، واللذة في الكرم والتحبب، وهو يغضب ولكن للدين فقط، ويغار ولكن على العرض فقط.

والفرق بين الشرقيين والغربيين كبير، فالغربيون يستحلفون أميرهم على الصدق في خدمته لهم والتزام القانون، والسلطان الشرقي يستحلف رعيته على الانقياد والطاعة، الغربيون يمنون على ملوكهم بما يرتزقون من فضلاتهم، والأمراء الشرقيون يتكرمون على من شاؤوا بإجراء أموالهم عليهم صدقات، الغربي يعتبر نفسه مالكا لجزء مشاع من وطنه، والشرقي يعتبر نفسه وأولاده وما في يديه ملكا لأميره، الغربي له على أميره حقوق، والشرقي عليه لأميره حقوق، الغربيون يضعون لأميرهم قانون يسير عليه، والشرقيون يسيرون على قانون مشيئة أمرائهم، الغربيون قضاءهم وقدرهم من الله، والشرقيون قضاءهم وقدرهم ما يصدر من بين شفتي مستبدهم، الشرقي سريع التصديق، والغربي لا ينفي ولا يثبت حتى يرى ويلمس، الشرقي أكثر ما يغار على الفروج كأن شرفه كله مستودع فيها، والغربي أكثر ما يغار على حريته واستقلاله، الشرقي حريص على الدين والرياء فيه، والغربي حريص على القوة والعز والمزيد منها.

والخلاصة إن الشرقي ابن الماضي والخيال، والغربي ابن المستقبل والجسد، فما أحوج الشرقيين إلى حكماء لا يبالون بغوغاء العلماء المرائين والرؤساء القساة الجهلاء، فيجددون النظر في الدين، نظر من لا يحفل بغير الحق، نظر من يقصد إظهار الحقيقة لا إظهار الفصاحة، نظر من يريد وجه ربه لا استمالة الناس إليه، فيعيدون ما نقص من الدين، ويخلصونه مما زاد عليه، يؤكدون على تمليك الإرادة ورفع البلادة، ورفع شقاء الاستبداد والاستعباد، يبصرون بطرائق التعلم والتعليم، يهيئون لقيام التربية الحسنة واستقرار الأخلاق، بحيث يصير الإنسان إنسانا، أما إذا بقي الشرقيون على حالهم بعيدين عن الجد والعزم، مرتاحون للهو والهزل، مخلدون إلى الخمول والتسفل، طلبا

لراحة الفكر، يتألمون من تذكيرهم بالحقائق، ومطالبتهم بالوظائف، ينتظرون زوال ما هم فيه بالتواكل، أو بمجرد التمني والدعاء، فلينظروا مصيرا كمصير أمم سبقتهم إلى الانقراض والزوال، كالفينيقيين والآشوريين وغيرهم.

والغريب أن كل الأمم المتخلفة، من جميع الأديان، تحصر سبب تخلفها السياسي في تهاونها بأمور دينها، ويريدون بالدين العبادة، ولنعم الاعتقاد لو كان يفيد شيئا، لكنه لا يفيد أبدا، لأنه قول لا يمكن أن يكون وراءه فعل، لأن الدين بذر جيد لا شبهة فيه، فإن صادف أرضا طيبة نبت ونما، وإن صادف أرضا قاحلة مات وفات، وأرض الدين في بلادنا هي هذه الأمة التي أعمى الاستبداد بصرها وبصيرتها، وأفسد أخلاقها ودينها، حتى صارت لا تعرف للدين معنى، غير العبادة والنسك اللذين زيادتهما أضر على الأمة من نقصهما.

والدين يفيد في التطور الاجتماعي إذا صادف أخلاقا نظرية لم تفسد، فينهض بها، أما في أمتنا، مع الأسف، فإن أكثر الناس لا يحفلون بالدين إلا إذا وافق أغراضهم، أو كان لهوا ورياء، لأن الناس عبيد لمنافعهم، والعقل عندهم لا يفيد العزم، إنما العزم يتولد من الضرورة، أو من الإجبار، والأجدر بالأمم المتخلفة أن تلتمس دواءها عن طريق إحياء العلم، وإحياء الهمة، مع الاستعانة بالدين والاستفادة منه.

*　　　*　　　*

الاستبداد والتربية

خلق الله الإنسان ولديه الاستعداد للصلاح والفساد معا، فأبواه يصلحانه وأبواه يفسدانه، والاستبداد يؤثر في الأجسام فيورثها الأسقام، ويسطو على النفوس فيفسد الأخلاق، ويضغط على العقول فيمنع نماءها بالعلم، فالتربية والاستبداد متعاكسين في تأثيرهما على الإنسان، فما تبنيه التربية يهدمه الاستبداد.

والإنسان إن يشأ الكمال يرقى فيه لما فوق مرتبة الملائكة، وإن تمسك بالرذائل انحط إلى ما دون الشياطين، والإنسان أقرب للشر منه للخير، لكنه كالغصن الرطب فهو مستقيم لدن بطبعه، لكن أهواء التربية تميل به إلى يمين الخير أو إلى شمال الشر، فإذا شب يبس وبقي على ميله ما دام حيا.

والتربية، ملكة تحصل بالتعليم والتمرين والقدوة والاقتباس، أهم أصولها وجود المربين، وأهم فروعها وجود الدين، وجعلت الدين فرعا لا أصلا، لأن الدين علم لا يفيد العمل إذا لم يكن مقرونا بالتمرين.

والاستبداد مفسد للدين في أهم قسميه، أي الأخلاق، أما العبادات فلا يمسها الاستبداد لأنها تلائمه في الأكثر، لهذا تبقى الأديان في ظل الاستبداد عبارة عن عبادات تتحول إلى عادات، لا تفيد في تطهير النفوس شيئا، لا تنه عن فحشاء ولا عن منكر، لأن النفوس في ظل الاستبداد تتلطى في زوايا الكذب والرياء والخداع والنفاق، فليس غريبا

على الأسير أن يستعمل الرياء أيضا مع ربه، ومع أبيه وأمه، ومع قومه وجنسه، وحتى مع نفسه.

والتربية هي مهمة الأم في السنتين الأوائل من العمر، تليها مهمة الأبوين إلى سن السابعة، ثم يأتي دور المدرسين والمدارس، بعدها يأتي دور القدوة والأقربين والخلطاء، أي دور المجتمع المحيط.

والحكومات المنتظمة، مهمتها تسهيل تربية الأمة، وذلك عن طريق سن قوانين الزواج، وفتح المدارس وإتاحة التعليم، وإعداد المدارس والمنتديات والمكتبات، ووضع القوانين التي تحافظ على الحقوق والآداب، وتقوي الآمال وتيسر الأعمال وتؤمن العاجزين.

أما الحكومات المستبدة، فلا تعير انتباها للتربية، وأسير الاستبداد يعيش خاملا خامدا ضائع القصد، وإذا كان منتسبا لدين يسلي نفسه بالسعادة الأخروية، فيعدها بجنات ذات أفنان ونعيم مقيم أعده له الرحمن، ويبعد عن فكره أن الدنيا عنوان الآخرة، وأنه ربما خسر الصفقتين معا، ويخطئ بسطاء المسلمين حين يتذرعون بأقوال مثل، المؤمن مصاب، وإذا أحب الله عبدا ابتلاه، وحسب المرء لقيمات يقمن صلبه، ويتناسون حديث ((إن الله يكره العبد البطال)).

وكل هذه المثبطات تهون، أمام تلك السموم التي تحول الأذهان عن معرفة أسباب الشرور، فيرفعون المسؤولية عن المستبد ويحملونها للقضاء والقدر تارة، أو على الضحايا الأسراء المساكين تارة أخرى، متسلحين بما ورد في التوراة : ((إتضعوا للسلطان ولا سلطة إلا من الله))، أو بأقوال مثل ((السلطان ظل الله في الأرض)) و ((الظالم سيف الله ينتقم به ثم ينتقم منه)) متناسين قول الله تعالى ((ألا لعنة الله على الظالمين)) (١٤)، وقوله تعالى : ((فلا عدوان إلا على الظالمين)) (١٥).

والتربية علم وعمل، وليس في الأمم المأسورة من يعلم التربية ومن يعملها، وما أبعد الأسراء عن الاستعداد لقبول التربية، بل هم في ظل الاستبداد على العكس، يستبيحون الكذب والتحيل والخداع والنفاق والتذلل، ويميلون إلى نبذ الجد وترك العمل، لدرجة ييأس فيها الآباء من تربية أولادهم لأنهم موقنون أن الاستبداد سوف يفسد كل تربية وتضيع جهودهم هباء، وفي الحقيقة الأولاد في زمن الاستبداد هم سلاسل من حديد

يرتبط بها الآباء على أوتاد الظلم والهوان والخوف والتضييق، فالتوالد في زمن الاستبداد حمق، والاعتناء بالتربية حمق مضاعف، وأغلب الأسراء لا يدفعهم للزواج قصد التوالد، بل يدفعهم إليه الجهل المظلم، لأنهم حتى الأغنياء منهم محرومون من كل لذة حقيقية، وليس لهم من الملذات سوى لذتين :

الأولى – لذة الأكل، وكأن بطونهم مقابر للحيوانات إن توفرت، وإلا فمزابل للنباتات، وكأن أجسامهم أنابيب بين المطبخ والمرحاض .

الثانية – لذة الرعشة الجنسية باستفراغ الشهوة، كأن أجسامهم خلقت مليئة بدمامل الجرب، يطيب لها الحك، ووظيفتها توليد الصديد ودفعه، وهذا الشره البهيمي في الأزواج هو ما يعمي الأسراء ويرميهم بالزواج والتوالد .

والعرض في زمن الاستبداد، كسائر الحقوق غير مصان، بل هو معرض لهتك الفساق من المستبدين والأشرار من أعوانهم، لأن هؤلاء الأوباش يأسرون الأولاد ويستحيون النساء، خصوصا في الحواضر الصغيرة والقرى المستضعف أهلها.

و للسعة والفقر دخل كبير في تسهيل التربية، لكن حياة الأسراء، أغنياء كانوا أم فقراء، كلها خلل في خلل وضيق في ضيق، وهذا يجعل الأسير هين النفس ويرى ذاته لا يستحق المزيد من النعيم مطعما ومشربا وملبسا ومسكنا، ويرى استعداده قاصرا عن الترقي في العلم، ويرى حياته على بساطتها لا تقوى إلا بمعاونة غيره له .

بالتالي ما أبعد الأسراء عن النشاط للتربية ، وهم يدركون أنهم إن نوروا أولادهم بالعلم جنوا عليهم بتقوية إحساسهم فيزيدونهم شقاء وبلاء، لهذا ليس غريبا أن يختار الأسراء، الذين فيهم بقية إدراك، ترك أولادهم هملا تجرفهم البلاهة حيث تشاء.

وإذا تفكرنا كيف ينشأ الأسير في البيت الفقير وكيف يتربى، نجد أنه يلقح به وغالبا ما يكون أبواه متناكدان متشاكسان، إذا تحرك جنينا حرك شراسة أمه فشتمته وإذا زاد آلامها ضربته، وإذا ما نما ضيقت عليه بطنها، لإلفتها الانحناء خمولا وصغارا والتقلص لضيق فراش الفقر، ومتى ولدته ضغطت عليه بالقماط، اقتصادا أو جهلا، فإذا تألم وبكى سدت فمه بثديها، أو قطعت نفسه خضا أو بدوار السرير، أو سقته مخدرا عجزا

عن نفقة الطبيب، وإذا ما فطم يأتيه الغذاء فاسدا، فإذا كان قوي البنية طويل العمر وترعرع يمنع من رياضة اللعب لضيق البيت، فإن سأل واستفهم ماذا وما هذا ليتعلم يزجر ويلكم لضيق خلق أبويه، وإن جالسهما ليألف المعاشرة وينتفي عنه التوحش يبعدانه كي لا يقف على أسرارهما فيسترقها الجيران فتنمى إلى أعوان الظالمين وما أكثرهم، فإذا قويت رجلاه يدفع به إلى خارج الباب إلى مدرسة الإلفة على القذارة وتعلم صيغ الشتائم والسباب، فإن عاش ونشأ وضع في مكتب أو عند ذي صنعة فيكون أكبر القصد ربطه عن السراح والمراح، فإذا بلغ الشباب ربطه أولياؤه على وتد الزواج كي لا يفر من مشاكلتهم في شقاء الحياة، ليجني على نسله كما جنا عليه أبواه، ثم هو يتولى التضييق على نفسه بأطواق الجهل وقيود الخوف، ويتولى المستبدون التضييق على عقله ولسانه وعمله وأمله.

وما أظلم من يؤاخذ الأسراء على عدم اعتنائهم بلوازم الحياة، فالنظافة مثلا، لماذا يهتم بها الأسير؟ هل لأجل صحته وهو في مرض مستمر، أم لأجل لذته وهو المتألم كيفما تقلب جسمه أو نظره ؟ أم لأجل ذوق من يجالس أو يؤاكل، وهو من عفت نفسه صحبة الحياة .

وحالة الأغنياء الأسراء ليست أقل شرا من الفقراء، بل هم أشقى وأقل عافية وأقصر عمرا، يزيد في شقائهم التظاهر بالراحة والرفاه والعزة والمنعة، تظاهرا إن صح قليله فكثيره كاذب، كالسكران يتصاحى فيبتلى بالصداع، أو كالعاهرة البائسة تتضاحك لترضي الزاني.

ولحياة الأسير قوانين تقتضيها متطلبات الحياة من حوله، فهو يقابل التجبر عليه بالتذلل والتصاغر و إعطاء المطلوب منه بعد قليل من التمنع، ولو أن المطلوب هو ابنه لمجزرة الجندية أو ابنته لفراش شيخ شرير، يطالب بحقوقه بصفة استعطاف كأنه يطلب صدقة، يحفظ ماله بإخفائه عن الأعين، يتعامى عن زلات المستبدين، ويتصامم عن سماع ما يهان به، يتظاهر بفقد الحس أو تعطيله بالمخدرات، وتعطيل العقل بالتباله، وستر العلم بالتجاهل، يرتدي الدين والرياء، ويعود لسانه على عبارات التصاغر والتملق، ويعزو كل خير إلى فضل المستبدين، ويسند كل شر إلى قضاء الله وقدره، والغريب أن الأسراء يبغضون المستبد لكنهم لا يقوون على مجابهته، فيصبون

جام غضبهم على المستضعفين منهم أو على الغرباء وحتى على نسائهم.

يتضح مما تقدم أن التربية غير ممكنة في ظل الاستبداد، إلا ما كان بالتخويف من القوة القاهرة، وقد أجمع علماء الاجتماع والأخلاق والتربية على أن الإقناع خير من الترغيب فضلا عن الترهيب، والتعليم مع الحرية بين المعلم والمتعلم أفضل من التعليم مع الوقار، والتعليم رغبة في الكمال أرسخ من العلم طمعا في مكافأة أو غيرة من الأقران، وعلى هذه القواعد بنوا أقوالهم: ((إن المدارس تقلل الجنايات لا السجون)) و ((إن القصاص والمعاقبة قلما يفيدان في زجر النفس)).

والتربية المطلوبة التي هي ضالة الأمم وفقدها هو المصيبة العظمى، هي التربية المرتبة على إعداد العقل للتميز، ثم على حسن التفهيم والإقناع، ثم على تقوية الهمة والعزيمة، ثم على حسن القدوة والمثال، ثم على المواظبة والإتقان، ثم على التوسط والاعتدال، وأن تكون تربية العقل مصاحبة لتربية الجسم.

الاستبداد والترقي

الحركة هي سنة الحياة والكون، وهي إما أن تكون حركة تطور وترقي، وهي الحركة الحيوية التي تقود نحو الحياة، وبالمقابل هناك حركة تخلف وهبوط، وهي الحركة التي تقود إلى الموت أو الانحلال أو الاستحالة أو الانقلاب، وحركتي الترقي والهبوط مترافقتان في كل أمة والمهم أيهما تغلب على الأخرى، فإذا رأينا في أمة آثار حركة الترقي هي الغالبة على أفرادها حكمنا لها بالحياة، ومتى رأينا عكس ذلك قضينا عليها بالموت.

والأمة هي مجموعة أفراد يجمعها نسب أو وطن أو لغة أو دين، وحالة كل فرد تؤثر في حالة المجموع، لذلك يقول البعض: يكفي الأمة رقيا أن يجتهد كل فرد منها بترقية نفسه.

والترقي الحيوي هو:

١ – الترقي في الجسم صحة وتلذذا .

٢– الترقي في القوة بالعلم والمال .

٣– الترقي في النفس بالخصال والمفاخرة .

٤– الترقي بالعائلة استئناسا وتعاونا .

٥– الترقي بالعشيرة تناصرا عند الطوارئ .

٦– الترقي بالإنسانية وهذا منتهى الترقي .

هذه الترقيات الستة يسعى وراءها الإنسان عمره، ما لم يعترضه مانع غالب يسلب إرادته، هذا المانع إما قدر محتوم أو استبداد مشؤوم، والقدر قد يمنع سير الترقي فترة ثم يطلقه فيكر راقيا، أما الاستبداد فإنه يقلب السير من الترقي إلى الانحطاط، من التقدم إلى التأخر، ويلازم الأمة لدرجة يحول ميلها من طلب الترقي إلى طلب التسفل، بحيث لو دفعت إلى الرفعة وإذا ألزمت بالحرية تشقى، عندئذ يصير الاستبداد كالعلق يطيب له المقام على امتصاص دم الأمة، فلا ينفك عنها حتى تموت ويموت هو بموتها.

وبين حركتي الترقي والانحطاط في حياة الإنسان علاقة أشبه ما تكون بعلاقة المد والجزر في البحر، من هنا يقال الخير مربوط بذيل الشر وبالعكس، وبين السعادة والشقاء حرب سجال والعاقل من يستفيد من مصيبته، والكيس من يستفيد من مصيبته ومصيبة غيره، والحكيم من يبتهج بالمصائب ليقطف منها الفوائد، وما كان في الحياة لذة لو لم يتخللها آلام.

وقد أجمع الحكماء، على أن أهم ما يجب عمله، أنه على الآخذين بيد الأمم أن يسعوا إلى رفع الضغط عن العقول لينطلق سبيلها في النمو، فتمزق غيوم الأوهام التي تمطر المخاوف، وبعض علماء الاجتماع في الغرب يرون أن الدين يؤثر على الترقي الإفرادي ثم الاجتماعي، تأثيرا معطلا كفعل الأفيون في الحس، أو حاجبا كالغيم يغشى نور الشمس، وبعض الغلاة يقولون إن الدين والعقل ضدان متزاحمان في الرؤوس، وإن أول نقطة من الترقي تبتدئ عند آخر نقطة من الدين، وإن أصدق ما يستدل به على مرتبة الرقي والانحطاط في الأفراد أو في الأمم الغابرة والحاضرة، هو مقياس الارتباط بالدين قوة وضعفا.

هذه الآراء صحيحة لا يمكن الرد عليها بالنظر للأديان التي تقوم على الخرافة، لأن مجرد الإذعان لما لا يعقل هو برهان على فساد بعض مراكز العقل، أما الأديان المبنية على العقل المحض كالإسلام، ولا أعني به الإسلام الذي يدين به أكثر المسلمين، بل الإسلام دين القرآن، أي الدين الذي يقوى على فهمه من القرآن كل إنسان غير مقيد الفكر بتفصح زيد أو تحكم عمرو، هذا الدين المبني على العقل يكون أفضل صارف للفكر عن الوقوع في مصائد المخرفين، وأنفع وازع يضبط النفس عن الشطط، وأقوى مؤثر لتهذيب الأخلاق، وأكبر معين على تحمل مشاق الحياة، وأعظم منشط على الأعمال

المهمة الخطرة، وأجل مثبت على المبادئ الشريفة، وفي النتيجة يكون الدين المبني على العقل هو أصح مقياس يستدل به على الأحوال النفسية في الأمم والأفراد، رقيا وانحطاطا.

لأن هذا القرآن إن قرأناه بتمعن وروية، لا نرى فيه من أوله إلى آخره غير حكم يتلقاها العقل بالتعظيم والإجلال، إلى درجة انقياد العقل، طوعا أو كرها، للإيمان إجمالا بأن تلك الحكم حكم عزيزة إلهية، فهو لا يكلف الإنسان قط بالإذعان لشيء فوق العقل، بل يحذره وينهاه من الإيمان إتباعا لرأي الغير أو تقليدا للآباء، ويراه طافحا بالتنبيه إلى إعمال الإنسان فكره ونظره في هذه الكائنات وعظيم انتظامها، وأن كل ذلك لا بد له من صانع.

وكفى بالإسلام رقيا أنه حصر العبودية لله وحده، وعتق عقل البشر من توهم وجود قوة ما في غير الله، بذلك فهو يرجو الثواب والعقاب من الله وحده، ويتحرر بذلك من جبال الخوف والأوهام والخيالات، ومن يتحرر من أوهامه يصبح صحيح العقل قوي الإرادة ثابت العزيمة، قائده الحكمة وسائقه الوجدان، فيعيش حرا لا يبالي بالموت.

وعلى الإنسان العاقل الحريص على نهضة قومه وتقدمهم، أن يخاطب قومه ليستنهض هممهم، وأنهم خلقوا لغير ما هم فيه من الذل والسفالة، فيقول لهم :

يا قوم، هل أنتم أحياء فأحييكم بالسلام، أم أموات فأطلب لكم الرحمة، فأنتم لا أحياء عاملين ولا أموات مستريحين، فأنتم أشباح أناس يشبهون ذوي الحياة، وهم في الحقيقة موتى لا يشعرون، بل هم موتى لأنهم لا يشعرون.

يا قوم، إلى متى هذا الشقاء المديد والناس في نعيم مقيم، وما هذا التأخر فقد سبقتكم الأقوام ألوف المراحل، وما هذا الانخفاض والناس في أوج الرفعة، أفلا تغارون؟! أناشدكم الله، هل أنتم كأهل ذلك الكهف، ناموا ألف عام ثم قاموا، فإذا بالدنيا غير الدنيا، والناس غير الناس، فأخذتهم الدهشة والتزموا السكون.

يا قوم، أنتم بعيدون عن شرف الإبداع والقدوة، مبتلون بالتقليد والتبعية، حريصون على كل عتيق كأنكم خلقتم للماضي لا للحاضر، تشكون حاضركم وتسخطون عليه

وما حاضركم إلا نتيجة لماضيكم، تقلدون أجدادكم في الوساوس والخرافات والأمور السافلات، ولا تقلدوهم في محامدهم ولا في إيجابياتهم، فأين الدين ؟ أين التربية ؟ أين الإحساس؟ أين الغيرة ؟ أين الجسارة ؟ أين الثبات ؟ أين الرابطة ؟ أين المنعة؟ أين الشهامة ؟ أين النخوة ؟ أين الفضيلة ؟ أين المواساة ؟ هل تسمعون أم أنتم صم لاهون؟

يا قوم، إلى متى هذا النوم، هذا التقلب على فراش البأس ووسادة اليأس، عيونكم مفتوحة لكنكم نيام، لكم أبصار لكنكم لا تنظرون، لكم سمع ولسان لكنكم صم بكم، لكم شبيه الحس لكنكم لا تشعرون، لكم رؤوس كبيرة لكنها مشغولة بالأوهام والأحلام .

يا قوم، قاتل الله الغباوة، تملأ القلوب رعبا من لا شيء، وخوفا من كل شيء، فتخافون من ظلكم، فتفضلون مجالسة النساء مع الذل، على مجالسة الرجال في السجون.

يا قوم، أعيذكم بالله من فساد الرأي، وضياع الحزم، وفقد الثقة بالنفس، وترك الإرادة للغير، هل خلق الله لكم عقلا لتفهموا به كل شيء أم لتهملوه ((إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون))(١٦) .

يا قوم، قد ينفع اليوم اللوم والإنذار، أما غدا إذا حل القضاء فلا يبقى لكم غير الندب والبكاء، فإلى متى هذا التخاذل والتواني وهذا الإهمال ؟ هل طاب لكم النوم على وسادة الخمول، أم طاب لكم السكون وتودون لو تسكنون القبور، أم سوف تصلون غفلة الحياة بالممات فلا تفيقون من السبات قبل يوم النشور ؟

يا قوم، ما هذا الحرص على حياة تعيسة دنيئة على راحة موهومة وحياتكم كلها تعب ونصب؟ وليس لكم في هذا الصبر سوى القهر في الحياة، وقبيح الذكر بعد الممات لأنكم ما أفدتم الوجود شيئا.

يا قوم، تشكون من الجهل ولا تنفقون على التعليم نصف ما تنفقون على التدخين، تشكون من الحكام ولا تسعون في إصلاحهم، تشكون فقد الرابطة ولا تفكرون في إحكام روابطكم، تشكون الفقر ولا سبب له غير الكسل، ترجون الصلاح وأنتم يخادع بعضكم بعضا، ترضون بأدنى معيشة عجزا وتسمونه قناعة، تهملون شؤونكم تهاونا وتسمونه توكلا، تموهون عن جهلكم الأسباب بقضاء الله وقدره .

يا قوم، ألم يخلقكم الله أحرار طلقاء، وأبيتم إلا أن تكونوا ضعفاء تتحملون قهر الأقوياء، ماذا استفدتم من هذا الخضوع والخشوع لغير الله ؟ أليس منشأ هذا الصغار كله هو ضعف ثقتكم بأنفسكم ؟ ما بال الرجل منكم يضع نفسه مقام الطفل الذي لا ينال من الكبير مراده إلا بالتذلل والبكاء، أو موضع الشيخ الفاني الذي لا ينال حاجته إلا بالتملق والدعاء ؟

يا قوم، ما هذا التفاوت بين أفرادكم وقد خلقكم ربكم متساوون، لا ربوبية بينكم ولا عبودية، كان أجدادكم لا ينحنون إلا ركوعا لله، وأنتم تسجدون لتقبيل أرجل المنعمين ولو بلقمة مغموسة بدم الإخوان، البهائم تود لو تنتصب قاماتها وأنتم من كثرة الخضوع كادت أيديكم تصير قوائم، متى تستقيم قاماتكم وتميل إلى العزة نفوسكم فيشعر أحدكم بوجوده في الوجود، لماذا صغرت نفوسكم؟ لماذا لا تبالون أتعيشون أم تموتون، لماذا تحكمون فيكم الظالمين حتى في الموت ؟ هل سلب الاستبداد إرادتكم حتى في الموت؟ أنا أدرك أنكم لا تحبون الموت فتفرون منه، لكن اعلموا أن الهرب من الموت موت، وطلب الموت حياة.

يا قوم، وأعني منكم المسلمين، إن جرثومة دائنا هي خروج ديننا عن كونه دين الفطرة والحكمة، دين النظام والنشاط، دين القرآن الصريح البيان، إلى صيغة أنا جعلناه دين الخيال والخبال، دين البدع والتشديد، دين الإجهاد، أين منا والحالة هذه، الحياة الفكرية والحياة العملية والحياة العائلية والحياة الاجتماعية والحياة السياسية ؟

قد ضيع دينكم ودنياكم ساستكم الأولون وعلماؤكم المنافقون، وإني أرشدكم إلى عمل إفرادي لا حرج فيه علما ولا عملا، أليس بين جنبي كل فرد منكم وجدان يميز الخير من الشر، والمعروف من المنكر ولو تمييزا إجماليا؟ ألم يبلغكم قول نبيكم (ص) ((لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم))، وقوله (ص) ((من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، وإن لم يستطع فبلسانه، وإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)) .

وقد أجمع علماء الأمة أن أنكر المنكرات بعد الكفر هو الظلم الذي أنتم فيه، ثم قتل النفس، وأن تغيير المنكر بالقلب هو بغض المتلبس به بغضا في الله، بناء عليه فمن يعامل

الظالم الفاسق،غير مضطر، أو يجامله ولو بالسلام، يكون قد خسر أضعف الإيمان، وما بعد الضعف إلا العدم، أي فقد الإيمان، والعياذ بالله .

ولا أظنكم تجهلون أن كلمة الشهادة والصلاة والصوم والحج والزكاة، كلها لا تغني شيئا مع فقد الإيمان، إنما يكون القيام بهذه الشعائر حينها ليس أكثر من قيام بعادات وتقاليد.

لذا فالدين يكلفكم إن كنتم مسلمين، والحكمة تلزمكم إن كنتم عاقلين، أن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر جهدكم، ولا أقل في هذا الباب من إبطانكم البغضاء للظالمين والفاسقين، لذا فأناشدكم الله يا مسلمين، أن لا يغركم دين لا تعملون به وإن كان خير دين، ولا تغرنكم أنفسكم بأنكم خير أمة، وأنتم المتواكلون المقتصرون على شعار ((لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم))، ونعم الشعار شعار المؤمنين، ولكن أين هم ؟ لا أرى أمامي أمة تعرف حقا معنى لا إله إلا الله، بل أرى أمة خبلتها عبادة الظالمين .

يا قوم، وأعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين، أدعوكم لتناسي الأحقاد والاهتداء إلى وسائل الاتحاد، وأنتم المتنورون السابقون، فقد سبقتنا أمم إلى الاتحاد الوطني دون الديني، والوفاق القومي دون المذهبي، والارتباط السياسي دون الإداري، فما بالنا لا نهتدي لإحدى تلك الطرائق ونقول للأعاجم والأجانب، دعونا يا هؤلاء نحن ندبر شأننا، نتفاهم بالفصحاء، ونتراحم بالإخاء، ونتواسى في الضراء ونتساوى في السراء، دعونا ندبر حياتنا الدنيا، ونجعل الأديان تحكم في الأخرى فقط، دعونا نجتمع على كلمة سواء، ألا وهي: **فلتحيى الأمة، فليحيى الوطن، فلنحيى طلقاء أعزاء .**

وقاتل الله الاستبداد المانع للترقي في الحياة، المنحط في الأمم إلى أسفل الدركات، ألا بعد للظالمين .

يا قوم، يا شباب اليوم ورجال الغد، أعيذكم من الخزي والخذلان بتفرقة الأديان، وأعيذكم من الجهل، وأناشدكم أن تعذروا آباءكم الذين اجتمع فيهم داء الاستبداد والتواكل، فليس لهم من قوة سوى في ألسنتهم، ألفوا الأدب مع الكبير ولو داس رقابهم، ألفوا الثبات ثبات الأوتاد تحت المطارق، ألفوا الانقياد ولو إلى المهالك، فيعتبرون التصاغر أدبا، والتذلل لطفا، والتملق فصاحة، وترك الحقوق سماحة، وقبول الإهانة

تواضعا، والرضا بالظلم طاعة، ودعوى الاستحقاق غرورا، والبحث في الشأن العام فضولا، ومد النظر إلى الغد أملا طويلا، والإقدام تهورا، والحمية حماقة، والشهامة شراسة، وحرية القول وقاحة، وحرية الفكر كفرا، وحب الوطن جنونا .

أما أنتم حماكم الله من السوء، نرجوا أن تنشأوا على غير ذلك، أن تنشأوا على التمسك بأصول الدين، فتعرفوا قدر نفوسكم في هذه الحياة فتكرموها، ويجب أن تعلموا أنكم خلقتم أحرارا لتموتوا كراما، واعلموا أن الحياة عمل ووباء العمل القنوط، والسعادة هي الأمل ووباء الأمل التردد، والقضاء والقدر عند الله هو ما يعلمه وما يمضيه، وهما عند الناس السعي والعمل، وكل عمل يبدأه فرد، فعليك أن تعمل ولا تعجز ولا تتوقع إلا خيرا، وخير الخير للإنسان أن يعيش حرا مقداما أو يموت.

وقد يسأل أحدكم عن تاريخ الصراع بين الشرق والغرب، فأجيب : كنا أرقى من الغرب علما فنظاما فقوة فكنا له أسيادا، بعد فترة من الدهر لحق بنا الغرب، فصارت الحياة بيننا سجالا، إن فقناه شجاعة فاقنا عددا، وإن فقناه ثروة فاقنا باجتماع كلمته، ثم جاء الزمن الأخير، ترقي فيه الغرب علما فنظاما فقوة، وأضاف إلى ذلك :

١ – قوة اجتماعه شعوبا كبيرة .

٢– قوة البارود حيث أبطل الشجاعة وجعل العبرة للعدد .

٣– قوة كشفه أسرار الكيمياء والميكانيك .

٤– قوة الفحم الذي أهدته له الطبيعة .

٥– قوة النشاط بكسره قيود الاستبداد .

٦– قوة الأمن على عقد الشركات المالية الكبيرة .

اجتمعت هذه القوات للغرب، وليس عند الشرق ما يقابله بها سوى الافتخار بالأسلاف، والغرور بالدين خلافا للدين، والمسلمون يقابلون تلك القوة ب ((حسبنا الله ونعم الوكيل))، ويخالفون أمر الله لهم بأن يعدوا ما استطاعوا من قوة، لا ما استطاعوا من صلاة وصوم .

ولرب سائل يسأل، هل بعد هذا التفوق للغرب، واستيلائه على معظم الشرق من أمل؟ أقول نعم، وإن الأمر مقدور ولعله ميسور، ورأس الحكمة فيه كسر قيود الاستبداد، وأن يضع الناشئة نصب أعينهم عشر كلمات:

١ – ديني ما أظهر لا ما أخفي .

٢ – أكون حيث يكون الحق ولا أبالي .

٣ – أنا حر وسأموت حرا .

٤– أنا مستقل لا أتكل على غير نفسي وعقلي .

٥ – أنا إنسان الجد والمستقبل لا إنسان الماضي والحكايات.

٦ – نفسي ومنفعتي قبل كل شيء .

٧ – الحياة كلها تعب لذيذ .

٨ – الوقت غال عزيز.

٩ – الشرف في العلم فقط .

١٠ – أخاف الله لا سواه .

وفي النهاية يجب التنويه أن الترقي في القوة بالعلم والمال يتميز عن باقي أنواع الترقيات، وقد يبلغ الإنسان من الترقي مرتبة لا يرى فيها أهمية لحياته إلا بعد درجات، فيهمه أولا حياة أمته، ثم امتلاك حريته، ثم أمنه على شرفه، ثم محافظته على عائلته، ثم وقايته حياته ثم ماله، ثم.. ثم.. إلخ . هذا الإنسان قد يرى الشرف في المحراث، ثم المطرقة، ثم القلم، ويرى اللذة في التجديد والاختراع، لا في المحافظة على العتيق .

وأفضل ما بلغه الترقي في البشر هو إحكامهم أصول الحكومات المنتظمة، ببنائهم سدا متينا في وجه الاستبداد، والاستبداد جرثومة كل فساد، وبجعلهم ألا قوة ولا نفوذ فوق قوة الشرع، والشرع هو حبل الله المتين، وبجعلهم قوة التشريع في يد الأمة، وبجعلهم المحاكم تحاكم السلطان والصعلوك على السواء، وبجعلهم العمال لا سبيل لهم على تعدي حدود وظائفهم، وبجعلهم الأمة يقظة ساهرة على مراقبة سير حكومتها .

الاستبداد والتخلص منه

في البداية نعود إلى تعريف الاستبداد بأنه ((هو الحكومة التي لا يوجد بينها وبين الأمة رابطة معينة معلومة مصونة بقانون نافذ الحكم)) . ويجب ألا يوثق بوعد من يتولى السلطة أيا كان، ولا بعهده ويمينه على مراعاة الدين والتقوى والحق والشرف والعدالة ومقتضيات المصلحة العامة، لأن المجرم لا يعدم تأويلا ولأن من طبيعة القوة الاعتساف ولأن القوة لا تقابل إلا بالقوة .

ولنعد الآن إلى عناصر البحث :

١ – ما هي الأمة : هي جمع بينهم روابط دين أو جنس أو لغة، ووطن ، وحقوق مشتركة، وجامعة سياسية إختيارية، لكل فرد حق إشهار رأيه فيها .

٢ – ما هي الحكومة : هي وكالة تقام بإرادة الأمة لأجل إدارة شؤونها المشتركة العمومية.

٣ – ما هي الحقوق العمومية ((العامة)): هي حقوق مجموع الأمة، وعلى الملوك حفظ أمنها والمحافظة عليها مثل ((المحافظة على الأراضي، والمعادن، والأنهر، والسواحل، والقلاع والمعابد، والأساطيل والمعدات، وولاية الحدود وحراستها، والحفاظ على الأمن العام والعدل والنظام، وحفظ وصيانة الدين والآداب والقوانين والمعاهدات والتجارة، إلى غير ذلك مما يحق لكل فرد من الأمة أن يتمتع به وأن يطمئن إليه .

٤ – التساوي في الحقوق : تعني أن تكون الحقوق محفوظة للجميع على التساوي والشيوع، وتكون المغانم والمغارم العمومية موزعة على الفصائل والصنوف والأديان بنسبة عادلة، ويكون الأفراد متساوين في حق الإستنصاف.

٥ – الحقوق الشخصية : وهي تعني أن أفراد الأمة أحرار في الفكر مطلقا وفي الفعل ما لم يخالف القانون الاجتماعي، والحكومة لا تتداخل إلا في الشؤون العمومية .

٦ – نوعية الحكومة : هل الأصلح هي الملكية المطلقة من كل زمام، أم الملكية المقيدة وما هي القيود؟ أم الأصلح الرئاسة الانتخابية الدائمة مع الحياة أو المؤقتة إلى أجل ؟ وهل تنال الحاكمية بالوراثة أو العهد أو الغلبة ؟ وهل يكون ذلك بالصدفة أم مع وجود شرائط الكفاءة، وما هي تلك الشرائط، وكيف يصير تحقيق وجودها، وكيف يراقب استمرارها، وكيف تستمر المراقبة عليها ؟

٧ – ما هي وظيفة الحكومة : هل هي إدارة شؤون الأمة حسب الرأي والاجتهاد، أم تكون مقيدة بقانون موافق لرغائب الأمة، وإن خالف الأصلح ؟ وإذا اختلفت الحكومة مع الأمة في اعتبار الصالح والمضر، فهل على الحكومة أن تعتزل الوظيفة ؟

٨ – حقوق الحاكمية : هل للحكومة أن تخصص بنفسها لنفسها ما تشاء من مراتب العظمة، ورواتب المال، وتحابي من تريد بما تشاء من حقوق الأمة وأموالها؟ أم يكون التصرف في ذلك كله إعطاء وتحديدا ومنعا منوطا بالأمة ؟

٩ – طاعة الأمة للحكومة : هل الإرادة للأمة وعلى الحكومة العمل، أم الإرادة للحكومة وعلى الأمة الطاعة ؟ وهل للحكومة تكليف الأمة طاعة عمياء بلا فهم ولا اقتناع، أم عليها الاعتناء بوسائل التفهيم والإذعان لتتأتى الطاعة بأخلاق وأمانة ؟

١٠ – توزيع التكليفات : هل يكون وضع الضرائب مفوضا لرأي الحكومة، أم الأمة هي التي تقرر النفقات اللازمة، وتعيين موارد المال، وترتب طرائق جبايته وحفظه ؟

١١ – إعداد المنعة : هل يكون إعداد القوة بالتجنيد والتسليح، استعدادا للدفاع، مفوضا لإرادة الحكومة، إهمالا أو إقلالا أو إكثارا أو استعمالا على قهر الأمة، أم يلزم أن يكون ذلك برأي الأمة وتحت أمرها، بحيث تكون القوة منفذة رغبة الأمة لا رغبة الحكومة ؟

١٢ – المراقبة على الحكومة : هل تكون الحكومة لا تسأل عما تفعل، أم يكون للأمة حق السيطرة عليها لأن الشأن شأنها، فلها أن تنيب عنها وكلاء لهم حق الاضطلاع على كل شيء، وتوجيه المسؤولية على أي كان، ويكون أهم وظائف النواب، حفظ الحقوق الأساسية المقررة للأمة على الحكومة ؟

١٣ – حفظ الأمن العام : هل يكون الشخص مكلفا بحراسة نفسه ومتعلقاته، أم تكون الحكومة مكلفة بحراسته، مقيما ومسافرا، حتى من بعض طوارئ الطبيعة، بالحيلولة لا بالمجازاة والتعويض؟

١٤ – حفظ السلطة في القانون : هل يكون للحكومة إيقاع عمل إكراهي على الأفراد برأيها، أي بدون الوسائط القانونية، أم تكون السلطة منحصرة في القانون، إلا في ظروف مخصوصة ومؤقتة ؟

١٥ – تأمين العدالة القضائية : هل يكون العدل ما تراه الحكومة، أم ما يراه القضاة المصون وجدانهم من كل مؤثر غير الشرع والحق، ومن كل ضغط حتى ضغط الرأي العام؟

١٦ – حفظ الدين والآداب : هل يكون للحكومة، ولو القضائية، سلطة وسيطرة على العقائد والضمائر، أم تقتصر وظيفتها في حفظ الجامعات الكبرى كالدين، والجنسية، واللغة، والعادات، والآداب العمومية، على استعمال الحكمة ما أغنت عن الزواجر، ولا تتداخل الحكومة في أمر الدين ما لم تنتهك حرمته، وهل السياسة الإسلامية سياسة دينية، أم كان ذلك في مبدأ ظهور الإسلام، كالإدارة العرفية عقب الفتح ؟

١٧ – تعيين الأعمال بقوانين : هل يكون في الحكومة، من الحاكم إلى البوليس، من يطلق له عنان التصرف برأيه وخبرته، أم يلزم تعيين الوظائف، كلياتها وجزئياتها، بقوانين صريحة واضحة، لا تسوغ مخالفتها ولو لمصلحة مهمة، إلا في حالات الخطر الكبير؟

١٨ – كيف توضع القوانين : هل يكون وضعها منوطا برأي الحاكم الأكبر، أو رأي جماعة ينتخبهم لذلك، أم يضع القوانين جمع منتخب من قبل الكافة ليكونوا عارفين

حتما بحاجات قومهم وما يلائم طبائعهم ومواقعهم وصوالحهم، ويكون حكمه عاما أو مختلفا، على حسب تخالف العناصر والطبائع، وتغير الموجبات والأزمان ؟

١٩ – ما هو القانون وقوته : هل القانون هو أحكام يحتج بها القوي على الضعيف، أم هو أحكام منتزعة من روابط الناس بعضهم ببعض، وملاحظة فيها طبائع أكثرية الأفراد، ومن نصوص خالية من الإبهام والتعقيد، وحكمها شامل كل الطبقات، ولها سلطان قاهر نافذ مصون من مؤثرات الأغراض والشفاعة والشفقة، وبذلك يكون القانون هو القانون الطبيعي للأمة، فيكون محترما عند الكافة، مصون الحماية من قبل كل أفراد الأمة ؟

٢٠ – توزيع الأعمال والوظائف: هل يكون الحظ في ذلك مخصوصا بأقارب الحاكم وعشيرته ومقربيه، أم توزع كتوزيع الحقوق العامة على كافة القبائل والفصائل، ولو مناوبة مع ملاحظات الأهمية والعدد، بحيث يكون رجال الحكومة أنموذجا من الأمة، أو هم الأمة مصغرة، وعلى الحكومة إيجاد الكفاءة والأعداد ولو بالتعليم الإجباري ؟

٢١ – التفريق بين السلطات السياسية والدينية والتعليم : هل يجمع بين سلطتين أو ثلاث في شخص واحد، أم تخصص كل وظيفة من السياسة والدين والتعليم، بمن يقوم فيها بإتقان، ولا إتقان إلا بالاختصاص، وفي الاختصاص لا يجوز الجمع منعا لاستفحال السلطة.

٢٢ – الترقي في العلوم والمعارف : هل يترك للحكومة صلاحية الضغط على العقول كي لا يقوى نفوذ الأمة عليها، أم تحمل على توسيع المعارف، بجعل التعليم الابتدائي عموميا بالتشويق أو الإجبار، وبجعل الكمالي منه سهلا للمتناول، وجعل التعليم والتعلم حرا مطلقا ؟

٢٣ – التوسيع في الزراعة والصناعة والتجارة: هل يترك ذلك للنشاط المفقود في الأمة، أم تلزم الحكومة بالاجتهاد في تسهيل مضاهاة الأمم السائرة، لا سيما المزاحمة والمجاورة، كي لا تهلك الأمة بالحاجة لغيرها، أو تضعف بالفقر ؟

٢٤ – السعي في العمران : هل يترك ذلك لإهمال الحكومة المميت لعزة نفس السكان،

أو لانهماكها فيه إسرافا وتبذيرا، أم تحمل على اتباع الاعتدال المتناسب مع الثروة العمومية ؟

٢٥ – السعي في رفع الاستبداد : هل ينتظر ذلك من الحكومة ذاتها، أم نوال الحرية ورفع الاستبداد، رفعا لا يترك مجالا لعودته هو من وظيفة عقلاء الأمة وسراتها ؟

هذه خمسة وعشرون بحثا، كل منها يحتاج إلى تدقيق عميق، وتفصيل طويل، وتطبيق على الأحوال والمقتضيات الخصوصية، لكني سأقصر الكلام حول البحث الأخير، والكلام للكواكبي، ألا وهو **السعي في رفع الاستبداد**، فأقول :

(١) – الأمة التي لا يشعر كلها أو أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية .

(٢) – الاستبداد لا يقاوم بالشدة إنما يقاوم باللين والتدرج .

(٣) – يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يستبدل به الاستبداد .

هذه هي قواعد رفع الاستبداد، وهي قد تبعد آمال الأسراء، وتسر المستبدين، لأن ظاهرها يؤمنهم على استبدادهم، لكني سأذكر المستبدين بقول الفياري (١٧) ((لا يفرحن المستبد بعظيم قوته ومزيد احتياطه، فكم من جبار عنيد جندله مظلوم صغير))، وأنا أقول : كم من جبار قهار أخذه الله أخذ عزيز منتقم .

- مبنى قاعدة كون الأمة التي لا يشعر أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية هو:

إن الأمة إذا ضربت عليها الذلة والمسكنة، وتوالت على ذلك القرون والبطون، تصير تلك الأمة سافلة الطباع كالبهائم أو دون ذلك، لا تسأل عن الحرية، ولا تلتمس العدالة، ولا تعرف للاستقلال قيمة أو للنظام مزية، ولا ترى لها في الحياة وظيفة غير التابعية للغالب عليها، أحسن أو أساء على حد سواء، وقد تنقم على المستبد أحيانا، لكنها تنقم على شخصه، لا خلاصا من الاستبداد، فلا تستفيد شيئا.وقد تقاوم مستبد بمستبد آخر أقوى شوكة، تتوسم فيه خيرا، لكنها لا تستفيد شيئا كمن يستبدل مرض مزمن بمرض جديد. وقد تنال الحرية عفوا أو صدفة، لكنها أيضا لا تستفيد شيئا لأنها أمة لا تعرف طعم الحرية فلا تحافظ عليها، وتنقلب الحرية إلى فوضى تصل لدرجة استبداد

مشوش أشد وطأة، كالمريض إذا انتكس، لذلك يقول الحكماء أن الحرية التي تنفع الأمة هي التي تحصل عليها بعد الاستعداد لقبولها، أما التي تحصل عليها إثر ثورة حمقاء فقلما تفيد شيئا، لأن الثورة غالبا تكتفي بقطع شجرة الاستبداد ولا تقتلع جذورها، فلا تلبث أن تنبت وتنمو وتعود أقوى مما كانت أولا.

لذلك على الطليعة في الأمة الميتة أن يبثوا فيها الحياة، وهي العلم، علمها بأن حالتها سيئة، وأن بالإمكان تغييرها بخير منها، فإذا علمت تبدأ تشعر بآلام الاستبداد، ثم يترقى هذا الشعور حتى يشمل أكثر الأمة، لدرجة يصبح لسان حالها يقول مع المعري :

إذا لم تقم بالعدل فينا حكومة　　　فنحن على تغييرها قدراء

ويندر أن تخلوا أمة ميتة من طليعة، لكن الطليعة حتى تكون مؤثرة في الأمة، عليها أن تتحلى بما يلي:

١ – أن تجهد في ترقية معارفها عامة، وخاصة علم الاجتماع، الحقوق، السياسة والاقتصاد والفلسفة، التاريخ الطبيعي والسياسي، الجغرافيا، الإدارة الداخلية والإدارة الحربية.. إلخ، إما بالدراسة المنظمة أو بالاضطلاع والثقافة .

٢ – أن يتقن الطليعي أحد العلوم التي تكسبه في قومه موقعا مرموقا، كعلوم الدين والحقوق والهندسة والطب .

٣– أن يحترم عادات وتقاليد قومه، حتى لو كان فيها بعض السخف أحيانا.

٤– أن يقلل اختلاطه مع الناس حتى مع رفاقه، حفاظا على وقاره، وكيلا يسقط بسقوط أحدهم.

٥– أن يتجنب مصاحبة الممقوتين، حتى الحكام منهم .

٦– أن يكتم مزيته العلمية عمن دونه علما، خوفا من الحسد، وأن يظهرها لمن هم فوقه .

٧ – أن يكون على علاقة مع جهة ممن ينتمون إلى الطبقة العليا، لكن عليه أن لا يكثر التردد عليه، ولا يشاركه شؤونه، ولا يظهر له الحاجة، ويتكتم على علاقته معه .

٨ – عليه أن يقلل من إظهار آرائه، حتى لا يؤخذ عليه تبعات رأيه .

٩ – أن يكون معروفا بالصدق والأمانة والثبات على المبادئ .

١٠ – أن يظهر الشفقة على الضعفاء، والغيرة على الدين، والعلاقة بالوطن .

١١ – عليه أن يبتعد عن مقاربة المستبد وأعوانه، إلا بمقدار ما يأمن به فظائعهم .

فمن بلغ فوق الثلاثين، وحاز على هذه الصفات الآنفة، حينها يمكن أن يحرز ثقة قومه، وبهذه الثقة يفعل ما تعجز عن فعله الجيوش والكنوز، وكلما نقصت واحدة من هذه الميزات نقصت قيمته، لكنه يمكن أن يعوضها بكمال الأخرى، وقد تغني الصفات الأخلاقية عن الصفات العلمية لكن العكس غير صحيح .

- ومبنى قاعدة أن الاستبداد لا يقاوم بالشدة، إنما يقاوم بالحكمة والتدريج هو:

الوسيلة الوحيدة الفعالة لقطع دابر الاستبداد، هو ترقي الأمة في الإدراك والإحساس، وهذا لا يحصل إلا بالتعليم، واقتناع العامة بما لم يألفوه قد يستغرق زمنا طويلا، وهم معذورون في ذلك، لأنهم ألفوا أن لا يتوقعوا من الرؤساء والدعاة إلا الغش والخداع، وأحيانا قد يحب الأسراء المستبد الكبير حين يقهر أعوانه ممن هم دونه، لأنهم يرون أن ظلمهم المباشر يأتي من هؤلاء الأعوان وليس من المستبد نفسه .

والاستبداد عادة محفوف بقوات كثيرة مثل، السلطة، الجيش خاصة إذا كان فيه مرتزقة، المال، التعود على القسوة، قوة رجال الدين، قوة أهل الثروات، وقوة الأنصار من الأجانب، هذه القوات مجتمعة لا يمكن أن تقاوم بفكر عام غوغائي، لكن يمكن مقاومته بالثبات والعناد المصحوبان بالحزم والإقدام .

والاستبداد يجب أن لا يقاوم بالعنف، كي لا تكون فتنة تحصد الناس حصدا، صحيح أن الاستبداد قد يبلغ درجة تؤدي إلى إحداث فتنة، لكن على العقلاء أن يبتعدوا عنها، حتى إذا سكنت وقضت على المنافقين، حينها يوجهون الحكومة باتجاه تأسيس العدالة، وخير ما تؤسس عليه العدالة هو أن تقوم حكومة لا عهد لرجالها بالاستبداد، ولا علاقة لهم بالفتنة .

والعوام لا يثور غضبهم على المستبد إلا عقب أحد الحالات التالية :

(١) – عقب مشهد دموي يوقعه المستبد على مظلوم .

(٢) – عقب حرب يخرج منها المستبد مهزوما، ولا يستطيع إلصاق سبب الهزيمة بخيانة القواد .

(٣) – إذا قام المستبد بإهانة الدين، والاستهزاء بقيمه .

(٤) – عقب التضييق على الناس ماديا، خاصة الطبقة المتوسطة .

(٥) – بعد مجاعة أو مصيبة عامة، لا يرى الناس فيها مواساة من المستبد .

(٦) – إذا قام المستبد بعمل يستفز الغضب الفوري، كتعرضه للعرض، أو حرمة الجنائز والأماكن المقدسة .

(٧) – عقب حادث يدفع بالنساء للاستغاثة والاستجارة .

(٨) – عقب ظهور موالاة شديدة من المستبد لمن تعتبره الأمة عدوا لشرفها .

والمستبد مهما كان غبيا، فلن ينزلق في هذه المزالق، إلا إذا ورطه فيها أحد أعوانه، وأعوان المستبد عادة هم الأقدر على حمايته أو توريطه في هذه المنزلقات .

- ومبنى قاعدة أنه يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يستبدل به الاستبداد هو:

للإقدام على أي عمل، يجب معرفة غايته والطريق الموصلة إليه، ويجب أن يوافق عليه الأكثرية، ما فوق الثلاثة أرباع، لأن الغاية إذا كانت مبهمة يكون الإقدام ناقصا، وإن كانت الغاية مبهمة والطريق إليها مبهما، يمكن أن يحصل الخلاف في أثناء الطريق، فيفسد العمل وتنقلب الحالة إلى فتنة، لذلك يجب تعيين الغاية بصراحة وإخلاص، وإشهارها بين الكافة، والسعي في إقناعهم وأخذ رضاهم بها، وحثهم على المطالبة بها، ويجب تقرير شكل الحكومة القادم والتي يراد استبدال الاستبداد بها، وهذا ليس بالأمر السهل .

والخلاصة، يجب أولا تنبيه حس الأمة بآلام الاستبداد، والانتظار حتى تنضج الفكرة

وتتوق الأمة إلى الحرية، ويجب عدم تخويف المستبد حتى لا يأخذ حذره ويزيد من حرصه، فينكل بالمجاهدين ويكثر الضجيج، حينها قد تستغل إحدى الدول الأجنبية الفرصة وتتدخل لتغيير حكومة الاستبداد، ويكون الشعب قد استبدل الاستبداد باستبداد آخر أكثر سوءا.

وفي النتيجة نقول: إن الله جلت حكمته، قد جعل الأمم مسؤولة عن أعمال من تحكمه عليها، وهذا حق، فإذا لم تحسن أمة سياسة نفسها أذلها الله لأمة أخرى تحكمها، ومتى بلغت أمة رشدها، وعرفت للحرية قدرها، استرجعت عزها، وهذا عدل.

* * *

هوامش في الاستبداد

١ – عباس الثاني (١٢٩١ – ١٣٦٤ هج = ١٨٧٤ - ١٩٤٤ م)، خديوي مصر بين عامي (١٨٩٢ – ١٩١٤ م)، هو الابن الكبير للخديوي توفيق، حاول مقاومة الاحتلال البريطاني لمصر، خلعه البريطانيون في (ك١ / ديسمبر/ ١٩١٤ م)، بعد أن فرضوا حمايتهم على مصر، ونفي إلى سويسرا .

٢ – نلاحظ هنا أن الكواكبي يريد أن تكون الشريعة (القانون) هي الإطار العام الذي يراقب من خلاله عمل السلطة (الحكومة) .

٣ – بلا زمام: أي بلا قانون ملزم، والقيود الثقال : أي جعل سلطة الرؤساء مقيدة بالقوانين .

٤ – وقد أحسن الكواكبي باختيار كلمة (المفادي) على وزن مجاهد ومقاتل، بدلا من (الفدائي) التي ينصرف معناها إلى وصف التكتيك القتالي، وصفا للفعل، أما المفادي فهو الذي يفتدي بنفسه مبادئه ووطنه .

٥ – وكأني بالكواكبي لا يدعو إلى مبدأ فصل السلطات .

٦– سورة النمل، الآية (٣٤) .

٧ – سورة آل عمران – الآية (١٥٩) .

٨ – سورة النساء – الآية (٥٨) .

٩ – سورة آل عمران – الآية (١٠٤) .

١٠ – رواه أبو داوود : الملاحم، الترمذي : الفتن، ابن حنبل: المسند ج٥ / ص ٣٨٨ و٣٩٠ و٣٩١ .

١١ – وبرأيي أن أكثر من ثلثي العالم يعيش عالة على ثلثه الآخر، إذا كان معيار ذلك من ينتج ومن يستهلك.

١٢ – جائرة .

١٣ – أصل الجملة شطر من بيت للمتنبي، يقول :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم .

١٤ – قرآن كريم – سورة هود – الآية (١٨) .

١٥ – قرآن كريم – سورة البقرة – الآية (١٩٣)، في الأصل ((ولا عدوان)) .

١٦ – قرآن كريم – سورة يونس – الآية (٤٤) .

١٧ – فيتوريو الفياري (١٧٤٩ – ١٨٠٣ م) شاعر إيطالي ولد في إستي، من أعماله : ما هو الاستبداد (١٧٧٧)، مسرحية ساول(١٧٨٢)، وبروتوس الثاني(١٧٨٩)، واقتباس الكواكبي مأخوذ من كتاب الفياري ((ما هو الاستبداد)) .

* * *

ما أشبه اليوم بالأمس ، وما أشبه الأمس باليوم

الخاتمة

يحار المرء حين ينهي حديثه عن الكواكبي ، وعما قاله الكواكبي، بماذا يختم كلامه ، ومصدر هذه الحيرة، أن هؤلاء العمالقة أمثال الكواكبي وغيره من المفكرين جاءوا بأفكار جد غنية وثرية، هامة ليس لعصرهم فحسب بل قد تكون هامة لكل العصور ، وهذا ما جعل منهم مفكرين كبار، وأنت حين تتابع ما كتبه وما قاله هؤلاء تجد نفسك أمام مجموعة كبيرة من الأفكار التي يجب أن لا تغيب عن ذهن القارئ، وتجد نفسك أمام تنوع مذهل في الشخصية يجب أن لا تغيب بصمتها وتأثيرها عن ذهن المتابع.

فعند الكواكبي مثلا ، هل يجب التوقف عنده **كرجل دين** ، بعيد عن التعصب ، يأنس بمجلسه المسلم والمسيحي واليهودي على السواء، وقد كانت جرائده التي أسسها منبرا لكل مفكر مستنير، سواء كان مسلما أم مسيحيا، لأنه كان يرى رابطة الوطن فوق كل رابطة ، كما كتب عنه العلامة محمد كرد علي في مجلة الهلال ، أم يجب التأكيد على الكواكبي **المفكر الثائر** الملتزم ، الذي يتطابق عنده القول بالفعل ، ويمتزج فيه الفكر مع السلوك والممارسة ، ((صاحب النفس النزيهة، التي لا يخدعها مطمع ولا يغريها منصب، شجاع فيما يقول ويفعل، مهما جرّت عليه شجاعته من سجن وضياع مال وتشريد)) كما كتب عنه أحمد أمين في زعماء الإصلاح ؟!

أم يجب تسليط الضوء عليه كنموذج مثالي **للصحفي** الذي يلتصق بقضايا شعبه،

ويعبر عن قضايا الأمة ومشاكلها، كما يراها ، بكل صدق وأمانة ، ويضع إصبعه على جروحها مدللا على مكمن دائها ومعاناتها كما عايشها، ويدافع عن حقوق المواطنين في بلده، بغض النظر عن دينهم ومذهبهم ؟!

لقد كان الكواكبي رحمه الله، مزيجا من كل هؤلاء، فترك في أبناء عصره وفي الأجيال التي تعاقبت بعده بصمة لا تمحى، لكني أرى أن أهم ما يميز الكواكبي عن غيره من المفكرين والمثقفين أنه :

١ – تناول أدواء تخلف الأمة عامة ، وداء الاستبداد خاصة ، بمبضع جراح، فشخص المرض وحدد علامات وجوده ، تكلم عن أسبابه، وعن أعراضه وعن مضاعفاته، وفي النهاية وضع لنا تصورا لعلاجه، ولم يكن الكواكبي أنانيا أو متعصبا لآرائه وأفكاره بل دعا جميع أبناء الأمة ليساهموا بآرائهم وأفكارهم في تدارس أوضاع الأمة ووضع حلول لما تعانيه من أمراض وعقبات . والأهم من هذا أنه أقر بوجود آفات وأمراض تهدد الأمة وتقف حجر عثرة في وجه تطورها وتقدمها، ولم يقل كغيره من المفكرين والمثقفين الذين أعماهم التعصب بأننا كنا ومازلنا خير أمة أخرجت للناس .

٢ – لقد كان الكواكبي سباقا لزمانه، في طرح أفكار ثبت بالدليل القاطع على أهميتها وضرورتها لنهوض الأمة ولحل مشاكلها ، فدعا إلى عقد مؤتمر يضم ممثلين عن كل المسلمين في كل أصقاع العالم الإسلامي ، كي يتدارسوا واقع الأمة الإسلامية ويضعوا آراءهم وأفكارهم للنهوض بالأمة من عثراتها وتخليصها من أمراضها، وذلك قبل تشكيل المؤتمر الإسلامي والمؤتمر القومي العربي بعشرات السنين، وقد كان كتابه ((**أم القرى**)) تسجيلا لمحاضر مثل هذا الاجتماع الذي تصوره يعقد في مكة المكرمة، والأهم من هذا أن ما طرحه الكواكبي في كتابه ((أم القرى)) من آراء ومواقف وحلول جريئة وواضحة، متقدم على كل ما جاءت فيه المؤتمرات الإسلامية والقومية العربية حتى الآن، ومن لم يصدق فما عليه سوى العودة إلى كتاب أم القرى وإلى جميع مقررات هذه المؤتمرات التي عقدت حتى الآن ، ويقارن بينها ليعرف الفرق .

٣ – إن فيما طرحه الكواكبي من أفكار جرأة وتقدما ، لم يسبقه إليها أحد، فقد كان رحمه الله ، لا يحسب حسابا إلا لما يراه في مصلحة الأمة ، على الأقل كما يراها هو، غير

عابئ بحاكم مستبد ، أو برد فعل المجتمع والناس من حوله، هؤلاء الناس الذين اعتادوا أفكارا ومفاهيم أودت بهم لما هم فيه .

فهو أول من ربط بين الاستبداد الديني والاستبداد السياسي ، ربط العلة بالمعلول، وقال بأفضلية الحاكم الكافر العادل على الحاكم المسلم المستبد، ودعا إلى الوحدة القومية بدل الوحدة على أساس الدين، كما قال بفصل الدين عن الدولة ((العلمانية))، ورفع شعار الديمقراطية وسماها الشورى الدستورية ، وتحدث عن حالة الفقر المدقع والجوع الذي بلغه الناس في ظل السلطنة العثمانية ، كما تحدث عن تهميش العرب وغيرهم من القوميات في ظل الحكم العثماني المستبد، كل هذا وهو يعيش في كنف سلطة تحكم باسم الإسلام وتدعي أنها دولة الخلافة ، ورفع كل هذه الشعارات ودعا إلى كل هذه الأفكار في مجتمع وبين أناس يعيشون على فطرتهم وعلى ما توارثوه من عادات وأفكار، إذ كان عدد المتعلمين والمتنورين في ظل حكم عثماني ظالم ومستبد دام قرابة الأربعة قرون يكاد يشار إليه بالبنان ، ولا يشك أحد بأن الكواكبي قد دفع حياته ثمنا لجرأته ومواقفه هذه.

٤ – لقد سلط الكواكبي الضوء على كثيرمن القضايا والمواقف والأحداث السياسية، تتطابق في شكلها ومضمونها مع قضايا ومواقف وأحداث تحدث هذه الأيام ، لدرجة توحي إما بأن الزمن قد توقف عند أيام الكواكبي، والزمن لا يتوقف طبعا، أوأن الكواكبي كان ثاقب النظر حاد البصيرة بحيث يقرأ الغيب والمستقبل، أو وهو الأرجح أن التاريخ يمكن أن يكرر نفسه بعناصر جديدة ، خاصة حين لا يستفيد الناس من قراءة التاريخ ولا يتعلمون منه .

فهو يسلط الضوء على الدور الإيراني القذر الذي تلعبه إيران في إثارة القلاقل والمشاكل ، داخل المدن الإسلامية آنذاك، ويتحدث عن تعاطف العلويين والنصيريين ودورهم معها في إثارة هذه القلاقل والمشاكل ، لدرجة توحي وكأنه يتحدث عن الدور القذر الذي تقوم فيه إيران في إثارة القلاقل والمشاكل وتمزيق المجتمعات هذه الأيام في سوريا والعراق ولبنان واليمن والبحرين وبالتعاطف مع نفس المجموعات أيضا .

والحديث الذي تناول فيه ادعاء روسيا ، تلك الأيام ، عن حمايتها لمسيحيي الشرق،

شبيه تماما بادعائها وادعاء غيرها من الدول الكبرى بحرصهم على حماية الأقليات في دول الربيع العربي هذه الأيام.

أما حديث الكواكبي عن عساكر الجبل الأسود ((المسلمين)) وشدة بغيهم في ألبانيا، مما أدى إلى ضجر الأهالي وسخطهم ، مسلمين ومسيحيين ، يذكرنا تماما ببغي داعش وأخواتها هذه الأيام، وتذمر المسلمين والمسيحيين منهم ومن ظلمهم وبغيهم.

يحدثنا الكواكبي في أحد مقالاته وعلى صفحات جريدته، عن تناقص عدد سكان حلب في ظل الاحتلال العثماني من [٦٠٠ ألف إلى ١٠٠ ألف]، والسؤال الذي يطرح نفسه ترى هل تناقص عدد سكان حلب في ظل الاحتلال والاستبداد العثماني أكثر، أم في ظل الاستبداد والاحتلال الأسدي الإيراني ؟!

وتوقيف جريدة الكواكبي ((الشهباء)) ، بأمر من السلطات العثمانية وما تكبده الكواكبي من خسائر جراء هذا التوقيف، يذكرنا بالخسائر التي تكبدها علي فرزات من توقيف جريدته ((الدومري)) بأمر من السلطات السورية أيضا، وكما لاحقت السلطات العثمانية الكواكبي حتى تمكنت من اغتياله، كذلك لاحقت السلطات الأسدية الإيرانية علي فرزات وكسرت يديه ، لكنه نجا من محاولتها اغتياله .

ويتحدث الكواكبي عن الفساد في ظل الاستبداد، وعن المستبد الذي يقدم أهمية القوة العسكرية على جميع الإصلاحات السياسية والاقتصادية في بلده، وكأني به يتحدث تماما عن أنظمة الاستبداد العربي ، التي قامت عليها ثورات الربيع العربي .

وحين يتحدث الكواكبي عن فساد العلماء ((علماء الدين)) وعن جبنهم ونفاقهم وتملقهم للحكام، يذكرنا بعلماء السلطة هذه الأيام ، فكل حاكم مستبد حوله مجموعة من علماء الدين الذين يفتون له ويبررون أفعاله ويدعون له على المنابر، ما شاء الله !!!!

لكن ومع كل أسف ، يبدو أن أفكار الكواكبي وما دعا إليه من مفاهيم قد ذهبت جميعها أدراج الرياح، ولم تستفد مجتمعاتنا منها شيئا ، وتراجعت الأمور والمفاهيم المجتمعية والسياسية كثيرا عما كانت عليه أيام الكواكبي ، فقد دعا الكواكبي إلى نشر التعليم بين الذكور والإناث على السواء، بينما نجد الطالبان وداعش يغلقون المدارس

ويمنعون تعليم الفتيات ، ويقومون باغتيال طفلة لمجرد أنها ذاهبة إلى المدرسة ، مخالفة بذلك إرادتهم وتعاليمهم .

وأكد الكواكبي في كل ما كتبه على الإخاء الإسلامي المسيحي، ودعا إلى بناء دولة المواطنة تحت شعار((المواطنون أباهم الوطن ، وأمهم الدولة)) ، بينما نرى مجتمعاتنا هذه الأيام تعود بأفكارها إلى ما قبل الدولة ، وبعيدا عن مفهوم الدولة بمعناها المعاصر، وتتخندق الناس خلف انتماءاتها القبلية والعشائرية والطائفية والمذهبية والدينية، مما يهدد مجتمعاتنا بحروب لا تنته ، قد تودي بهذه الأوطان وتبعثرها شظايا ، لا سمح الله .

كل هذا يدفعنا إلى العودة ، ليس إلى ما قاله الكواكبي فحسب ، بل إلى جميع مفكري عصر النهضة وإلى ما قالوه أيضا، ليس بهدف العودة إلى الماضي وتقليده والعيش فيه ، ولكن بهدف بناء مستقبل أفضل لهذه الأمة ، لأن ما قاله هؤلاء المفكرين وما أتوا به من أفكار، يشكل لبنة حقيقية صلبة يمكن أن تكون أساسا نبني عليه مستقبلنا الأفضل الذي نحلم فيه .

أتمنى أن يجد القارئ ، فيما كتبته وقدمته بعض الفائدة

والله ولي التوفيق .

د . عبد الكريم المويل

تنويه :

المفكر الراحل **إلياس مرقص**، هذا المناضل والمفكر الكبير، الغائب عنا والمغيب عن ساحتنا السياسية والثقافية، تساءل في أحد كتبه، ترى هل توقفت الكتابة عن الاستبداد عند ما كتبه الكواكبي فقط ؟ خاصة وأن القرن العشرين الذي أعقب وفاة الكواكبي قد عرف أعتا أنواع الاستبداد والمستبدين، وعرف فيه الاستبداد من الصور والأشكال والأساليب والتطور، ما لم يكن معروفا وما لم تشهده القرون التي سبقت حياة الكواكبي ؟

أتمنى أن يكون هذا السؤال حافزا للجميع لأن يحاولوا الإجابة عليه، وأن يدلي كل من المهتمين بدلوه، خاصة وأن الاستبداد هو آفة آفاتنا كلها، ومساهمة مني في الإجابة عن هذا التساؤل، سوف يكون موضوع كتابي القادم ((**في الاستبداد**))، أتوقف فيه عند النقاط التالية :

- الاستبداد وأشباهه .
- أسباب الاستبداد، ودور الدين في تكريس الاستبداد، فكرا وممارسة.
- أهمية دور المواطن، الرازح تحت وطأة الاستبداد في تكريس الاستبداد وديمومة المستبدين .
- دور العامل الخارجي في تكريس الاستبداد وحماية الأنظمة الاستبدادية من شعوبها.

وإلى لقاء في الكتاب القادم.

الفهرس

